علم نفس

شيلا اوستراندر / لين شرودر

عِلمُ نَفسِ الحَاسَّةِ السَّادِسَةِ

نحو برهان وتفسير عِلميّين للظاهِرات الباراسيكولوجيَة وفوقَ الطبيعية

دار الطليعة - بيروت

الـفهــرس

تمهيد

في عام ١٩٦٧ تنوقلت ذبذبات تخاطرّية (١) مرمـوزة بين موسكو ولينينغراد بواسطة جهاز حديث جدا وشديد التعقيـد يسجل ردود فعل دماغ الاشخاص المتلقين (٢) . ويقول العلماء السوفياتيون انه امكنهم ان يفكوا رموز الرسالة بواسطة آلات ؛ ويعلنون انهم استطاعوا ان ينقلوا تخاطريا كلاما من فرد الى آخر على مسافة ٦٠٠ كيلومتر . وفي مناطق اخرى من روسيا تشير مجلات متخصصة وجامعات الى ظاهرات ابعث على الاستغراب من التخاطر المسجل على الناظمة الالكترونية . وقد نشرت صور فوتوغرافية لأشعة ضوئية صارخة التلوين تومض حول جسم بشري . أهي «الهالة» التقليدية التي يتحدث عنها المتخاطرون منذ

---

١ ــ نسبة الى التخاطر او التلباتي Télépathie . ــم ــ
٢ ــ Récepteurs . ــم ــ

زمن بعيد ؟ يؤكد العلماء الذين يدللون على حذر واحتراس في تعابيرهم : «تومض بروق كهربائية ، ذات لون ازرق وبرتقالي . ذيول طويلة من ومضات باهرة بلون بنفسجي. انها لتجربة غامضة وغريبة : عالم سحري اخاذ !» . ويزعم السوفياتيون انهم بنوا آلة تتيح لأي انسان كان ان يرى بالالوان الهالة الاسطورية التي ما كان يعانيها حتى ذلك اليوم سوى الوسطاء (٣) والمتخاطرون .

في منطقة البلطيق ، يتجول الجيولوجيون السوفياتيون وهم ممسكون بعصي كشافة للينابيع ؛ وفي الاورال ، يجرون تجاربهم بالإبصار عن غير طريق شبكية العين . وعلى مقربة من البحر الاسود ، درسوا يدي مبرىء (٤) . ان الباراسيكولوجيا(٥) ، التي لم يكن لها من وجود في الاتحاد السوفياتي قبل أقل من عشر سنوات ، تعرف اليوم على امتداد أرجائه ازدهارا مفاجئا .

لقد قادتنا سلسلة مدهشة من الاحداث ، على مدى ثلاث سنوات ، الى صب اهتمامنا على ذلك الابهاث المذهل للابحاث الباراسيكولوجية في البلدان الشرقية . وعلاوة على الكتب والمقالات والمسرحيات والقصائد التي كتبتها كل واحدة منا حول مواضيع متباينة للغاية ، كنا قد نشرنا منذ عدة سنوات مقالات عن الاتحاد السوفياتي . وقد اقامت واحدة منا لفترة مديدة من الزمن في الاتحاد السوفياتي اثناء عام ١٩٦١ ضمن نطاق رحلة

---

٣ ـ Médiums . ـمـ

٤ ـ المبرىء Guérisseur : من يشفي من دون ان يكون طبيبا وبغير وسائل الطب المعروفة . ـمـ

٥ ـ الباراسيكولوجيا ، كالميتاسيكولوجيا ، اي ، حرفيا ، علم ما وراء النفس ، مثلما نقول عن الميتافيزيقا انها علم ما وراء الطبيعة . الباراسيكولوجيا هي علم الظاهرات النفسية غير المعروفة او غير المبرهن عليها بعد علميا. ـمـ

دراسية جامعية . وما كانت مقالاتنا تتناول فقط سياسة الاتحاد السوفياتي ، بل كذلك مجريات الحياة اليومية فيه . واذا كان التعايش مع السوفياتيين ضروريا ، فمن المنطقي على ما يبدو لنا ان نحاول التعرف اليهم على نحو افضل .

وطفقنا نجمع من الصحف والنشرات الدورية السوفياتية بعض معلومات غريبة للغاية عن الحياة في روسيا ، ومقالات عن الظاهرات الميتانفسية . كان العلماء السوفياتيون يتساءلون علنا: «ما الانسان ؟» . هل لدينا طاقات عجيبة لم يشتبه احد بوجودها حتى يومنا هذا ؟ هل في مستطاع الباراسيكولوجيا ان تهدم الحواجز وان تخلق كائنا انسانيا فوق ـ طبيعي ؟ تلك هي الاسئلة الاساسية التي كان في مستطاع المرء ان يطالعها في المنشورات السوفياتية .

في عام ١٩٦٦ ، نشرت مجلة **العلم والدين** عددا خاصا (العدد ٣) عن الابحاث التخاطرية المعهودة التي تجري في روسيا. وقد طالبت شخصيات علمية بارزة في الاتحاد السوفياتي بتعميق المباحث العلمية بصدد التخاطر . ويلمع من بينها اسماء مشهورة: الدكتور سيميينوف ، الحائز على جائزة نوبل للكيمياء ونائب رئيس اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي ؛ واكاديميون من امثال الدكتور ليونتوفتش ، والدكتور منتس ، والدكتور ريبندر وهو عالم كيمياء وفيزياء ذائع الصيت ، والدكتور غليب فرانك ، مدير مدينة بوشينو العلمية على مقربة من موسكو . ولم تكن لغة الفلاسفة الماركسيين اقل صراحة ووضوحا . فجميع الانتقادات الموجهة الى الابحاث التخاطرية يتحمل تبعتها افراد يستخدمون الماركسية ـ اللينينية لا لغرض الا غرض الدفاع عن نزعتهم المحافظة في مضمار العلم . دوى صوت الدكتور ف. توغارينوف ، مدير قسم الفلسفة في جامعة لينينغراد ، يقول : «ان جميع اولئك الذين سيقفون عقبة في وجه تقدم العلم يجب ان يزاحوا !» .

كانت هذه ملاحظة سلافية للغاية ولاذعة للغاية لم نالف سماعها على لسان باحثين اميركيين في مضمار الباراسيكولوجيا. ولقد كنا كلتانا نهتم عظيم الاهتمام للجانب الميتانفسي من التجربة الانسانية . وكانت قد سبقت لنا الكتابة في هذا الموضوع . وقد حاولنا ان نقف على التطورات الجديدة فيعلم النفس وعلم ما وراء النفس ، وانضممنا الى «الجمعية الاميركية للابحاث النفسية» .
ولما كان هدفنا ان نكتب مقالا عن يقظة الاهتمام المفاجئة لدى السوفياتيين بالمضمار الميتاطبيعي ، فقد طفقنا نراسل العلماء السوفييت . وسرعان ما تجمع لدينا قدر واف من المعلومات لكتابة عدة مقالات ، وفي النهاية مادة كافية لتحرير كتاب .

وثمة واقعة اهم ؛ فقد غدا واضحا ان ثمة شيئا ما خارقا للمالوف يحدث فعلا في روسيا السوفياتية ، شيئا غير معروف كثيرا ، بل مثيرا للسخرية من وجهة النظر الغربية . ففيما كان العالم «الحر» يرفض ان يصدق أن الـ «إ.ف.ح» (٦) له وجوده ، لما في ذلك من خروج على كل عرف ، كنا نحن نقرأ ، في اثناء ذلك ، ان علماء سوفياتيين بارزين قد اجتازوا اشواطا حاسمة الاهمية في مضمار الابحاث الباراسيكولوجية ، وهو مضمار يجهله عادة علم الاقطار الغربية .

ماذا يعني هذا الاهتمام السوفياتي الجديد بالمضمار ما وراء الطبيعي ؟ ما دوافعه العلمية والسياسية والثقافية والفلسفية ؟ هذه وغيرها اسئلة كان يتعذر الاجابة عليها حالا . فالمراقبون الغربيون للعالم السوفياتي لا يبدو عليهم انهم يكترثون كثيرا لظاهرات إ.ف.ح ، ومعظم الباراسيكولوجيين الاميركيين ليسوا

---

٦ ــ الاحرف الاولى من مبحث «الادراك فوق الحواسي» E.S.P :
Extra Sensory Perception ــم ــ

من هواة «علم الكرملين» Kremlinologie في اوقات فراغهم . ولهذا ، حينما دعينا في عام ١٩٦٧ الى حضور المؤتمر القادم حول الـ «إ.ف.ح» ، الذي كان مقررا ان ينعقد في موسكو ، عقدنا العزم على حضوره . وقد كان هدفنا سبر «الاجواء» واستقاء المعلومات من مصادرها الاولى عن الابحاث الميتاطبيعية في العالم الشيوعي وعن اهميتها بالنسبة الى الجانب الميتانفسي من الكائنات البشرية . وحين انتهى تجوالنا عبر روسيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا ، كانت امتعتنا المتواضعة ساعة الانطلاق قد ازدادت بما ينيّف على ١٥٠ كيلوغراما اضافيا كانت تمثل ثمرة بحثنا . واننا لنأمل ان تجد بعض المعطيات العلمية والتقنية التي أبنا بها والتي لا يمكن تضمينها كتابا في العموميات، طريقها الى النشر على أيدي اختصاصيين في شتى الفروع العلمية المعنية .

انه يتعذر علينا في الوقت الراهن ان نزيح النقاب عن بعض جوانب تاريخ الـ «إ.ف.ح» في بلدان الكتلة الشرقية وعن بعض وثائقه . ولعلنا سنتمكن ذات يوم، حين تكون الشروط السياسية قد تطورت ، من ان ننشر مجموع اكتشافاتنا . وقد اضطررنا احيانا ، متى ما كان الامر متعلقا بأفراد زودونا بالمعلومات بصفة شخصية ، الى التكتم على اسمائهم لحمايتهم . لكننا لم نحرف في اي حال من الاحوال اسم رجال العلم المذكورين باسمائهم ، كما اننا لم نحرف او نعدل حرفا واحدا في التقارير المتعلقة بأعمالهم .

يلخص هذا الكتاب ما شاهدناه وسمعناه وقرأناه عن «إ.ف.ح» في الاتحاد السوفياتي . وقد اكتفينا بأن نروي ما قال لنا العلماء الشيوعيون انهم اكتشفوه بخصوص الـ «إ.ف.ح» . اما عن المسألة المتعلقة بمعرفة هل نظريات وملاحظات هؤلاء الباحثين في المضمار الباراسيكولوجي صحيحة او لا ، فلا سبيل الى الاجابة عليها الا بعد تحقيقات معمقة لا تزال تنتظر من يقوم

بها ، سواء أفي الشرق ام في الغرب .

لكن كما كتب فلاديمير موتشال بصدد الابحاث التخاطرية الجارية في الاتحاد السوفياتي في **نشرة العلم الاجنبي الاميركي** :

«حتى وإن كان ما يرويه الروس لا يطابق الحقيقة الا بصورة جزئية فقط ، فان تقاريرهم ترتدي اهمية كبيرة ، ما دام التواصل بالفكر قابلا للاستخدام في ميادين شتى ، نظير المواصلات ما بين الكواكب او توجيه السفن الفضائية» .

الفصل الأول

ابحاث سرية في عالم مجهول

في يوم صيفي جميل كنا ننتظر ، عند مدخل فندقنا في موسكو ، ان نتعرف الى عالمنا الباراسيكولوجي السوفياتي الاول . كان الموسكوفيون ، على ما بدا لنا ، منشغلين بأعمالهم قدر النيويوركيين ، وكانوا يغذون الخطى ، رغم الحرارة ، وهم يهبطون شارع غوركي ويمرون امام **فندق مينسك** الجديد ، على بعد ست مجموعات من الابنية من الكرملين . وكانت الالسن في بهو الفندق من حولنا تنطق بلغات كثيرة كثرة الفقاعات التي تخرج من زجاجة مياه غازية دافئة . وكان السياح الاجانب يؤلفون مجموعات يتحلق حولها الروس بتهذيب . وكان صغار الموظفين السوفياتيين يتوجهون الى اعمالهم لفترة ما بعد الظهر ، مرتدين

الزي الصيفي المعهود : نعالا ، بنطلونات من الكتان ، قمصان سبور من النايلون . وفجأة شق روسي ضخم الجثة ، محدودب الظهر قليلا ، صفوف الجموع باتجاهنا : كان يرتدي بكل اعتناء طقما غامق اللون خرج لتوه من المكواة البخارية ، مقلوب الاردان ، يذكرك للحال بعالم الهواء المكيف .

راح ادوارد ناوموف يردد بحرارة : «انني سعيد برؤيتكما ! انني مسرور للغاية !» ، وهو يشد بين يديه على الاصابع الغربية. ان البيولوجي ادوارد ناوموف واحد من ابرز العلماء السوفياتيين في مضمار الباراسيكولوجيا . وقد طاف بأرجاء روسيا قاطبة والقى اكثر من ٤٦٠ محاضرة عن «إ.ف.ح» ، وعرض افلاما حول هذا الموضوع في عدد لا يحصى من المعاهد . وقبل عشر سنوات لا اكثر ، لم يكن ثمة وجود لمهنة ناوموف . فقد كان الباراسيكولوجيون مجهولي الوجود في الاتحاد السوفياتي. ولكن بغتة انهارت ذات يوم (في مستهل الستينات) دفعة واحدة المحرمات الستالينية المفروضة على مضمار ابحاث ما وراء النفس .

وانكب منذئذ مشاهير من علماء الفيزيولوجيا والهندسة والبيولوجيا على دراسة الـ «إ.ف.ح» . وعرفت روسيا ، على الرغم من عدم اثارة ضجة حول الموضوع ، انتعاشا في البحث النفسي الحر . وليس الروس وحدهم هم الذين تصدوا لمواضيع من اشباه التخاطر والاستبصار والسيكوكينيزيا (هذه الاخيرة هي المقدرة التي يمتلكها الفكر على تحريك المادة بدون مساعدة قوى خارجية منظورة) ، وانما كذلك البلغاريون والتشيكوسلوفاكيون والبولونيون ، بمساعدة مباشرة من حكوماتهم . وتأمل هذه المجموعات الشيوعية المتأججة حماسة ان تثبت ان الحوادث فوق الطبيعية تخضع لقوانين الفكر . وهم يبذلون قصارى جهدهم لكي يبرهنوا على اننا نستطيع من الان ان نكتشف ونستخدم

ملكاتنا الميتانفسية .

لما كانت هي المرة الاولى التي نحط فيها على ارض موسكو في صيف ١٩٦٨ ذاك ، فقد كنا نتساءل عما اذا كان ينبغي ان نستخدم ملكاتنا فوق العادية للدخول في اتصال مع العلماء الشيوعيين . وليس ذلك لانهم يجهلون وجودنا : فقد كنا كتبنا، عندما سمعنا بالنهوض المفاجىء لابحاث الـ «إ.ف.ح» في الاتحاد السوفياتي ، الى العلماء السوفياتيين الذين كنا نتوخى فيهم الكفاءة ، وان كنا قد فعلنا ذلك دونما امل كبير . لكن عددا منهم فاجأنا بأن وجه الينا رسائل وبرقيات تتحدث عن اعمالهم ، ولبث البريد يتدفق . ومنذ ثلاث سنوات والى يومنا هذا يندر ان تمر اسابيع قليلة من دون ان تحمل الينا مغلفات بريدية مرسلة من موسكو او نوفوسيبيرسك قصاصات من الصحف تتعلق بتجارب «إ.ف.ح» او تنقل تفاصيل المساجلات والخطط العظيمة في مضمار البحث الميتانفسي . وفي النهاية كتب الينا ادوارد ناوموف بنفسه : «لماذا لا تأتيان لرؤيتنا ولتشاهدا عن كثب ما نفعله هنا ؟» . وقرن ذلك بدعوة الى حضور المؤتمر الدولي حول «إ.ف.ح» الذي كان سينعقد في موسكو .

وبالفعل ، لماذا لا ؟ لماذا لا نحاول ان نفصل الوقائع والنتائج عن الخطب والحماسة ؟ كان لدينا عدد من الاسئلة نريد طرحها . ومع ذلك ، حين وصلنا الى موسكو بعد ان قطعنا ٨٠٠٠ كم ، كانت كل طلباتنا ان نجد مخاطبا مقبولا نقول له : «ها نحنذا !» . ان موسكو مدينة تلفونات ، ولكن بلا دليل للهاتف ، فيها آلاف من الشوارع التي تنتصب فيها معاهد رسمية ، لكن دون وجود اي خريطة مفصلة لموسكو وضواحيها . وكان يخيل الينا انه من غير المحتمل ان يتمكن مضيفونا من معرفة اين يجدوننا : ففي روسيا لا يعلم اي انسان في اي فندق ستنزل الى ان تضع السيارة امتعتك أمام بابه .

كانت مخاوفنا في غير محلها . فقد كنا نطبق منطقنا الغربي

في ما يتعلق بطرائق الاتصال بالناس. لكن الامر كان ، على العكس من ذلك ، في منتهى البساطة : فقد وافانا اميركيان كنا قد التقيناهما في لينينغراد الى فندقنا في موسكو . وقد ركبا الاوتوبيس ، وجلسا بقرب فتاة كانت ملكة جمال لبنان . وقد عقدت هذه الاخيرة حديثا مع انكليزيين كانا يجلسان بالقرب منها وكانا موجودين في موسكو ــ على حد ما قالا ــ ليحضرا مؤتمرا حول الباراسيكولوجيا . وبادر الاميركيان ــ وكانا ينصتان ــ الى الجمع بيننا . واكتشفنا ان البريطانيين المقدامين قد توصلا الى الاتصال بناوموف ، فتأمّن بالتالي اتصالنا به .

طرق ناوموف المتأجج حماسة ، والبالغ ستة وثلاثين عاما من العمر ، لب الموضوع مباشرة . قال : «انظروا ، هذا سيعطيكم فكرة عما ستسمعونه وعن الكيفية التي نعمل بها !» . وغطس في حقيبته اليدوية الضخمة ثم قال : «هاكم برنامج المؤتمر !» . ووزع نسخة على كل واحدة منا ، وعلى الانكليزيين جون كوتن و ر. جورج مدهورست (من **جمعية البحث النفسي اللندنية** ، وهي أقدم جمعية من نوعها في العالم) .

ان البرنامج قد لا يعني شيئا يذكر ، لكن مطالعة البرنامج الذي بين أيدينا انستنا الحرارة المرهقة ؛ فقد كان يتضمن تعدادا لروائع باراسيكولوجية وعلمية ، وهذا الجمع بين هاتين الصفتين هو بالتحديد ما جئنا نبحث عنه في روسيا .

بحسب البرنامج ، سيتعرض المؤتمر بالبحث الى العصا الكشافة للينابيع ، وللرؤية عن غير طريق الشبكية ؛ وللسيكوكينيزيا . وسيتحدث آخرون عن التصوير الفوتوغرافي لـ «الهالة» الانسانية ، وكذلك عن آلات تسجيل الظاهرات التخاطرية. ناهيك عن ذلك، ستخصص احدى فترات بعد الظهر لمواضيع اخرى يطرقها فيزيائيون وبيوفيزيائيون وكيميائيون ورياضيون .

وعلاوة على هذه الحفنة من مشاهير العلم ، لاحظنا ان كارل

نيقولائيف هو في عداد المسجلين من الخطباء .

في عام ١٩٦٦ كان نيقولائيف ـ اول تخاطري «يحمل شهادة» في روسيا ـ قد اجرى تجربة تخاطر بين موسكو وسيبيريا عادت عليه بشهرة واسعة . وبعد ذلك النجاح ، طفق الشعب الروسي يسمع شيئا فشيئا ، ولاول مرة ، عن **بسي** (يرمز عادة الى المضمار ما فوق العادي بالحرف اليوناني ، **بسي**) .

في اقل من سنة ، شارك نيقولائيف المجيب في عدة اختبارات تخابرية غريبة وفائقة الحداثة . ففي جامعة لينينغراد، احتل مكانه ، وقد ربط بحبال كثيرة ، في غرفة مكتظة بالآلات تسجل ردود فعله الجسمانية ، في وقت كان فيه العلماء من موسكو يحاولون ان ينقلوا اليه اشارات المورس بطريق التخاطر. ويزعمون انهم نجحوا في ذلك . ويؤكدون انهم اثروا ، بدون اي وسيلة اخرى غير قوة الفكر ، من موسكو على الموجات المخية لنيقولائيف الذي كان جالسا في قاعة في لينينغراد . وقالوا ان تلك التعديلات الطارئة على مسار الموجات المخية يمكن فك رموزها وترجمتها الى كلمات . هكذا اخذ طريقه الى الولادة نظام نفساني لإشارات الخطر والاستغاثة .

فيما كانت المترجمة تلخص لنا بالانكليزية فحوى البرنامج ، كان ناوموف يبدو وكأنه يهتز انفعالا لكل كلمة :

ـ مؤكد اننا نريد ان ننسق عمل الاختصاصيين الذين يشتغلون في مضمار «إ.ف.ح» في مختلف ارجاء البلاد . وهذا واحد من اسباب انعقاد هذا المؤتمر. لكن المؤتمر له اهداف اخرى : فنحن نريد تطوير اتصالاتنا مع الاجانب . وعلى كل ، تشكل الباراسيكولوجيا مضمارا دوليا . واعتقد ان المسالة اهم من مجرد تبادل للابحاث . ان الباراسيكولوجيا يجب ان تطور من اجل الصالح العام . هذه ضرورة .

ذهب بنا الفكر ساعتئذ الى كلمات الشاعر الروسي الشهير يوجين افتوشنكو في رسالة وجهها الى الكاتبة الاميركية اولغا

كارلسل : «اعتقد ان الناس لا ينتمون الا لقوميتين اثنتين ممكنتين : قومية الخير وقومية الشر . انت اميركية . ونحن روس . لكني سأشعر على الدوام بأنني اقرب الى الاميركي الطيب مني الى الاشرار من الروس . واني لعلى يقين بأنك بدورك تؤثرين الروس الطيبين على الاشرار من الاميركيين» .

ان افتوشنكو وناوموف من جيل واحد . قال ناوموف ايضا بلهجة صادرة من الصميم :

ـ انني سعيد بمجيئكم ، وسعيد بخاصة بوجودكم هنا ، انكليزا واميركيين . ان هذا المؤتمر سيكون مثمرا للغاية . وسيكون في مستطاعكم ان تتحاوروا مع جميع الشغيلة العلميين في الاتحاد السوفياتي في اجتماع يوم الاثنين .

قال ذلك وهو يرشدنا ، اربعتنا ، الى الموائد الطويلة في قاعة الطعام في فندق مينسك .

لقد جرت التقاليد على ان يقدم الروس للقادمين الجدد خبزا وملحا ، عربون ضيافة . لكن اعراف استقبال الاوساط العاملة في مضمار الابحاث الميتانفسية بدت لنا ادعى الى الراحة بكثير : شمبانيا ومشروبات .

على المائدة ، أثار احدهم موضوع الغواصات . فقد لعب هذا النوع من السفن دورا كبيرا في ولادة العلوم الميتانفسية في الاتحاد السوفياتي . وفي الواقع ، ظهرت الباراسيكولوجيا السوفياتية الى حيز الوجود في أعقاب قضية الغواصة الذرية الاميركية ناوتيلوس . ففي ١٩٥٩ نشرت الصحافة الفرنسية بعناوين عريضة نبأ يبعث على الهزء بالاحرى حول الغواصة ناوتيلوس : «البحرية الاميركية تستخدم إ.ف.ح على متن غواصة ذرية !» . وذكرت الصحف الفرنسية ان اتصالات تخاطرية بين الغواصة والبر تتم على الوجه الصحيح حتى عندما تغطس الغواصة الى الاعماق . «هل التخاطر سلاح سري جديد ؟ هل

سيلعب إ.ف.ح دورا حاسما في الحروب المقبلة ؟» . وتابعت الصحافة الفرنسية تقول بالمناوين المريضة وعلى سبيل الاثارة: «هل نجح العسكريون الاميركيون في اكتشاف سر قوة الروح؟»».

في لينينغراد ، انفجرت قضية ناوتيلوس ـ وقد طرحت على ذلك النحو ـ كقنبلة اعماق في راس الدكتور ليونيد فاسيلييف، عالم الفيزيولوجيا ذي الشهرة العالمية ، الذي كان له من العمر ثمان وستون سنة . وفي نيسان ١٩٦٠ تكلم فاسيلييف امام هيئة لاكبر علماء الاتحاد السوفياتي . كانت المناسبة الاحتفال بذكرى اكتشاف الراديو . وما كان احد من الحضور يتوقع ان يسمع وقائع يفشى سرها لاول مرة عن ذلك « الخيال البورجوازي» : «الراديو العقلي» .

شرح فاسيلييف امام زملائه المذهولين :

«لقد قمنا اثناء عهد ستالين بأبحاث متبحرة في موضوع إ.ف.ح لم تاخذ طريقها الى النشر قط . واليوم تقوم البحرية الاميركية بتجارب تخاطرية على متن غواصاتها الذرية . لقد اجرى العلم السوفياتي عددا كبيرا من الاختبارات التخاطرية المثمرة منذ ربع قرن من الزمن . انه لمن الضرورة الملحة ان نتخلص من احكامنا المسبقة . ان علينا ان ننكب من جديد على استكشاف هذا الميدان ذي الاهمية الحيوية» .

كان الدكتور فاسيلييف ، العضو المراسل في اكاديمية الطب في الاتحاد السوفياتي ، استاذ الفيزيولوجيا بكرسي في جامعة لينينغراد ، الحائز على جائزة لينين ، كان يتمتع بنفوذ وحظوة علمية مرموقة في الاتحاد السوفياتي . وقد انحاز هرم الادارة الرسمية الى راي الاستاذ ، وربما لأن هذا الاخير صرح من دون ان يعرض نفسه للشبهات : «ان اكتشاف الطاقة التي يمثلها إ.ف.ح سيكون له من الاهمية بقدر ما كان لاكتشاف الطاقة النووية !» . وبعد أقل من سنة ، كان فاسيلييف يدير في

لينينغراد مختبرا متخصصا في الباراسيكولوجيا (يسود الاعتقاد في الغرب بان ذلك هو اول مختبر لـ «إ.ف.ح» ينشأ في العالم على نفقة الدولة . ولكن هولاندا تملك ، في الواقع ، منذ سنوات مختبرا اسسته الحكومة) . بيد ان مختبر الباراسيكولوجيا في جامعة لينينغراد الوطيدة المكانة كان اول مختبر من نوعه في الاتحاد السوفياتي ، وبانشائه تم قطع شوط هام .

اعطى مرسوم صادر عن الكرملين في عام ١٩٦٣ الاولوية المطلقة للعلوم البيولوجية التي تتضمن ، في الاتحاد السوفياتي، الباراسيكولوجيا . ويروى ان الدعم الرئيسي ، الذي يكمن وراء تلك الحماسة الرسمية من اجل تطوير ابحاث إ.ف.ح ، يرجع الفضل فيه الى الشرطة العسكرية والى الشرطة السرية . ويملك الاتحاد السوفياتي اليوم حوالي عشرين مركزا او اكثر تدرس فيها الظاهرات الميتاعادية . وقد قدرت الميزانية الاجمالية المخصصة لها في عام ١٩٦٧ باكثر من ١٢ مليون روبل (٦٥ مليون فرنك فرنسي) .

في الوقت الذي عكس فيه الاتحاد السوفياتي اتجاهه وطفق يسرّع ابحاثه الميتانفسية ، شرعت البحرية الاميركية تكذب باستفظاع متكلف قصة ناوتيلوس . وراح الاميرالات يؤكدون بلا كلل منذ عام ١٩٥٩ ان «ما من احد في البحرية اهتم قط بالتخاطر !» .

وطرح علينا ناوموف السؤال :

ـ أصحيح ان قضية ناوتيلوس كاذبة ؟

ـ من يدري ؟

كان ذلك هو الجواب الوحيد الذي أمكننا ان نعطيه . لكن سواء أكانت اختبارات ناوتيلوس صحيحة ام لا ، فقد كان النبأ كافيا ليحمل الاتحاد السوفياتي على اتخاذ قرار باجراء اختبارات إ.ف.ح على غواصاته . والتجارب السوفياتية (انظر الفصل ٣) اغرب وابعث على الدهشة بكثير من تلك التي عزيت الى نوتيي

ناوتيلوس .

توقف الكلام عن الموضوع عند هذا الحد ، بينما كان فيزيائي شاب ، صديق لناوموف ، يحتل مكانه الى جانبنا على مائدة قاعة الطعام في فندق مينسك . وجيء بمشروبات جديدة من الكرز ، وبقهوة سوداء ، وصبت لنا شمبانيا روسية مبردة ممتازة . وانتقل الحديث من موضوع الى آخر . وكان ظاهرا للعيان أن لدى مضيفينا اشياء كثيرة يريدون أن يخبرونا بها . ففي ابان الشهور العشرة السابقة ، تولى البيولوجي ناوموف ادارة القسم التقني للباراسيكولوجيا في مختبر خاص . وكان هذا المختبر تابعا لدائرة الفيزياء في معهد الدولة للتصميم في موسكو . وقد تم انشاء ذلك المختبر برعاية عدد من ابرز الشفيلة العلميين الروس : الدكتور يا ترلتسكي ، استاذ كرسي الفيزياء في جامعة موسكو ؛ الدكتور إ. ستكوفسكي ، من اكاديمية العلوم الاجتماعية ؛ الدكتور بافل اوشبكوف ، اول بانٍ للرادار في الاتحاد السوفياتي ورئيس معهد التصميم .

ان الهدف الاول للابحاث السوفياتية في هذا المضمار يتمثل، كما يشير الى ذلك اسم المختبر ، في تصميم آلات قادرة على ضبط واختبار ودراسة الـ «إ.ف.ح» . لكن السوفياتيين يطمحون ايضا الى دراسة المظهر الانساني ـ الذي يفترض «إ.ف.ح» وجوده ـ للعلاقات بين الافراد . قالوا لنا : «نعتقد ان ا.ف.ح موجود في جميع ظاهرات الحياة اليومية» . واضافوا قولهم : «يبدو ان إ.ف.ح ماثل في كل وضع جماعي» . ولعل ا.ف.ح سيتظاهر او سيعبر عن نفسه بمزيد من السهولة مع اناس حساسين ومنفتحين للوصال كالسلافيين» .

يعتقد الكثير من الناس في العالم الغربي ان المواطنين السوفياتيين هم اقرب في نمطهم الى الانسان الآلي ، وانهم مجرد بيادق غفل في مصنع مضبوط على انجع وجه ؛ وقد قال

لنا طالب اميركي التقيناه في لينينغراد : «كنت أعتقد ان الشمس لا تشرق ابدا في روسيا وأن الناس لا يبتسمون بتاتا . ما افدحه من خطأ !» . وقد اكتشفنا بدورنا ان الروسي يتسم بحرارة وبكرم دائم في الحياة اليومية . كان الناس ، بمجرد ان نتعرف اليهم ، يقدمون الينا باقات كبيرة من الزهر ودواوين شعر من مكتبتهم الخاصة . واذا اخذنا في الشارع صورة فوتوغرافية بواسطة آلة البولارويد ، كان مارة متحمسون يتحلقون حولنا للحال ليناقشونا في مزايا الصورة السلبية وليبدوا اعجابهم بمنجزات التقنية الاميركية .

قال ناوموف :

ـ يحدث التخاطر باستمرار في الارجح بين الافراد . ففي وسعنا في كل لحظة ان نلتقط تخاطريا الاحاسيس والافكار الخفية للناس الذين نلتقيهم في جماعة حولنا . وهذا سيساهم في أرجح الظن في تفسير لماذا يتحابب بعض الاشخاص ولماذا يتباغض غيرهم للحال من اللقاء الاول . ان علماءنا يحاولون ان يدرسوا وأن يقيسوا موضوعيا تظاهرات ا.ف.ح التي تحدث بين مجموعات الافراد .

كتب الاسقف جيمس بيك قبيل وفاته (١) : «ان دراسة تجارب بسي في مجملها قد وسعت توسيعا مرموقا من رؤيتي لقدرات الانسان ولطاقة الملاقات المشتركة ، واني لعلى اقتناع بأن سرا ما يحوم حول كل ما يجري بين فردين فيما وراء الكلمات التي يتبادلانها او اعمالهما او اتصالاتهما . ان بعض الظاهرات تذكرنا بموجات الراديو ؛ ويرجع كل الباقي الى علل لا نكاد نشتبه في وجودها . ان الكون يحتوي على قدر من خطوط القوة اكبر بكثير مما يمكن ان نتصور» .

---

١ ـ انظر جيمس بيك : **حوار مع العالم الاخروي** .

ويتكلم الروس ، من أمثال ادوارد ناوموف وزملائه العلماء الذين هم ماديون جدليون ، اللغة عينها التي يتكلمها بيك . قال ناوموف : «نعتقد ان الانسان يمتلك طاقة خفية كبيرة» . والمرء لا يملك هنا ان يشك في صدقه الصميم . «انه لأمر جوهري . ينبغي ان نستكشف طاقات الكائن الانساني المجهولة تلك ، وان نوغل في استكشافنا الى أبعد ما نستطيع» .

لقد كان يبدو على ذلك العالِم وكانه ينتمي الى تلك المدرسة الروسية من المثقفين المتاججين حماسة الى حد ينسون معه في كثير من الاحيان الاكل والشرب والنوم وغير ذلك من المشاغل التي لا تمثل في أنظارهم سوى وقت مهدور .

واتجه الحديث نحو الغرب . واكتشفنا ان السوفياتيين واسعو الاطلاع على نشاطات إ.ف.ح التي تتم خارج حدودهم . كانوا يعرفون كل شيء عن ادغار كايس ، «النبي النائم» ، الذي كان موضوعا لمحاضرة القيت في موسكو . وكانوا يعرفون جين ديكسون ، بصّارة واشنطن ، وجيرار كروازيه ، «الحساس» الهولندي المشهور الذي يساعد الشرطة في اكتشاف المجرمين . اما ما فاجانا اكثر من اي شيء آخر فهو ان نسمع الروس يتحدثون في عدة مناسبات عن الاميركي رد سيريوس القادر ، على ما يبدو ، على ان يثبّت على فيلم صورة بناية تقع على مسافة ما، وذلك بمجرد تركيز نظره على الآلة الفوتوغرافية . وأعلمنا الروس انهم يقومون كذلك بأبحاث على الصورة الذهنية ، وانهم يجمعون كل المعلومات المتوفرة عن حالة سيريوس .

يعرف السوفياتيون ايضا اعمال الباراسيكولوجيين الاميركيين . وقد باتت حياة الدكتور ج. ب. ريني وأعماله في هذا المضمار مالوفة لديهم . وريني ، الذي كان يعمل وقتئذ في جامعة ديوك والملحق الان بـ «مؤسسةالبحث في طبيعة الانسان»، هو الاشهر بين باراسيكولوجيي الولايات المتحدة . قال ناوموف:

«يوجد لدينا ، هنا ايضا بالتاكيد ، عدد من المفكرين العلميين ، وبفضل ابحاث ريني التي اثبتت وجود إ.ف.ح ، بفضلها جزئيا يحاول الباحثون عندنا ان يجمعوا براهين اضافية لصالح ا.ف.ح . اننا نريد ان نكتشف لماذا وكيف يفعل إ.ف.ح فعله ! » .

في الوقت الذي يحرص فيه الروس على الاطلاع باستمرار على اعمال إ.ف.ح المنجزة في اقطار اخرى ، لا يتلقى العالم الغربي سوى معلومات زهيدة للغاية عن منجزاتهم في موضوع الباراسيكولوجيا . ومن اغرب القصص التي وصلت الى آذان الاميركيين عن طريق الدوائر العالمية للاذاعة في ربيع ١٩٦٨ قصة تتعلق بنليا ميخائيلوفا . فربة البيت اللينينغرادية البدينة هذه هي ، على ما يبدو ، وسيط موهوب للسيكوكينيزيا . يقال انها تملك القدرة على تنقيل الاشياء بقوة ذهنها وحدها . «حين تحتاج نليا ميخائيلوفا الى غرض ما ، يكفيها ان تثبت نظرها عليه ، فيبدأ بالانزلاق باتجاهها» .

ويذهب الى أبعد من ذلك بيان صحفي صادر من موسكو (اسوشيتدبرس) : «اذهلت نليا العلماء السوفياتيين بقدرتها على تحريك عيدان الثقاب او كؤوس الخمر من دون ان تمسها !» . ولقد كانت القدرة الذهنية المزعومة لتلك المراة على المادة ، وهي التي تتيح لها ان تحرك عن بعد اي شيء تريد ، بدءا من انابيب الالمنيوم الى التفاح واباريق الماء ، كانت لحظة وصولنا الى روسيا لغز الساعة .

قال لنا مضيفونا :

ـ لقد قام اكثر من ٤٠ عالما ، بمن فيهم اثنان من الحائزين على جائزة «نوبل» ، باختبار نليا . وكان الدكتور فاسيلييف يعمل معها حتى يوم وفاته في عام ١٩٦٦ .

كنا قد سمعنا ان افلاما قد صورت حول الاعمال

التلكينيزية (٢) الباهرة لنليا ميخائيلوفا . وقد قال لنا ناوموف : «لقد صورت بنفسي فيلما عنها ، لكني اعتقد انني اخطأت اذ ذكرت لكم ذلك ـ وامسك عن الكلام هنيهة ـ لانكم سوف ترون الفيلم يوم الاثنين ! (ظاهر ان تلك الوثيقة يفترض فيها ان تكون مفاجأة المؤتمر) ، ومن المحتمل ايضا ـ اضاف ذلك وهو يبتسم ابتسامة عريضة ـ ان تلتقوا بميخائيلوفا شخصيا» .

كان ناوموف يحتفظ لنا بمفاجاة اخيرة . فنحن جميعنا مدعوون الى القاء كلمة في المؤتمر . لا مدعوون فحسب ، بل مرجوون بحرارة . وهنا غادرنا ناوموف وأصدقاؤه ليستقبلوا مندوبين غربيين آخرين كانوا يصلون تباعا الى المؤتمر .

هكذا تعرفنا الى باراسيكولوجينا السوفياتي الاول . على مدى ثلاث ساعات متواصلة تولى ناوموف الكلام . وكان اعمق انطباع خلفه فينا انه ذو فضول ديناميكي وحماسة غامرة . ولقد كانت تلك علامة طيبة ؛ فقد بدأنا نعتقد ان الاسبوعين الاثنين اللذين سنمضيهما في موسكو لن يضيعا هدرا . وفيما كنا نحاول ان نوصي على عشائنا بين قرقعة الكؤوس وضجيج زواج روسي كان يعقد في الفندق ، تناقشنا مع زميلينا الانكليزيين بصدد المؤتمر الدولي للباراسيكولوجيا في موسكو . كانت الدعوة الاولى قد حددت موعده في شهر كانون الاول ١٩٦٧ . ثم وصلتنا رسالة ثانية تفيدنا بأنه قد تم استلام حوالي ٤٠٠ بحث مقتضب، وانه من المتعذر ماديا نشرها في الوقت المناسب ، وان «مؤتمرا موسعا» سينعقد في ايار ١٩٦٨ . واخيرا ارجأت رسالة ثالثة الموعد الى «غضون شهر حزيران» . ولم نبلّغ الموعد المضبوط الا ونحن في عرض البحر ، بعد وقت طويل من اقلاعنا من

---

٢ ـ Télékinésie : تحريك الاشياء بقوة الفكر . ـم ـ

مونريال على ظهر السفينة السوفياتية **بوشكين** قاصدين **لينينغراد**.
وفي اثناء ذلك كنا قد ازجينا ثلاثة اسابيع من وقت الفراغ على متن المركب السوفياتي ، انقضت في تلقي دروس في اللغة الروسية ومشاهدة افلام سوفياتية . وكان يسافر معنا فريق رياضي من الدبلوماسيين الروس ، وفي أمسية أحد الأعياد ارتدوا تنانير واحدية خاصة برقص الباليه كي يمثلوا **بحيرة البجع**.
وبعد اسبوع من ليال بيض في لينينغراد ، استقللنا القطار « السهم الاحمر » ، ونزلنا منه على رصيف محطة موسكو لنصل بأعجوبة في الوقت المناسب الى المؤتمر .
قال لنا جورج مدهورست :
ـ من سوء الحظ سيفوتنا اليوم الثاني من المؤتمر . لقد انتهى أوان تأشيراتنا . والانتوريست Intourist يقول لنا انه ليس في المستطاع شيء .
هذا صحيح . فعليك ان تعلم الانتوريست (وكالة السفر الرسمية المكلفة باستقبال الاجانب) بالعدد المضبوط للايام التي تزمع تمضيتها في كل مكان في كل مرحلة ، ولا بد ان تدفع مقدما كل شيء قبل اجتياز الحدود الروسية بزمن طويل .
فيما كنا نتجول في شارع غوركي في ساعة متأخرة من المساء ، كنا نتفكر في ذلك الافتتان الجديد من قبل الاتحاد السوفياتي بالابحاث في مضمار الظاهرات فوق العادية . وحين قر قرارنا على كتابة هذا الكتاب ، ذهبنا الى دورهام (في كارولينا الشمالية) لنستشير ج. ب. ريني ، استاذ الباراسيكولوجيين الاميركيين . قال لنا هذا الاخير : «يتركز إلهام الحركة الشيوعية على تفهم جديد لطبيعة الانسان ، لكن ذلك يتوقف عند مستوى معين . ومن الممكن ان يكون الروس اليوم على اهبة الاستعداد لعلم اوسع نطاقا ، لتناول جديد واكثر روحانية للانسان . والاعمال الحديثة المهد للسوفياتيين

في مضمار الباراسيكولوجيا ، المتميزة بمستوى علمي رفيع للغاية ، قد يتبين انها مثمرة للغاية !» . وفي طريق عودتنا من دورهام الى نيويورك توقفنا في فرجينيا بيتش عند مؤسسة ادغار كايس . وبين مجلدات التنبؤات التي ادلى بها المنجم الاميركي اكتشفنا انه تنبأ قبل اربعين عاما بانه «سياتي يوم تعرف فيه روسيا تطورا روحيا كبيرا»! فهل كان ذلك الانبعاث الميتانفسي خطوة في هذا الاتجاه ؟

ام ان السوفياتيين لديهم ، كما يزعم بعض المراقبين، اسباب اكثر دقة وتحديدا لاستكشاف إ.ف.ح ووسائل السيطرة على الحياة النفسية ؟ لقد جهلت روسيا ، على رغم من سكوتها المعروف وتاريخها الباطني الثر للغاية ، جهلا مطبقا منذ ثورة ١٩١٧ كل ما هو ليس بمادي ومنظور في وضح النهار . فلمَ هذا التحول المباغت ؟ إلامَ يريد السوفياتيون الوصول ؟

في ربيع ١٩٦٨ كانت واحدة من مشهورات «المتخاطرات» في نيويورك قد قالت لنا: «ارى غيوما داكنة تتجمع فوق روسيا. انها فعلا شديدة السواد» . اضافت ذلك بحزن .

لو كنا عرفنا في حينه ما علمناه بعد ذلك حول الاحداث السياسية التي كانت تتهيا للحصول في الاتحاد السوفياتي ، لكان انتابنا القلق من فكرة الغوص على نحو مباغت في مضمار تكتنفه مساجلات سياسية جدية كمضمار إ.ف.ح .

لقد وقع غزو تشيكوسلوفاكيا بعد ذلك ببضعة اسابيع . وبعد وصولنا الى موسكو نشر في الغرب بيان للدكتور أندريه زاخاروف ، ابي القنبلة الهيدروجينية السوفياتية : وقد صدم هذا «التقرير المناوىء للنظام» ، والذي يعكس الافكار الليبرالية لنخبة العلماء الروس ، صدم مشاعر الحكومة الروسية . وقد قامت ايضا مظاهرات علنية ضد سياسة النظام ، وتلك كانت ظاهرة جديدة كل الجدة في البلاد . وفي الوقت نفسه استرد

الستالينيون الجدد ، الذين كانوا حتى ذلك الحين مقصين جانبا، سلطانهم بسرعة . واعقب ذلك فصل مئات من العلماء لدوافع سياسية . وارغمت غالبية الهيئة العلمية على اجتياز اختبارات سياسية . وقد جئنا الى الاتحاد السوفياتي في وقت كان فيه النظام الشيوعي يقف في منتصف الطريق بين التجديد ومحاكم التفتيش .

الفصل الثاني

كارل نيقولائيف ، الرجل الذي أراد أن يغدو متخاطراً

في ١٩ نيسان ١٩٦٦ ، هبط كارل نيقولائيف ، المواطن السوفياتي والصحافي الموسكوفي والممثل المسرحي ، من طائرة حطت على مطار نوفوسيبيرسك (في سيبيريا) . ونظير غالبية المسافرين الذين يتوقفون في هذه المدينة ، كان قدوم نيقولائيف لدوافع علمية . فأكاديمية نوفوسيبيرسك ، مدينة العلم ، مكان متخصص يلمع كالسراب في مساحات سيبيريا المسطحة . وقد شاد السوفياتيون هذه المدينة النائية ليجعلوا منها مركزا مريحا للعلماء . انها ضرب من خزان ثقافي . والعمر الوسطي لسكان

نوفوسيبيرسك لا يتجاوز الثلاثين ، ومعدل ذكائهم يفوق ١٣٠ .

نزل نيقولائيف في الغرفة ٦٠١ من فندق **الوادي الذهبي** ، وانضم الى فريق العلماء الروس الذين قدموا لاستقباله . كان هؤلاء ينتمون الى الفرع السيبيري من اكاديمية العلوم التابعة للاتحاد السوفياتي . وقد وقع الاختيار على كارل ، الذي كان من حيث المبدأ «حسابا» ، ليقوم بمحاولة تلقي رسائل تخاطرية ضمن اطار تجربة هامة سميت ب «الاختبار الكبير للتخاطر بين موسكو وسيبيريا» .

كان كارل معتادا على الاصطدام بتشكك محاوريه وريبتهم . ومع ذلك ، بدا له في تلك الامسية ان التغلب على تلك الشكوك اصعب من المألوف . ان فرصة غير مؤملة تسنح له هنا ، على شكل تجربة مبنية على قواعد علمية . وهي تتيح له ان يبرهن على قيمة ايمانه بأن التخاطر يمكن ان يحقق الاتصال بين شخصين منسجمين مهما تكن المسافة الفاصلة بينهما . كان يحاول عبثا ، منذ نحو عشرين عاما ، ان يقنع احدهم باخضاعه لاختبار للتأكد من قدراته . وها قد جاء اليوم الموعود . كان نيقولائيف يحاول ان يركز افكاره الى اقصى حد مستطاع وهو يسترخي ويستريح تحت نظر ثلاثة علماء متشككين لا يرفعون بصرهم عنه . الليل يوشك ان ينتصف ، بحسب توقيت سيبيريا . اما في موسكو ، على بعد آلاف الكيلومترات ، فما ان دقت ساعة الكرملين ثماني دقات صباحا حتى قطعت لجنة من العلماء على يوري كامنسكي ، البيوفيزيائي ، تمارينه الذاتية الاسترخائية. وقدم له العلماء ربطة محزومة . ثم قفلوا باب غرفته المعزولة صوتيا وكهربائيا .

روى كامنسكي فيما بعد :

«لم اكن ادري مسبقا بما سانقله الى نيقولائيف . كنت اعلم فقط انه سيكون هناك ستة اغراض مختلفة ، وان اللجنة ستقدم لي كل واحد منها على حدة . وكانت المهلة المحددة ل «تبليغ» كل غرض هي عشر دقائق .

«كانت أول ربطة افتحها تحتوي على نابض فولاذي مؤلف من سبع حلزونات متراصة . تناولته بيدي ؛ امررت اصابعي بين الحلزونات، وتمثلت شكله وحجمه. وفي الوقت نفسه استحضرت وجه نيقولائيف . تخيلته جالسا في قبالتي . ثم حاولت ان اغير المنظور بالتطلع الى النابض وكأنني اراه من فوق كتف كارل . وفي النهاية ، حاولت ان اراه بعيني بالذات» .

في اللحظة عينها ، على بعد ٣٠٠٠ كيلومتر من هناك ، كان انتباه نيقولائيف مشدودا . وبحسب الشهود العيان ، بدا على اصابعه وكأنها تمسك بشيء غير مرئي لأحد سواه . وكتب : «انه مستدير ... معدني ... لماع ... بلا تسنين ... يشبه وشيعة ...» . وفي الاختبار الثاني ، ركز كامنسكي افكاره على مفك للبراغي له قبضة بلاستيكية سوداء . وتلقاه نيقولائيف على النحو التالي : «طويل ... ضيق ... معدني ... بلاستيك ... بلاستيك اسود» .

وفيما بعد صرح كامنسكي : «يبدو ان كل انسان يملك القدرة على الارسال والتلقي بالتخاطر . لكن من الضروري ، شأننا مع كل موهبة ، تدريبها وتمرينها حتى تتطور . وطبيعي ان بعض الافراد يدللون على موهبة اكبر من مواهب الآخرين» .

اثناء اربع تجارب ليلية اجريت في مواقيت مختلفة بين ١٩ و٢٧ نيسان ، حاول نيقولائيف ان يضع نفسه في حالة تلقي للارسالات الآتية تخاطريا من موسكو . واختار وصيل آخر ، وهو طالب جامعي يدعى أ.ج. آرلاشان ، الصور الست المفروض فيه ان يرسلها بين مجموعة واسعة من اشياء حشدها له العلماء. وكان من بين الاشياء التي اختارها آرلاشان ثقالة من النوع الذي يستخدمه الرياضيون لتمرين عضلاتهم . وصرح نيقولائيف عنها انها «معدنية ، مستديرة ، كبيرة ، صلبة ، غير مطلية بالكروم ، قضيب حديدي ، رمادي كالحديد الخام ، ثقيلة . ماذا يمكن ان

تكون ؟ أهي ثقالة ؟» .

بوجه عام ، يتلقى نيقولائيف بسهولة افكار كامنسكي ، لكنه يفك بمزيد من الصعوبة افكار آرلاشان . وقد لوحظ ان التعليقات التي كان يدلي بها نيقولائيف في صراعه من اجل تخمين الشيء الذي اختار آرلاشان ان ينقله اليه تتضمن اشارات مصدرها افكار الوصيل الشاب (المرسل) الذي كان يتردد باستمرار : «هل سأنقل هذا او ذاك ؟» . ويبدو ان الصعوبات التي لاقاها كارل تؤكد صحة نظرية الباراسيكولوجيا السوفياتية القائلة ان تدريب الوصيل في التخاطر لا يقل اهمية عن مواهب المتلقي ؛ فاذا ظلت افكار الوصيل مترددة ، استقبل المتلقي صورا مشوشة . وفي اختبار لورق اللعب (١) معروف على نطاق واسع في إ.ف.ح ، حزر نيقولائيف ، الموجود في سيبيريا ، الاوراق التي كان يقلبها الوصيل الجالس الى طاولة في موسكو . وقد نجح في تخمين ١٢ ورقة من اصل ٢٠ ، مما يتجاوز من بعيد نسبة ٥ من ٢٥ التي يتوقعها حساب الاحتمالات . وفرص الوصول الى هذه النتيجة بالمصادفة هي ١ الى ١٠٠٠ في تقدير الدكتور كوغان ، مدير مركز بحوث بسي في موسكو ومنظم الاختبار . بيد ان استبارا منفردا لا يقيم البرهان على شيء . وقيمة التجارب السيبيرية انما تكمن في اختيار وشائع وثقالات ومفكات براغي وأشياء اخرى مماثلة . فمثل هذه الاشياء توجد بالآلاف ، ومن بينها كان يفترض في كارل ان يتعرف الاغراض التي وقع عليها الاختيار . وليس يسع احدا ان يحسب المعدل الاحتمالي قياسا الى عدد لانهائي من اشياء ممكنة .

---

١ ـ تستخدم في الولايات المتحدة اللعبة المسماة بـ Zener ، وتتألف من خمس اوراق من نمط ورق اللعب ، تمثل كل ورقة منها وجهـا بسيطا ومختلفا : صليبا ، دائرة ، نجما ، مربعا ، خطوطا منحنية .

كتب الدكتور كوغان في تقريره عن التجربة في المجلة العلمية **راديو تكنيكا** : «لقد تلقى نيقولائيف على الوجه الصحيح نصف الصور التخاطرية» . وقد نجح كارل ست مرات ، لا مرة واحدة فقط ، في استقبال ارسالات من موسكو . ولقد كان ذلك نصرا شخصيا باهرا . وقد تحدثت عنه الصحف ، وبدأ الروس يتناقشون حول تجلية نيقولائيف و«الراديو الذهني» . لكن لم تكن الصحافة هي الوحيدة التي نقلت الى الجمهور اسرار إ.ف.ح . فقد تكلم العلماء ، كبار كهان الثقافة السوفياتية ، بصورة علنية ومباغتة عن اعمال نيقولائيف الباهرة . وقد كتب المهندس فكتور بوبوفكين في الصحيفة الرسمية للشبيبة **كومسومولسكايا برافدا** : «يرغمني النجاح الذي حازه نيقولائيف في تجارب سيبيريا على الانضمام الى راي اولئك العلماء السوفياتيين الذين يفترضون ان جميع الافراد يمتلكون قدرات تخاطرية بدرجات متباينة ، وان هذه القدرات قابلة للتطوير بالتدريب » .

في الصحيفة نفسها كتب الدكتور كوغان ، وهو عالم رياضيات وسبرنطيقا : «اذا محصنا نتائج تلك التجربة وغيرها بروح نقدية وبالتحفظ المناسب ، بلا سرعة تصديق ولا ريبية او احكام مسبقة ، فلا مجال للشك في ان الباراسيكولوجيا ستغدو في النهاية ، وعلى الرغم مما يكتنفها من غموض ، علما ، وسيجري الاعتراف بها كعلم» . وقال البروفسور لازار سوبارسكي ، الطبيب النفساني ، في مجلة **برافدا موسكو** : «ان البرهان الذي قدمه نيقولائيف على التخاطر ينطوي على فائدة جلى ، وعلى الاخص بالنسبة الى مبحث امكانيات الانسان الجديدة ... أمن الممكن ان نكون محبوين بحاسة سادسة ما يزال يجهلها العلم ؟..

كثيرا ما نسمع بعضهم يقول : «انني اؤمن بالتخاطر او لا اؤمن به» . لكن ما دخل الواقع بالايمان ؟ ان هذا التناول للمشكلة ليس

علميا . ان علينا ان نتعمق في بحث هذه المشكلات بطريقة علمية » .

ان اختبار التخاطر بين موسكو وسيبيريا ، الذي اضحى الان تقليديا ومتقادما عليه الزمن كسيارة فورد من «طراز ت» ، يدشن عهدا جديدا في البحث النفسي في الاتحاد السوفياتي . لقد تم اجتياز الحاجز المانع ، وتحقق النموذج الريادي الاول ؛ وبات في الامكان مذذاك فصاعدا ان يبدأ العمل الحقيقي . ولاول مرة ، ازاح العلم السوفياتي النقاب علنا عن وجود «متخاطر مأذون » .

التقينا بنيقولائيف لاول مرة يوم افتتاح المؤتمر : قالت لنا ترجمانتنا : «انظروا ! هوذا نيقولائيف !» . واضافت وهي تشير اليه في ركن من القاعة : «هناك ، ذلك الرجل الاحمر الشعر الضخم الجثة !» . كان الرجل شديد الحمرة ، فكأنه امضى فترة لا بأس بها من الزمن تحت شمس موسكو ؛ وكان نيقولائيف الذي يزاول مهنة ممثل يبدو وكأنه مثال القوزاقي الذي يتخيله المرء وهو يخب على ظهر الخيل عبر السهوب . وفي الواقع ، كان يلعب دورا جديدا في المسرحية التي «تستكشف التيارات السيكولوجية الخفية القائمة بين الافراد» .

لم يكن على ماضيه من مأخذ . فقد كان والد نيقولائيف ، وهو بلشفي رفيع المكانة ، يرأس تحرير صحيفة ثورية ذات شان . وكان جده من اوائل الماركسيين في روسيا ، ويمثل اسمه في الموجزات التاريخية . وليست القدرات الميتانفسية تقليدا في اسرته ، لكن هذه الاخيرة كانت على الدوام في الطليعة المنافحة عن الافكار الجديدة . وقد سمي كارل بهذا الاسم تيمنا بماركس ، بالطبع .

قالت لنا ترجمانتنا همسا اثناء خطاب المؤتمر الافتتاحي : «يجب ان تكلموه ، فهو الذي اثبت لمرة واحدة ونهائية ان التخاطر موجود !» .

لم يكن التخاطر الذي اشارت اليه يمت بصلة قربى الى مقدرة نيقولائيف على التعبير ، في سيبيريا ، عما يفكر به احدهم في موسكو في الوقت عينه . وخلافا لما نشر حتى الان في الغرب ، فان ذلك يقتضي تفريغ شحنات كهربائية صغيرة تنتقل عبر نصفي كرة دماغ كارل وتسجل على جهاز التخطيط الكهربائي للدماغ E.E.G . وكان نيقولائيف الفردي النزعة مستعدا اتم الاستعداد لوصله بآلات لاشخصية . وكان يعرض نفسه منذ زمن بعيد ـ من غير ان يحالفه النجاح ـ ليكون موضوعا لتجربة مختبرية علمية .

على امتداد سنوات وسنوات تغلب نيقولائيف ، في دوره التخاطري ، رويدا رويدا على الحواجز والموانع التي كانت تقيمها في وجهه المعارضة . كان اعضاء اللجان والمفوضون يعلنون انه لا وجود لأي متخاطر في الاتحاد السوفياتي . وكان الملحدون والعلم الرسمي يعسّرون كفاح نيقولائيف . فما كان إ.ف.ح ليتفق مع تصورهم للعالم ، ولهذا كانوا على يقين بأنه لا يمكن ان يكون له من وجود . لكن اول شخص كان على كارل ان يقنعه هو نفسه . قال ببساطة : «اخترت ان أصير متخاطرا . لم اعرف قط في طفولتي مواهب او تجارب فوق عادية . جاهدت كثيرا حتى احقق طاقة ينكر معظم الناس وجودها بالذات . تدربت عن عمد وتصميم كي اصبح متخاطرا» . وقال لنا نيقولائيف : «ما فعلته يستطيع غيري ايضا ان يفعله . اعتقد ان كلا منا يملك تلك القدرات الميتانفسية الكامنة . ولهذا السبب تبدو لي اختباراتي العلمية ، الهادفة الى اثبات وجود القدرات الميتانفسية ، ضرورية لا غناء عنها . انها تشكل الدليل على انني تعلمت بنفسي ان اصبح متخاطرا . وما اصبت فيه نجاحا هو امر في متناول عدد كبير من الافراد » .

الصراعات الاولى التي خاضها كارل ما كانت تتعلق

ب «إ.ف.ح» ، لكنها قادته اليه . كان في الخامسة عشرة حين اندلعت الحرب ، فجند لمقاومة الفازي النازي . وبما ان السوفياتيين تمكنوا في النهاية من رد العدو على أعقابه ببطء ، فقد أذن لكارل بأن يذهب للاستراحة في مدينة مجرية . وهناك تقرر اتجاه مستقبله . كان كارل يتمنى في حداثته ان يغدو صحافيا ، نظير ابيه نيقولائيف غورفتش (نيقولائيف هو الاسم المسرحي لكارل) . لكنه كان يود في قرارة نفسه ان يصير ممثلا. وقاده ظمؤه الى المسرح الى حضور عرض مسرحي ظهر فيه اورلاندو ، المنوم المغناطيسي والمتخاطر المجري . ويروي فيقول: «في الليلة الاولى لبثت مشدودا الى مقعدي ؛ وفي اليوم التالي ذهبت الى الكواليس ، من دون ان تضيع عني حركة واحدة من حركات اورلاندو» .

لقد عاين كارل «النور» وهو يعلم ذلك . التهم كل الادب الذي امكنه ان يجده في هنغاريا عن إ.ف.ح وعلم النفس . وعند اوبته الى موسكو ، محاربا قديما في التاسعة عشرة من العمر ، ذهب مباشرة لمقابلة وولف ميسنغ ، وهو شخص غير عادي في روسيا ومتخاطر مسرحي مشهور .

اذا كان في مستطاع اورلاندو ان يفعل ذلك ، واذا كان في مستطاع ميسنغ ايضا ، فلماذا لا يقلدهما نيقولائيف نفسه ؟ واكثر من قابل نيقولائيف كان لا يتوانى عن الجزم بأن هذا الرجل قادر على تحقيق ما عقد عليه العزم . ان المغنطيسية الحيوانية كلمة ذات وقع سيء في كتاب عن الباراسيكولوجيا ، لكن ذلك هو واقع الامر بنوع ما بالنسبة الى نيقولائيف . لقد فاجأتنا حيوية كارل حين التقيناه في ساعة متأخرة من المساء مع ناوموف وعالمين شابين . كان نيقولائيف قد أدى دوره على خشبة المسرح، وكان يبدو نضرا ويقظا ، ومستعدا لتكريس ما تبقى من الليل للمناقشة .

ــ كيف بدأت تتدرب كمتخاطر ؟

ـ بدات بالطريقة الوحيدة الممكنة : باجراء تجارب . طلبت من اصدقائي ان يبلغوني خواطرهم . كانوا يفكرون : «كارل ، أشعل سيجارتك ؛ غيّر رأيك وأطفئها في المنفضة» . او «سر مستقيما الى الامام ، در يسارا» ، وكنت كالمجند المطيع أنفذ .

طلب كارل من اصدقائه ان يخفوا اغراضا في الغرفة وأن يوجهوه في أذهانهم الى المخبأ ، كما في لعبة «ابحث عن الكنز». و«ذات يوم ـ يقول كارل انه لن ينسى ذلك ابدا ـ فكرت صديقة له تدعى غالاما في ذهنها: «كارل، خذ ابريق الخمر بين يديك!»، ففعلت للحال» . وامسك اصدقاء كارل عن السخرية منه . بل انهم قرروا استغلال مواهبه لمساعدتهم على اجتياز فحوصهم . اما الى اي حد نجحوا في ذلك ، فهذا لا يزال في الوقت الحاضر سرا من اسرار الباراسيكولوجيا السوفياتية .

قبل بضع سنوات سأل ليف كولودني ، وهو صحافي سوفياتي ، كارل الذي كان قد نذر نفسه للتجارب العلمية ، عما اذا كان لا يزال في مستطاعه ان يقوم ببراعاته التخاطرية الاستعراضية . ويروي كولودني قائلا :

ـ ركزت افكاري بقوة وحرصت على الا انظر سلفا الى الفرض الذي سأوحي اليه ذهنيا بأن يجيئني به. ادار لي نيقولائيف ظهره وتقدم الى الطرف الآخر من الفرفة . توقف امام طاولة في الركن؛ وفي مدى ثوان قليلة اختار نسخة من مجلة **اوجيونوك** وقلب صفحاتها . وناولني المجلة مفتوحة على الصفحة ٦ ، حيث كان عنوان المقال **بترول تحت موسكو** ؛ كان هو بالضبط النص الذي امرته ذهنيا باكتشافه» .

في ظروف اخرى استخدم كارل مواهبه فوق العادية لاغراض اكثر جدية . قال لنا كارل :

ـ ساعدني التخاطر في حياتي الشخصية عندما بدأت بتنمية ملكاتي . من ذلك ، على سبيل المثال ، انني انشأت ابني بمفردي

بدون امه . وذات صيف ، وفيما كان الطفل في العاشرة ونيف من العمر ، سالني الاذن بالذهاب الى شمالي البلاد مع اصدقاء اكبر سنا . وفي النهاية نزلت عند طلبه وقلت له : «اذهب ، لكن احرص على ان تعرف بالضبط المكان الذي انت فيه» . طبيعي انه لم يكتب لي ، ولا مرة واحدة . وعليه ، ذات مساء ، ركبت القطار باتجاه القرية التي كانت الجماعة قد نوت على الذهاب اليها .

كان الوقت متأخرا ، وقد ارخى الليل سدوله حين وصلت. لم اكن ادري البتة اين اجد الصبي . قررت ان أسير في الشارع المقفر . سرعان ما شعرت بقوة ترشد خطواتي . تبعتها وتوقفت امام بيت صغير يخيم عليه السكون . قرعت ؛ لا جواب . فتحت الباب ودخلت ؛ جحظت عيناي امام كابوس من ذلك النوع الذي يخافه الاهل كثيرا : كانت ارض الغرفة مكتظة بقناني البيرة والفودكا وبفضلات طعام قديمة ؛ وكانت مجموعة من الاحداث تلعب بالورق ، وكان يتمدد وسط الغرفة بلا حراك ابني الثمل . ارجعت الولد الضال الى البيت ، وقلت بيني وبين نفسي ان جميع مواهبي الميتانفسية لن تكون فائضة عن الحاجة لتنشئته تنشئة صالحة .

في ظاهر الامر ، تؤكد الوقائع اقوال نيقولائيف : فقد حصل الفلام مؤخرا على دبلومه في البيوكيمياء .

في مطلع الاعوام الخمسينات كان كارل يعمل في الصحافة في موسكو . كان محظرا عليه ان يكتب اي شيء كان عن إ.ف.ح ، فهو موضوع محرم. لكنه كان كلما سنحت له الفرصة يجري تجربة . وكان الناس يقولون بصدد الاختبارات التي ينفذها نيقولائيف فينواد خاصةاو امام مجموعات منالصحافيين: «جلسة ممتعة !» . وكانت جثة كارل الضخمة هي وحدها التي تمنع الحضور من الضحك حين كان يردد بلا كلل : «ليس التخاطر لعبة ، ومن الممكن ان تكون له اهمية جلى» .

كانت **الموسوعة** السوفياتية ما تزال تكتب حتى عام ١٩٥٦ :

«التخاطر وهم مثالي لاجتماعي بصدد قدرات الانسان فوق الطبيعية على ادراك ظاهرات لا يمكن ، بحكم شروط المكان والزمان ، ادراكها بصورة عادية».

وآنئذ جاءت تصريحات الدكتور فاسيلييف ، وعلم الجمهور السوفياتي في نهاية المطاف ان رجال العلم اجروا مئات من التجارب التي كللها النجاح في مضمار «الوهم المثالي» . وانفلتت ردود الفعل من عقالها ، لكن كارل ، الذي تدرب كرياضي تحضيرا للالعاب الاولمبية ، كان يقف على أهبة الاستمداد .

كتب عالِم متشكك في **المجلة الادبية** : «التخاطر لا يمكن ان يكون له من وجود» . وزاد الدكتور الكسندر كيتيفورودسكي فقال : «ان نقل صور من مخ الى آخر يتطلب نوعا من الموجات الكهرطسية . ولم نعثر على اثر لمثل هذه الموجات ، وعليه لا يمكن ان يوجد شيء يمكن ان يسمى بالتخاطر» . لكن كارل ابى ان يسلم بالهزيمة . كان ، نظير بوشكين (٢) وكثيرين من الروس قبله ، يحب الصراع والمبارزة . قصد مكاتب مجلة مناوئة واعلن متحديا : «المعرفة قدرة . انني اتحدى الاستاذ كيتيفورودسكي لاجراء اختبار . سألاقي الاستاذ اينما شاء . وسنضع قدراتي التخاطرية على محك الامتحان . وبذلك ستنجلي الحقيقة بصدد المسألة !» . وقبل كيتيفورودسكي التحدي . واتفقا على الزمان والمكان : لن تنعقد المبارزة الميتانفسية فوق سهب مثلج ، وانما في مكتب مدفأ . وسيكون «الشهود» محرري المجلة وعلماء من

---

٢ ـ معروف ان بوشكين ، مؤسس الادب الروسي الحديث ، لاقى حتفه في مقتبل العمر في مبارزة . ـم ـ

الجامعة .

اظهر كارل اثناء الامتحان ما في استطاعته . فقد قرأ افكار كيتيفورودسكي بالذات ؛ وانهارت أحكام العالِم المبيّتة وآراؤه المسبقة . والقى الخصم سلاحه مذهولا بأن كتب في الصحافة : «يجب ان ندرس التخاطر علميا» .

كان ذلك بالضبط ما سيفعله عما قريب علماء موسكو . فقد طرحت مجموعة بوبوف ، وهي اشهر مراكز البحث النفسي في الاتحاد السوفياتي واكثرها اثارة للضجة ، طرحت برنامجا صداميا عن إ.ف.ح في عام ١٩٦٥ . ويقول لك السوفياتيون بتهذيب عن مجموعة بوبوف انها «فرع الإعلام الحياتي من الجمعية السوفياتية والعلمية والتقنية للتكنولوجيا الاشعاعية والاتصالات الكهربائية» . وسرعان ما سمى المركز نيقولائيف «متخاطرا متفرغا» .

بعد ان اجرى الدكتور كوغان ، مدير مجموعة بوبوف ، سلسلات كاملة من التجارب على اساس التخاطر ، بدأ يفكر بأن طرائق الفيزيائيين قد تكون قابلة للتطبيق على التخاطر . فالجزئيات ما دون الذرية تبقى غير منظورة ، لكن من الممكن التعرف اليها واكتشافها من آثارها في حجرة التأيين (٣) . والتخاطر ليس مرئيا كظاهرة ، لكن أليس في المستطاع التقاط آثاره لحظة وصوله الى الدماغ ؟ لهذا الفرض ، صمم الدكتور كوغان مؤخرا جهازا لرسم الدماغ لتسجيل الموجات المخية ، وطريقة رياضية جديدة لتحليل الرسوم المخططة على المنحنيات المسجلة . وكان لديه بطبيعة الحال مصدران تخاطريان مجربان : المتخاطران المتمرنان أجود تمرين ، نيقولائيف ويوري كامنسكي .

---

٣ ـ التأيين : عملية توليد الايونات ، او ما يسمى بالدوالف . ـم ـ

في اذار ١٩٦٧ استقل كارل ، يرافقه ادوارد ناوموف ، الرئيس المساعد آنئذ لمجموعة بوبوف، قطار **السهم الاحمر** السريع باتجاه لينينغراد حيث كان نيقولائيف يأمل ان يتلقى الرسائل التخاطرية المرسلة من قبل كامنسكي من موسكو .

الى جانبهم ، شارك في تلك التجربة الهادفة الى استكشاف اسرار التخاطر حين يتظاهر في الجسم والدماغ عاملان بارزان في مضمار الباراسيكولوجيا السوفياتية ، هما الدكتورة اوتسيا بافلوفا العالمة في الفيزيولوجيا الكهربائية في قسم فيزيولوجيا العمل في جامعة لينينغراد، وزميلها الاكثر شهرة منها ، عالم الرياضيات الدكتور جنادي سيرغييف من مختبر أ.أ. اوتومسكي الذي يديره الجيش السوفياتي .

ربط نيقولائيف الى كرسي في غرفة معزولة صوتيا وكهربائيا ، ووصل بجسمه عدد من الاسلاك الموصولة بمختبر مكتظ بأدوات القياس . في الخارج ، في قسم آخر من المبنى ، كان ناوموف والدكتورة بافلوفا وسيرغييف يراقبون رسوم منحنيات المسجلات التي كانت تنقل تنفس نيقولائيف وضربات قلبه وحركات عينيه ونشاطه العضلي ، والاهم من ذلك كله نشاطه المخي .

قال نيقولائيف :

«امنح عادة مهلة نصف ساعة لكي اضع نفسي في حالة استرخاء تام . يجب ان اكون منفرج الاعصاب تماما ، لكن متنبها » .

واثناء تلك التجربة رسم جهاز تخطيط المخ ذبذبات منتظمة من نوع الفا ، وهي الذبذبات المميزة لوضعية الراحة .

كانت الدكتورة بافلوفا قد قالت لنيقولائيف : «اذا شعرت بشيء ما غير عادي ، بشيء غير متأت من وضعيتك غير المريحة

ومن الالكترودات (٤) الموضوعة على قحفك ، فأشر الينا بشدك على قبضتك اكثر من مرة» . وكانت هذه الاشارات تسجل الكترونيا في المختبر . وكان المفروض ان يتولى نيقولائيف ، بعد الجلسة، شرح ما تعنيه كل اشارة . اهو التخاطر الذي يعتقد انه احس به ام لا ؟ ذلك كان كل ما قيل لنيقولائيف قبل التجربة . وما كان يعرف في اي لحظة سيبعث اليه كامنسكي بالرسالة التخاطرية . كما كان يجهل عدد الرسائل التي سيتلقاها ، كذلك المدة التي سيركز فيها كامنسكي افكاره لتبليغه كل رسالة .

بدأت المسجلات ترسم منحنياتها ، وكانت الناظمات الآلية موصولة ، والعلماء يركزون انتباههم . وفي اثناء ذلك ، كان كامنسكي ، في موسكو ، قد شرع يرسل تبليغاته التخاطرية . وفجأة، بعد ثلاث ثوان ، تغير «جذريا» الرسم التخطيطي لذبذبات نيقولائيف المخية .

لقد استطاع العلماء السوفياتيون ان يعينوا اللحظة التي يصل فيها التخاطر الى الدماغ ! واذا تأكدت صحة ذلك ، فسيكون ذلك اليوم يوما مشهودا في تاريخ البحث الميتافنسي . انها لثورة حقيقية . ولسوف تتجاوز النتائج من بعيد مجرد اقامة البرهان على وجود التخاطر . بيد ان الدكتورتين بافلوفا وسيرغييف حصلا ، في المقام الاول ، وبفضل مسجلاتهما ، على دليل بياني ساطع . فقد اثبتا ان ثمة شيئا ما قد حدث بين نيقولائيف ووصيله الموجود على مسافة مئات الكيلومترات ؛ ولتسموا ذلك ما شئتم : تخاطرا او اي اسم آخر . فبذلك الاختبار الفاصل استطاعت ذبذبات كارل المخيةان تكسب المعركة. وقد تلته اختبارات اخرى عن مسافة بعيدة ، وكللت جميعها

---

٤ ـ الالكترود : جسم ناقل يستخدم عند التخطيط الكهربائي لقسم من العضوية ويستقبل التيارات التي تصدر عنها . ـم ـ

بالنجاح .

كان انتصار الذبذبات المخية انتصارا للدكتور سيرغييف ايضا . فقد ابتكر طرائق احصائية ورياضية دقيقة لتحليل المنحنيات التي يرسمها جهاز التخطيط المخي الكهربائي ، الامر الذي اتاح للاختصاصيين في مضمار الباراسيكولوجيا التقاط ذبذبات التخاطر عند وصولها الى الدماغ .

علقت الدكتورة بافلوفا بحذر في عام ١٩٦٧ على النجاحات المحرزة في ميدان تسجيل الخطوط البيانية للتاثيرات التخاطرية في الدماغ الانساني . قالت : «ما يزال يتوجب علينا ان نقوم بعدد معين من التجارب عن مسافة طويلة قبل ان نخلص الى استنتاجات نهائية . غير ان النتائج التي احرزناها عن مسافة متوسطة ، وتبعا لعدد الاختبارات التي أجريت ، تبدو لنا تحمل على الاستبشار الكبير» .

ولاحظ الدكتور كوغان ، معلقا على روائز التخاطر التي كان فيها الوصيل والمتلقي موصولين بأجهزة كهربائية لتخطيط المخ ، ان «اللحظة المحددة لانتقال الفكر اقترنت بتغيرات جذرية في رسم منحنيات الـ E.E.G (٥) لدى الرجلين» .

ماذا يجري في دماغ نيقولائيف اثناء التجربة التخاطرية ؟ تلخص الدكتورة بافلوفا على النحو الآتي سلسلة مهمة من جلسات التسجيل على جهاز الـ E.E.G (اثناء اختبارات عن مسافة طويلة وعدد اكبر من الاختبارات عن مسافة متوسطة أجريت بين كامنسكي ونيقولائيف ، المرتج على كل منهما في مكان مصفح ، مع فاصل من غرفتين) :

«اكتشفنا اشتدادا في النشاط المخي ظهر بعد مدة تتراوح

---

٥ ـ التخطيط الكهربائي للدماغ . ـم ـ

بين ثانية وخمس ثوان من بدء التبليغ التخاطري . وقد اكتشفنا الظاهرة على الدوام قبل ان يعي نيقولائيف بخمس ثوان انه يتلقى رسالة تخاطرية . ولاحظنا في البداية تنشطا عاما غير محدد في الاقسام الجبهية والوسطى من الدماغ (الوظيفتان المحركة والمنطقية) . ومتى ما اوشك نيقولائيف ان يعي انه يتلقى رسالة ، تحدد نشاط المخ بسرعة وامتد الى الاقسام الخلفية والقشرية من الدماغ . ويبقى الرسم البياني المتحدد مرئيا على المنحنيات لهنيهة من الزمن بعد نهاية التبليغ » .

يبدو اذن ان التخاطر يتنقل في الدماغ في اتجاه متحدد . اما التعيين الدقيق لموضع النقطة التي يظهر فيها في المخ فهو رهن ، في راي الباحثين السوفياتيين ، بطبيعة الرسالة المبلغة .

في موسكو ، ركز كامنسكي افكاره ذات مرة على علبة سجاير فارغة . في لينينغراد لاحظ كارل : «شيء ما يبدو انه يشبه السجاير ، انه العلبة ، داخلها فارغ ، السطح ليس باردا ، من الورق المقوى ...» .

قبل ان يتلقى كارل بوعي صورة علبة السجاير ، بدا نشاطه المخي متمركزا في القسم القفائي الخلفي الذي هو بوجه عام منطقة الرؤية . وثمة واقعة اخرى لها دلالتها : فحين ينقل كامنسكي عن طريق التخاطر اصواتا من طنين او صفير ، يتظاهر النشاط المخي لدى نيقولائيف في القسم الصدغي ، وهو بوجه عام منطقة تتعلق بالسمع .

لقد جمعت الدكتورة بافلوفا بعض ملاحظات مثيرة للقلق اثناء عملها المتبحر في مضمار E.E.G : «من الضروري مطلق الضرورة بالنسبة الى المتلقي ان يكون في حالة راحة . ولا يستطيع الانسان عادة ان يحافظ لمدة طويلة على هذا الفراغ الذهني بدون اي حركة ارادية او فكرة شاردة» . لكن السوفياتيين يلحون : «في مستطاعك ان تتعلم كيف تطور حالة التامل هذه الضرورية لنجاح التجارب التخاطرية» .

الدكتور ميلان ريزل ، البيوكيميائي الذي كان يعمل في براغ ويحيا الان في الولايات المتحدة ، هو واحد من رجال العلم النادرين الذين امكنهم ، رغم انهم يعيشون خارج الاتحاد السوفياتي ، ان يناقشوا فريق بافلوفا ـ سيرغييف ـ ناوموف حول مختلف تجاربهم في حقل إ.ف.ح . يقول ريزل : «لقد حققوا ، بمساعدة E.E.G ، اكتشافات هامة في هذا المضمار. وهذه الاكتشافات السوفياتية تفتح امامنا الطريق للسيطرة على نحو افضل بكثير على إ.ف.ح » .

هل فعل كارل ، فيما خلا تمرينه في المختبر ، شيئا ما لتطوير مواهبه التخاطرية منذ ذلك الزمان الذي كان فيه أصدقاؤه يقولون له : «در يمينا ! در شمالا !» ؟ سألنا قائلا :

ـ هل سمعتم باليوغا ؟

وحتى لو كنا لم نسمع عنها شيئا ، فاننا سنسمع عنها الان الشيء الكثير لان العالمين اللذين كانا يتناقشان وايانا في تلك الليلة بصحبة كارل قالا لنا ان هذا الاخير يملك ملفا مليئا بالصور الفوتوغرافية التي التقطها احد الهواة وتظهر هذه الصور رجلا نحيفا رقيق الجثة في أوضاع رشيقة ومعقدة من اليوغا .

قال لنا كارل وهو يربت بيده على جسمه الضخم :

ـ انني لا اقوم انا نفسي بالتمارين ، لكني درست المذهب، الراجا يوغا ، وعلى الاخص طرائق التنفس ، وأنا أمارسها منذ أحد عشر عاما . وقد مكنتني من السيطرة على نحو افضل على نفسي وعلى جسمي وعلمتني الكثير من الاشياء . هل تعلمون ان الممثل الشهير ستانيسلافسكي ابتكر أسلوبه في التمثيل عن طريق دراسة اليوغا ؟كان يؤمن بأن على الممثل ان يكون قادرا على ازالة كل توتر عضلي قبيل دلوفه الى خشبة المسرح . وكان ستانيسلافسكي يعتقد ان توتر الجهاز العصبي أو تشنجه يجمد لدى الفرد حريته الحقيقية في التحرك والتعبير» .

عقد السوفياتيون ، ليصلوا الى المزيد من الاكتشافات عن مختلف حالات الوعي ، اتفاقا مع الحكومة الهندية في مطلع الستينات لارسال يوغانيين الى الاتحاد السوفياتي لاجراء دراسات مختبرية عليهم .

عاد كارل الى الحديث عن التخاطر فقال :

ـ اننا بحاجة الى اختبارات جديدة بواسطة ادوات القياس . ونحن في سبيلنا الى تصميمها . ينبغي ان نقيم البرهان على التخاطر ذاتيا وموضوعيا . سيظل بعض الناس يأبون على الدوام تصديقي حين اقول انني احصل على شيء ما تخاطريا . انهم لا يريدون تصديق ذلك. وقد يحدث لي احيانا ان اخطىء .

وامسك عن الكلام ليشعل سيجارة اخرى .

يبدو ان بعض المتخاطرين يملكون عدة شخصيات . ففي مثل برق الوعي الخاطف، تستطيع ان ترى وجوها اخرى وان تسمع اصواتا اخرى . لكن نيقولائيف يبقى ، على ما يبدو ، كما هو . ويبدو كذلك ان نشاطاته المختلفة : مصور فوتوغرافي ، ممثل ، سائق سيارة متحمس ، متخاطر ، كاتب ، تكفي لتملأ حياة عدة افراد . ومقالات كارل لا تزال تنشر في كبرى الصحف والمجلات. بيد انه كان يركز كل اهتمامه آنئذ على التخاطر .

«يمكن ان تبرز مشكلات عديدة في التجارب الرسمية. سئلت ذات مرة ان احزر خمس صور من اصل عشر ، وإلا كتب بحقي تقرير يؤكد فشلي ويعلن انني لا اتمتع بموهبة ميتانفسية . ولكن افترضوا انني تلقيت صورتين تخاطريتين فقط ، او بل صورة واحدة» . ولمعت عيناه واردف يقول : «لماذا لا يعتبر ذلك نجاحا ما دامت تفصلني عن المرسل مسافة كيلومترات ؟» .

كان نيقولائيف يتكلم بقوة اقتناع . لكن حرارة موصلة هي التي كانت تنبثق منه ، وليس فصاحة كلامه وبلاغته الملتهبة . وكان مؤتمرنا قد تعرض من البداية لمكائد سياسية تستهدف البحث في مضمار بسي . كان كارل قد دعي قبل بضعة اسابيع

من قبل **المجلة الادبية** الى ما يعتقد الان انه كان اختبارا ـ فخا . وهذا ما سيشرحه لنا . بدأ نيقولائيف عرضه ، باسطا ساعديه الضخمين على القمطر . قال انه يتكلم بصفة شخصية ، لا يمثل غير نفسه ،وانه سئم شخصيا من تلك التهجمات المتواصلة على إ.ف.ح . وقال انه قد اصابه الاشمئزاز من اولئك الناس الذين لم يخصصوا ساعة واحدة لدراسة المسألة ، والذين ينزلون انفسهم مع ذلك منزلة الخبراء . وباختصار ، لقد تعب وكلّ من كل ذلك اللغط حول ما يعتبره مضمارا جديدا لا يزال هشا ، لكنه مضمار قد يعود بالخير الجم على الافراد .

ان تصريح نيقولائيف يذكر بأسلوب الشاعر فوزنيسنسكي . فتلك البلاغة الطنانة نصف الشكسبيرية ، نصف التشرشلية ، قد ولى أوانها في اللغة الانكليزية ؛ بيد ان ذلك المزيج من العقل والانفعال لا يزال يتردد في خطب الروس ، بمن فيهم رجال العلم .

لقد التقينا في لينينغراد امراة تتمتع بملكات ميتانفسية . وقد حدثتنا عن كارل نيقولائيف : «لا اعرفه شخصيا ، لكنه يعمل لصالحي . فبإقناعه العلماء باجراء اختبارات تخاطرية ، يساعدني على ان اثبت انني صحيحة العقل وانني لست لا ساحرة ولا عرافة . وذلك هو بالفعل راي الناس فيّ» .

يدرس السوفياتيون الباراسيكولوجيا بتبحر . وقد بدأت هذه الحركة تمحو عن دراسات علم النفس الكلاسيكي طابع «مطاردة الساحرات» الذيلا يزال يشوبها . فالوسطاء اليوم ما عادوا يخضعون للتفتيش ولا تضرب عليهم الاغلال كالسجناء ، بعد اكتشاف آلات القياس والمراقبة . وما عادت افواههم تسد بالكرات ، ولا تفرز سكاكين تحت اظافرهم ، كما جرت العادة في مطلع القرن العشرين على معاملة الناس الذين يتمتعون بمثل ما يتمتع به نيقولائيف من ملكات .

ان استخدام E.E.G لا يعني شيئا في نظر انصار الثنائية

التقليدية . فهو لايحسم المسألة : «هل إ.ف.ح ظاهرة مادية او روحية ؟» . وتلك الطريقة لا تميط اللثام عن اي شيء يتعلق بطبيعة العلة التي تجعل التخاطر يظهر الى حيز الوجود ، بل تسلط الضوء فقط على فيزيولوجيا الفرد المتلقي . ان E.E.G يجعل المصطلح السوفياتي الذي يشير الى إ.ف.ح ب «الاعلام الحيوي » Bioinformation اكثر قابلية للفهم .

لقد فتح تطبيق E.E.G على إ.ف.ح آفاقا جديدة . وكما قال احد السوفياتيين : «ما الذي يحول دون ان يتوصل العلم الى اصطناع بعض النماذج في المخ ، والى تأهيل الفرد بالتالي ليغدو متلقيا تخاطريا موثوقا ؟ لعلنا سننتج ذات يوم وسيطا مثلما نصنع اليوم جهازا للراديو من خلال ربط أسلاك معينة» .

ان تجارب نيقولائيف سيتردد ذكرها على امتداد الكتاب الذي بين أيدينا ، وقد تبدو وكأنها اقرب الى الادب العلمي الخيالي وعبادة الفودو الارواحية . ولكن هذا شيء والواقع شيء آخر تماما . فالسوفياتيون يحللون ويشرّحون — بالاعتماد على آلات متقنة ونظريات رياضية موائمة — بعض القدرات الغريبة التي يتمتع بها الانسان والتي لم تدرس قط على ضوء المختبرات الساطع . يردد كارل على الدوام : «يمكن ان يغدو التخاطر مهماً» . ويوم كان في طريق العودة الى بيته في موسكو بعد حرب ١٩٤٥ ، ما كان بوسعه ان يشتبه في مقدار «الاهمية» التي سيكتسبها هذا المضمار في مجرى الاعوام الستينات .

ما كان كارل ليتوقع قط انه سيستدعى ذات يوم الى مبنى اداري قاتم . فقد طلب وزير المواصلات في الاتحاد السوفياتي من الباراسيكولوجيين ان يعدوا له تقريرا عن وسيلتهم للاتصال: التخاطر . وكان سيرغييف من بين الذين قدموا تقريرا عن تجاربه في مضمار التخطيط الكهربائي للدماغ E.E.G . وعلى الاثر ، دعي نيقولائيف وكامنسكي الى اجراء تجربة رسمية .

كان المفروض بكامنسكي ان ينقل صورة شيء يختاره ممثلو

الوزير . وقد جلس نيقولائيف ، كمتلق ، في الطرف الآخر من القاعة ، مديرا ظهره لكامنسكي. وسمع الموظفون نيقولائيف يقول: «صفير ، سطح جامد ، لون أسمر ، أطراف مدببة» . فسألوه ان يفتح علبة تحتوي على قلم حبر وطبشور وقطعة سكر مكعبة وزهرة ، وقالوا : «اختر ما نقله اليك كامنسكي» . فأشار كامنسكي للحال الى مكعب السكر .

لقد بات في مستطاع نيقولائيف ، وقد انتزع النصر ، ان يعتبر نفسه قد تقدم تقدما مرموقا في مضمار التخاطر منذ ايام تجاربه وهو طالب جامعي .

طرحنا عليه سؤالا على طريقة مجلات السينما : «هل انت سعيد ؟ لماذا فعلت كل ذلك ؟ لماذا كافحت ذلك الكفاح المرير لتصير متخاطرا ؟» .

انفجر نيقولائيف يقول :

ـ كيف لماذا ؟ لماذا ؟ كي «احيا» اكثر ! ما الفائدة من الحياة على غير هذا النحو ؟ السعادة هي ان يطور الانسان ملكاته كافة ! وعلى المرء ان يحب ما يفعله ! ان يتابع التقدم والتعمق في الاشياء !» .

القوة النفسية يمكن ان تستعمل على اوسع نطاق ممكن . هذا ما يردده اصدقاؤنا السوفياتيون ، وهذا ما سمعناه مرارا وتكرارا في بلدان الكتلة الشرقية . يقولون : ارجح الظن ان الملكات فوق العادية ستدمج ذات يوم بالشخصية الانسانية وستستخدم كحاسة سادسة حقيقية .

الفصل الثالث

الاتصال المزدوج عن طريق الجسم والروح

سأل ادوارد ناوموف : «هل صادفتم قط رجلا اجنبيا فخامركم ازاءه شعور عفوي بالتعاطف والتواد ؟ هل حدث لكم ان تعرّفتم الى شخص ما فاحسستم حياله بنفور فوري لا علة له؟» .

يعزو الاميركان هذا الانجذاب او النفور المباغت الى سيرورة كيمياوية . ويتكلم الروس عن «توافق» او «تنافر» بيولوجي . ويرى السوفياتيون ان تلك التجربة التي هي تجربة يومية مألوفة تمثل المظهر الخارجي لظاهرة مخيفة بعض الشيء وقد تكون خطرة اذا ضربت جذورها في لاوعي الفرد .

اردف ناوموف يقول :

«ان ردود الفعل اللاعقلانية تلك واقعية تماما ، ولها اساس

اكيد . فالانفعالات والحالات النفسية تنعكس في النشاط الكهربائي للمخ . وبالفعل ، انه لفي مقدور الدماغ الانساني ان «يفرض» ايقاعه على دماغ الغير . وهذا ضرب عفوي من التخاطر.

«هاكم مثالا آخر : لقد حدث لكم في ارجح الظن ان شاهدتم في مكان عام شخصين او ثلاثة اشخاص يتثاءبون على حين فجاة في آن معا . أهو ايحاء ؟ لقد بدانا نفهم من تجاربنا ان السيرورات النفسية التي تحدث في جسم فرد من الافراد يمكن ان تنتقل تخاطريا الى آخرين . وكذلك هو شأن الانفعالات ــ الودية او العدائية ــ التي تنتقل من فرد الى آخر بطريق التخاطر» .

يستكشف السوفياتيون في الوقت الراهن امكانيات التاثير البيولوجي عن طريق التخاطر . ومن اشهر الذين تجرى عليهم التجارب والدراسات في هذا المضمار الاختصاصي في البيوفيزياء يوري كامنسكي الذي يساهم في الابحاث بوصفه شريك كارل نيقولائيف في التخاطر . لقد بدأ كامنسكي يهتم بالظاهرات فوق العادية حين اكتشف ذات يوم بدهشة ، في حداثته ، ان رفاقه في الصف لا يستطيعون ، مثله ، ان يتلوا ما يفكر به اصدقاؤهم ، وانهم عاجزون عن معرفة ارقام هواتف الآخرين بمجرد التفكير بها . وقد كان كامنسكي يفعل هذا كله بلا اي مجهود ، وهذه موهبة مفيدة للغاية في بلد لا وجود فيه لدليل الهاتف . ويلعب كامنسكي ، الذي يبلغ اليوم الثلاثين من العمر ، دورا مزدوجا : كموضوع للتجارب المختبرية ومراقب ، وكمجرّب علمي منضبط ونصير متحمس .

قبل عامين ، اثبت كامنسكي ان الوصيل التخاطري (المرسل) يمكن ان يكون مصدرا لطاقة افكار مشعة : فقد كانت بروق ساطعة تقدح امام عيني كامنسكي المغمضتين . كان الوقت مساء ، وكان جالسا في مختبر في جامعة لينينغراد ينظر في جهاز ذي منظارين . وكان هذا الجهاز الآلي يحدث بين فواصل

زمنية محددة ومضات من الضوء الستروبوسكوبي (١) امام عينيه بوتيرة مختلفة بالنسبة الى كل عين ؛ وتحدث هذه البروق لدى الشخص الذي يتعرض لها ذبذبات مخية معروف رسمها البياني.

«ضوء ! ضوء !» : هكذا كان يتمتم كامنسكي وهو يحاول ان يقاوم الإلهاء الذي تحدثه الومضات وأن يستحضر وجه شريكه نيقولائيف . وللحال تقريبا صدر عن هذا الاخير ـ وكان جالسا في مبنى آخر ـ رد فعل . فقد كبس على الزر الذي يشير الى ان تبليغا تخاطريا قد وصل اليه .

كانت هذه التجربة تشكل بحد ذاتها برهانا جيدا على الاتصال التخاطري . لكن ما كان يثير حماسة ناوموف وزملائه كان ضربا آخر من الاتصال أشد خفاء . فقد فك الدكتور سيرغييف بسرعة رموز ذبذبات نيقولائيف المخية بواسطة جهاز تحليل الكتروني . لم يكن نيقولائيف خاضعا في تلك اللحظة لاي اثارة عن طريق الوميض الضوئي او سواه . كان جالسا في حالة راحة وتأمل ، ومع ذلك كانت تظهر ، كلما وجهت البروق الى عيني كامنسكي ، نبضات في الرسم البياني لنشاط نيقولائيف المخي . فالنموذج المستحدث اصطناعيا في دماغ كامنسكي احدث ، عبر المكان ، نشاطا مخيا لدى نيقولائيف . وبذلك يكون النشاط الفيزيولوجي الحادث في جسم كامنسكي قد استثار على نحو مباغت رد فعل في جسم المتلقي .

أكد ناوموف حين سرد علينا قصة تلك الاستثارات غير المألوفة : «يستحيل على نيقولائيف ان يحدث مثل ذلك الاثر في الرسم البياني لنشاطه المخي ، حتى ولو بفعل ارادي واع . وبمعنى ما ، يجري كل شيء كما لو ان المضمون التخاطري يسجل نفسه بنفسه فوتوغرافيا على دماغه» .

---

١ ـ اي الذي يقيس سرعة الدوران او التردد . ـم ـ

لقد لاحظ علماء العالم قاطبة ان تغيرا في الذبذبات المخية لدى توأم حقيقي يحدث تبدلا مماثلا في النشاط المخي للتوأم الآخر. وقد درس الدكتور توماس ديوان، رئيس القسم العيني في «معهد جفرسون الطبي» في فيلادلفيا، وزميله الدكتور توماس بيرنت، ذلك التخاطر الفيزيائي في عام ١٩٦٥. وقد بيّنا ان ذبذبات الفا (المميزة لحالة الراحة) التي تظهر لدى احد التوامين يمكن ان تتسبب عن بعد في ظهور الرسم البياني عينه لدى الآخر.

لقد انجز كامنسكي عملا باهرا حقيقيا بنقله تنبيها مركبا الى دماغ نيقولائيف. ويبدو فكره مشحونا الى ما فوق الحد المعتاد نظير ضوء ستروبوسكوبي قياسا الى لمبة كهربائية بقوة ٢٥ واطاً. ومن جهة اخرى، لا يمكن للعين ان تخطىء فتحسب الرجلين ابني عم او توامين حقيقيين. فكامنسكي ذو وجه مبسوط وطفلي، وجبين مكشوف، وانف خافس. وهو لا يشبه من قريب او بعيد نيقولائيف بجثته الضخمة ووجهه المتوقد. ومع ذلك، امكن للتدريب الذي اخضعا له والذي تركز على المقدرة على استحضار صورة مشهد من المشاهد كما تركز على التناغم المفترض بين الحقلين المغناطيسيين، أن يحدث في بعض الاحيان لدى الرجلين مظاهر تشابه وتجانس لا يصادف نظيرها الا لدى التوائم.

لا يعي الافراد وعيا مباشرا ما تفعله ذبذباتهم المخية. وقد نقل كامنسكي ووصيل آخر، وهو طالب يدعى اليكس مونان، الى نيقولائيف بطريق التخاطر احساسات أمكنه بدوره أن «يحس» بها. وقد بدأ مونان يزاول التخاطر منذ سنه الرابعة عشرة، اذ كان يتلهى بتنويم اخته مغناطيسيا. ثم شرع الغلام ينوم مغناطيسيا سكرتيرة شابة تدعى لودا. وفيما كانت لودا مستسلمة ذات يوم الى نومها المغناطيسي، استغرق مونان في تأملاته ونسي وجود الفتاة.

اخيرا قال : «استيقظي يا لودا» . ففعلت ، وشرعت تتلو الافكار ذاتها التي كان مونان مستغرقا فيها لتوه . فسألها مونان مذهولا : «كيف تعرفينَ ذلك ؟» . فأجابت : «لست أدري ، اني انطق بالكلمات كما ترد الى ذهني» .

ثارت للحال حماسة مونان للباراسيكولوجيا ، وطفق يلتهم الادبَ الذي يعالج الموضوع . كان يحمل كل يوم كتابا ويجلس يطالعه على مقعد في الحديقة العامة . كان ينتظر ان يتقدم في المشى عابر سبيل تعجبه هيئته ، وكان يفكر : «عنقك تحكك بقوة . حكها !» ، او «حطّ زنبور على رقبتك ، وهو يقرصك!» .

وطفق بعض من اولئك المارة المجهولين يحكون عنقهم او يطردون حشرات لامنظورة . على هذا المنوال راح مونان يتدرب على ان يصير وصيلا (مرسلا) تخاطريا ، مثلما كان نيقولائيف يريد ان يصبح «متلقيا» . ويعمل مونان ايضا ، كمساعد مختبر ، مع باراسيكولوجيي موسكو .

لم يحاول مونان ان يوحي الى نيقولائيف بأن زنبورا يقرصه من رقبته . وانما رجع ، مع كامنسكي ، الى التجارب الضوئية . ان الانوار الوامضة بايقاع مختلف بالنسبة الى كل عين تسبب احساسا بالدوران وشعورا مزعجا للغاية لمن هو عرضة لها . جلس مونان اذن امام الجهاز ذي المنظارين . وأشار نيقولائيف ، المعزول في حجرة في الطرف الآخر من المبنى ، الى انه يحس باتصال تخاطري . ومن دون ان يعلم ما كنه التجربة ، شعر فجأة بغثيان . لقد استطاع اذن مونان وكامنسكي ان يوحيا تخاطريا لنيقولائيف ، ومن دون علمه ، بأنه عرضة لدوار البحر . وطبيعي ان هذه التجربة كانت تقتضي ان يكون الوصيلان والمتلقي نيقولائيف بفضل التدريب في حالة تواصل فكري . لكن هل من الممكن ان تستحدث تلك الظاهرة خارج المختبر ؟ هل من الممكن ان تحدث عرضا واتفاقا ؟

يقول الدكتور بافل ناوموف ، الذي لا يمت بأي صلة قرابة

الى ادوارد ناوموف : «أجل ، بالتأكيد» . وبافل ناوموف عالم سيكولوجي يجري دراسات نفسية في الجو الصاخب لعيادة توليد في موسكو .

«لا مرية في وجود روابط بيولوجية بين الأم والطفل . في عيادتنا ، تنزل الامهات في جناح خاص من المبنى منفصل عن الجناح الذي يوضع فيه الاطفال . يستحيل عليهن ان يسمعنهم . ومع ذلك ، حين يبكي الاطفال ، تظهر نرفزة عصبية على أمهاتهم . كذلك حين يتوجع الطفل (عندما يسحب الطبيب منه دما ، على سبيل المثال) ، تظهر على الام في اللحظة عينها علائم قلق . علما بأنها لا تملك اي وسيلة لتعرف ان الدكتور موجود في تلك اللحظة قرب وليدها» .

يبدو ان هذه الصلة التخاطرية الطبيعية تتم في كلا الاتجاهين . فاذا توجعت الام بشدة ، احس وليدها بذلك وبكى . «لقد وجدنا ان التواصل يتحقق بنسبة ٦٥ بالمئة من الحالات» : ذلك هو الاستنتاج الذي يخلص اليه بافل ناوموف في مقال كتبه لمؤتمر علمي هام انعقد في شباط ١٩٦٨ حول مشكلة التخاطر العلمية .

يوجد في روسيا مثال تاريخي شهير على التناقل التخاطري للقلق والالم الجسماني بين الاهل والاولاد . فميخائيل لومونوسوف ، الولد ــ المعجزة في القرن التاسع عشر ، المولود في أسرة فلاحية ، صار واحدا من اشهر علماء البلاد ومؤسس جامعة موسكو . وذات ليلة حلم بوالده الذي كان صياد سمك . رأى في المنام الرجل العجوز يصارع العاصفة في عرض البحر . كانت الامواج تنسحق على المركب الذي اخذ يجنح بدفع لا يقاوم نحو الشاطىء الوعر لجزيرة مقفرة في المحيط المتجمد الشمالي . وشاهد الحالم حادثة الغرق . وعند اليقظة ، كان اقتناع العالم المذعور راسخا بأن والده حاول ، وهو يواجه خطر الموت ، ان

يتصل به. كان لومونوسوف في خارج البلاد حين رأى المنام وكان في طريق العودة من المانيا . وبعد سفر طويل قصد ميخائيل ، فور وصوله الى سان ـ بطرسبورغ ، اخاه الذي ابلغه ان أخبار مركب الاب انقطعت منذ اربعة شهور . فروى عندئذ لومونوسوف منامه لصيادي قريته ، مسقط راسه، وسألهم ان يذهبوا للبحث عن جزيرة منامه . كان لومونوسوف متيقنا من ان النجدة ستصل متأخرة ، لكنه كان يريد ان يدفن والده على نحو لائق . ورحل الصيادون واكتشفوا بالفعل حطام السفينة الغرقى ، ودفنوا جثمان والد لومونوسوف على نحو ما طلب اليهم هذا الاخير .

بعد تلك الحادثة بسنوات عديدة، اشار برنار ب. كاجنسكي، من اوائل الرواد السوفياتيين في الابحاث الباراسيكولوجية ، الى وجود تناقل تخاطري لأعراض جسمانية . ومن قبيل ذلك ان امراة احست فجأة بآلام شديدة في معدتها . وعلى بعد ٢٠٠٠ كم منها ، كانت تجرى لابنتها في اللحظة عينها عملية جراحية في البطن ، لكن الام كانت تجهل ذلك . وفي مستطاعنا ان نذكر عشرات من الامثلة على التناقل العفوي لأعراض جسمانية من هذا النوع .

يذهب الدكتور بافل ناوموف الى ان الاتصالات التخاطرية العفوية لا تحدث فقط مع الاهل . فقد لاحظ ان الفتيات اللواتي يضربن مواعيد للفتيان المحبوبين بملكة تخاطرية يدركن ٤٠ بالمئة من الصور التي يرسلها اليهن اصدقاؤهن . وفي العالم الغربي لاحظ الباحثون منذ زمن بعيد ظهور ومضات تخاطرية عفوية تحدث بصورة رئيسية بين أفراد الاسرة الواحدة او بين العشاق واصدقاء الطفولة .

اخيرا ، يرغب بعض الاختصاصيين الروس في الاقرار بوجود هذا التواصل اللامنظور بين الحيوانات . في اول مرة التقيناها فيها ناوموف ، اثار مسألة استبار مثير جدا للاهتمام بخصوص التخاطر . كنا نتناقش في صحة او كذب الشائعات التي راجت

بخصوص اختبارات إ.ف.ح المزعومة التي اجريت على متن الغواصة الذرية الاميركية ناوتيلوس . فهتف ناوموف :
ـ ان كانت بحريتكم لم تجر تجارب على متن ناوتيلوس ، يكن العلماء السوفياتيون في هذه الحال اول من جرب إ.ف.ح على متن غواصة !

لم يكن يتباهى ، لكنه كان يعلق ، على ما يبدو ، اهمية خاصة على طبيعة اختبار الـ «إ.ف.ح» الذي اجراه السوفياتيون على متن غواصتهم . «لم نستخدم وسيطا انسانيا. بل استخدمنا ارنبة اماً ومواليدها الصغار» .

ما كان في مستطاع الارنبة الام ، بالطبع ، ان تعرف ما يجري . وحتى لو فهمت طبيعة الاختبار ، لما امكنها ان تحزر في اي ساعة سيموت صغارها . ومع ذلك ، في اللحظة التي كان كل واحد منهم يسلم فيها الروح ، كان رد فعل يصدر عن مخ الأم . ويؤكد ناوموف : «لقد حدث اتصال ، وقد سجلت ادواتنا بوضوح تظاهرات إ.ف.ح تلك» .

ماذا اكتشف السوفياتيون على وجه الدقة اثناء تجاربهم التخاطرية تحت البحار ؟

قال لنا ناوموف : «لقد حررت التقارير حول المسألة ورفعت الى السلطات المختصة . ومن سوء الحظ ان تلك الوثائق ذات طابع سري» .

لاحظ عندئذ المندوب البريطاني جون كوتن قائلا : «لفتت انتباهي في حديثك نقطة لم تتوقف عندها . فالتجربة التي رويتها لنا تتطلب تعاونا وثيقا للغاية بين فريقكم وبين الحكومة والجيش ، أليس كذلك ؟» .

اكتفى ناوموف بالاجابة : «ان ملاحظة السيد كوتن في غنى عن التعليق» .

يمكن القول ان فكرة الاستبار الفيزيولوجي تتوافق على

احسن وجه مع اهتمامات الباراسيكولوجيا السوفياتية . وفي هذا الاطار يندرج اجراء التجارب على ظهر غواصة بعد كل الضجة الاعلانية التي اثيرت في الاتحاد السوفياتي حول قصة ناوتيلوس. وفرضية وجود محل ما فوق حواسي لدىجميع المخلوقات لم تعد اليوم غير قابلة للتصديق مثلما كانت في الماضي ، وذلك بفضل العمل المدهش الذي انجزه كليف باكستر في الولايات المتحدة . فقد جمع السيد باكستر ، وهو مدير مدرسة باكستر لكشف الكذب في نيويورك ، ادلة كافية تثبت وجود نوع من الادراك الاولي لدى جميع الكائنات الحية . ومن قبيل ذلك ، على سبيل المثال ، انه حين تقتل حيوانات القريدس الصغيرة يلحظ رد فعل فوري لدى جميع الاشياء الحية ـ النباتات على سبيل المثال ـ الموجودة في الجوار . يقول باكستر : «لا يمكن لاي قوة على ما يبدو ان تعيق ذلك التواصل ، ولا حتى العوازل الرصاصية» . ويقال ان السوفياتيين اكتشفوا ، كما تشير الدلائل ، ان اطنانا من ماء البحر لا تشكل حاجزا يمكن ان يعيق مثل هذا التواصل بين الأحياء .

ان العمل الاختباري الذي يقوم به كل من باكستر والسوفياتيون على حدة لا ينطوي على اي سر . فردود الافعال تسجل على اجهزة قياس مضبوطة بدقة فائقة ، وتجارب باكستر يعاد اجراؤها في مختبرات اخرى . وانه لأمر له مغزاه العميق ان يكون الجيش السوفياتي معنيا كثيرا بدراسة الادراك الاولي . وفي مقدورنا ان نتخيل ضروبا شتى من الاستخدامات الممكنة ، ويبقى افضلها وضع نظام للاتصال لا نظير له . ولكن بصرف النظر عن هذه الاستعمالات العملية ، فان اكتشاف رابطة جسدية ـ نفسية بين الكائنات الحية كافة يرتدي اهمية جلى بالنسبة الى فلسفتنا وتصورنا للكون . وكل امرىء يعلم ان الصوفيين واللدنيين يلحون كثيرا على الفكرة التي تقول اننا جميعا نرتبط بعضنا ببعض . وكثيرا ما يشبّه الدكتور

غاردنر مورفي ، رئيس الجمعية الاميركيـــة للبحث النفسي ، الافراد بجزر بلقانية تبزغ فوق سطح البحر . اما من تحت ، فان هذه الكتل ترتبط بالارض التي منها جاءت والتي تشد وثاقهـا الى غيرها من الكتل .

اذا تأكدت صحة النتائج السوفياتية الاولى ، يترتب عليها ان تيارات تواصل توجد في جميع الاتجاهات تحت سطح الاشياء المنظور . أهي مشحونة برسائل او تبليغات ؟ يتساءل الروس . هل يمكن ان تنقل تخاطريا احاسيس الغضب والخوف والعنف من غرفة الى اخرى ، او حتى من موسكو الى لينينغراد ؟

يدعي السوفياتيون انهم نفذوا عددا كبيرا من التجارب . وفي سلسلة ناجحة للغاية من التجارب ، عكس كامنسكي المتعـــدد الكفاءات دوره وصار متلقيا ، بينما قام بدور المرسِل او الوصيل اليكس مونان . وبعد تصرم بضع دقائق ، نقل مونان شحنـــات انفعالية عنيفة . ركز اهتمامه على نقل احساس حاد بالقلق كما لو انه يختنق . ثم تخيل نوبة ربو حادة ، ومن بعدها نوبة قلبية. وفي جلسات اخرى ، حاول ان يعطي انطباعا بضربة عنيفة تسدد الى الراس . وحاول مرة ان يلوي انف كامنسكي . وفي كـل مرة كان مونان يكرر تسع مرات تبليغ الرسالة التخاطرية ذاتها . وفي ٨٠ بالمئة من التجارب احس كامنسكي ، الذي كان فـــي حجزة معزولة اثناء ذلك ، احساسا واعيا بتلك الانفعالات الخاصة (لا يكشف الباحثون السوفياتيون النقاب عن العدد الدقيق لتلك التجارب ، لكنهم يتحدثون فقط عن «عدد كبير») .

استطاع كامنسكي ان ينقل انطباعاته الذاتية الكئيبة الـــى نيقولائيف ، من موسكو الى لينينغراد . وفي عين اللحظة التي كان كامنسكي يبلغ فيها الرسالة ، اشار نيقولائيف الى انه يتلقى رسالة بطريق التخاطر ، وصرح بانه يشعر باكتئاب في نفسه . اكان ذلك محض خيال ؟ من المؤكد ان تجارب نقل الانفعـــالات

بطريق التخاطر كانت ستنبذ نبذا قاطعا قبل استخدام اجهزة التخطيط الكهربائي للدماغ في ابحاث الباراسيكولوجيا السوفياتية . وقد اكتشف فريق ناوموف ـ سيرغييف ـ بافلوفا ان الرسوم البيانية التي حصل عليها بواسطة اجهزة التخطيط الكهربائي للدماغ تطرأ عليها تبدلات جذرية حين تحدث الشحنة التخاطرية لدى المتلقي استثارة انفعالية . تروي الدكتورة بافلوفا : «ان نقل عدة انفعالات متعاقبة ذات طابع اكتئابي يحدث استثارة خاصة في الدماغ ، ويبدل الطابع المعهود الرسوم البيانية المسجلة على جهاز التخطيط الكهربائي للدماغ ، ويتسبب في ظهور سلسلة من الذبذبات البطيئة من نمط دلتا وتيتا المميزة لحالة تعب الدماغ» . ولقد كان كامنسكي ونيقولائيف ، حسبما لاحظت الدكتورة بافلوفا ، «يعيان انهما يحسان بإحساسات جسمانية مزعجة مقترنة بصداع شديد في الراس» .

تضيف الدكتورة بافلوفا : «على اثر نقل انفعالات ابهج (مشاعر طمانينة وتفاؤل) عن طريق التخاطر ، عاد جهاز التخطيط الكهربائي للدماغ الى رسمه البياني المعتاد بعد زمن يتراوح بين دقيقة واحدة وثلاث دقائق . واختفت كذلك الاعراض الجسمانية المؤلمة ، ليخلفها شعور بالطمانينة اثناء النقل التخاطري لانفعالات ذات طابع مهدىء» .

قال لنا نيقولائيف :

ـ اذا كان ثمة نوع اكرهه من الاختبارات ، فهو ذاك الذي ينطوي على نقل انفعالات اكتئابية . فانا اقع احيانا فريسة المرض لمدة ساعات .

تقودنا هذه التجارب الريادية التي يجريها السوفياتيون الى استنتاجات مدهشة او مفزعة ، وذلك تبعا للزاوية التي ننظر اليها منها . فالانفعالات الاكتئابية تمارس تأثيرا ضارا على فيزيولوجيا الانسان كما على حالته النفسية . اما الافكار المهدئة والتفاؤلية فتساعد الجسم ذاته على استعادة توازنه. وقد توصل

ناوموف وسيرغييف والدكتورة بافلوفا الى اكتشافات مثيرة بخصوص قدرة الفكر . وبناء عليها ، قد لا يكون من الضروري ان يصطنع المرء لنفسه افكارا سودا ، وانما قد يتلقاها من امرىء آخر ولدت عنده هذه الافكار ونقلها الى غيره تخاطريا . وحتى بصرف النظر عن التخاطر ، كان السوفياتيون يعلمون من الاساس ان الفكر يستطيع تغيير حالة خلاياك الدموية . ففي عام ١٩٥٦ اثبت الدكتوران س. سيروف و أ. تروسكان من سفيردلوفسك ان عدد الكريات البيض يزداد ١٥٠٠ وحدة اذا ما أوحي الى المرضى بانفعال محبب . ولنذكر ان كريات الدم البيض ، او الكريضات ، تشكل خطا رئيسيا من خطوط دفاع الجسم ضد المرض .

في عام ١٩٥٩ ، اكتشف الدكتور التشيكي ستيبان فيفار ان النشاط الذهني الحاد لدى فرد ما يتسبب ، عن بعد ، في تبدل طفيف لضغط الدم لدى شخص آخر في حالة الراحة . وقد قاس هذه الظاهرة بواسطة Plethismographe ، وهو جهاز يدخل في عداد آلات كشف الكذب . وأجرى الباراسيكولوجي الاميركي دوغلاس دين مئات من الاستبارات المقاسة بدقة ، والتي تثبت تأثير التخاطر على ضغط الدم .

ليس الماركسيون على استعداد لتخصيص نفقات كبيرة لاقامة البرهان على أوهام . واذا ما استمرت الاستبارات الجارية تعطي نتائج مثمرة ، فان المذهب الرسمي سيبقى ضمن الخط الذي اتبع في كل مرة انارت فيها الباراسيكولوجيا ميدانا كان يعتبر حتى ذلك الحين دينيا . «اجل ، ان تلك الاشياء يمكن ان تحدث. وهي تنشأ عن وظائف سوية لدى الانسان ، لكننا كنا نجهلها حتى عهد قريب» .

تؤكد الاكتشافات النفسانية المختلفة المحققة في الولايات المتحدة قيمة التجارب السوفياتية . ويعتقد العلماء الاميركيون

انهم لاحظوا نقلا تخاطريا لامراض او لاعراض فيزيولوجية . ومن هذا القبيل ، جمع ابرز اولئك العلماء ، الدكتور برتولد شفارتز، وهو اختصاصي في طب الاعصاب من نيوجرسي وطبيب نفساني وكاتب ، جمع اكثر من ٥٠ حالة تخاطرية جرت بين الاهـل واولادهم . وعلى حد تعبير الدكتور شفارتز ، يظهر عدد من تلك الحالات «امكانية نقل واستجابة تلجسميين Télésomatiques». ويبدو ان النشاط الذهني لدى الاب او الام ولدى الولد يتسبب في حدوث ردود فعل جسمانية لدى الآخر . هذا ما يرويه الدكتور شفارتز في مجلة **الجمعية الطبية لنيوجرسي** .

هاكم حالتين نموذجيتين لاحظهما الدكتور شفارتز . الاولى هي حالة رجل استيقظ ذات صباح فريسة وجع اسنان لا يطاق. فأخبر بالامر زوجته ثم اتصل هاتفيا بطبيب الاسنان ليأخذ موعدا مستعجلا . وفي صبيحة ذلك اليوم ، اتصلت والدة الرجل هاتفيا لتقول انها قلعت لاول مرة منذ سنين عديدة سنا من اسنانها . اما ابنها فقد زال وجعه قبل ان يتوجه الى عيادة الطبيب بعد ظهر ذلك اليوم . ولم يكتشف الطبيب شيئا في السن التي شكا منها مريضه . ولم يعاود الالم ظهوره قط . واتضح فيما بعد ان سن الابن الموجعة تناظر بالضبط السن التي اقتلعتها امه .

هل ينبغي ان تقبل الاوجاع الناشئة عن التعاطف في مختبر الباراسيكولوجيا ؟ هاكم الحالة الثانية التي يصفها الدكتور شفارتز : أحس رجل كان يقود سيارته قاصدا مركز عمله بألم عنيف مباغت في معدته . فقرر ان يرجع الى بيته ، وما كاد يتجه في الطريق المعاكس حتى زال الوجع . فدار بسيارته مرة اخرى، وانطلق باتجاه المكتب ، فهاجمه الوجع من جديد . ذهل الرجل وقرر الا يتابع طريقه وانكفأ بسيارته باتجاه بيته ، بالرغم من ان الالم اخذ يتناقص مع اقترابه . ولما سمعت زوجته قصة حادثته ، بدت عليها أمارات الانزعاج بالاحرى . وفي مساء ذلك

اليوم عينه ، اكتشف الرجل الحقائب المحزومة والجاهزة . فقد كانت زوجته قد عقدت العزم على هجـــره في ذلك الصباح ، مصطحبة معها ولديهما الصغيرين ، فيما هو متوجه الى عمله . ويعتقد الاب ان قلق ولديه الصامت قد وصله تخاطريا واحدث لديه الوجع الذي جعله يقفل راجعا الى بيته .

اكتشف الدكتور شفارتز حالات اشد تعقيدا ودراماتيكيــة بكثير عند محاولته تسجيل التيارات التلجسمية بطرائق علـــم النفس البشري . ومن غير المرجح ان ياخذ السوفياتيون بوجهات نظر الدكتور شفارتز بصدد علم نفس الاعماق ، لان هذا الاخير يشكل في الاتحاد السوفياتي مضمارا اكثر عرضة للاشتباه حتى من الباراسيكولوجيا . غير انه من المحتمل ان تقودهم ابحاثهم بالذات الى اعادة الاعتبار الى هذا المضمار .

ان الدراسات السوفياتية عن اثر التخاطر فـي السيرورات البدنية متقدمة غايةالتقدم. يروي الدكتور ليونيد.ل. فاسيلييف في كتابه **تجارب الايحاء الذهني** انه اجرى خلال السنـــوات الثلاثينات مئات من التجارب في محاولة لحمل الناس ذهنيا على الفعل . «صلّب ساقيك» ، «ارفع يدك اليمنى» ، «سر مستقيما الى الامام» . ونسبة الناس الذين رفعوا يدهم وساروا وفق الامر الذهني اكبر من ان يجوز الكلام عن مصادفة . وقد ركـــز فاسيلييف اوامره الذهنية من جهة على رجال ونساء اسوياء ، ومن الجهة الثانية على المختلين عقليا . وكان عادة يثير اعصابهم اثارة خفيفة حتى يسهّل عليهم عملية التلقي وكان في بعض الاحيان يعصب عيونهم .

في اعقاب تجربة نموذجية اجراها على شخص موهـــوب للغاية ، في صيف ١٩٣٧ ، اعطى فاسيلييف النتائج التالية : «من اصل ١٣ امرا اصدرتها اليه تخاطريا نفذ بدقة ٦ منها ؛ وتحوم الشبهة حول ٣ اوامر اخرى ؛ بينما اخفقت ٤» .

حاول فاسيلييف ان يتحقق من امكانية شفاء الشخص جسمانيا عن طريق التأثير الذهني ، بدلا من ان يجعله يتمارض . فقد حاول فاسيلييف ، يساعده فريق طبي وبخاصة الدكتور ف. ن. فيني ، المنوم المغناطيسي ، ان يعالج تخاطريا مريضة في التاسعة والعشرين من العمر ، تدعى كوزمينا ، وكانت تعالج في واحد من مستشفيات لينينفراد منذ سنوات من شلل هستيري في الجانب الايسر . وقد استطاعت المريضة ، بعد ان تلقت تحت تأثير التنويم المغناطيسي سلسلة من الايحاءات القوية المكررة بصوت عال ، ان تحرك ذراعها وساقها المشلولتين .

تساءل فاسيلييف : هل الايحاء الذهني الصرف قوي بما فيه الكفاية ليصل الى النتيجة ذاتها ؟ لقد جرت التجربة في غرفة صغيرة في المستشفى ، غير مفروشة الا بسرير واحد في وسطها وبمقعد خشبي صغير للدكتور الذي جلس على بعد مترين وراء كوزمينا المددة على السرير . كانت المريضة المعصوبة العينين بإحكام ، والمنومة مغناطيسيا ، راقدة بلا حس ولا حراك . وكان فاسيلييف وزملاؤه يحاذرون ان يصدر عنهم اي صوت . وكانوا يرسمون على ورقة الحركة التي يريدون الايحاء بها ، ثم يسلمونها الى المتخاطر المرسل الذي كان تارة فاسيلييف وطورا فيني .

امر الدكتور فيني ذهنيا المريضة بأن تبسط ذراعيها على شكل صليب . ومرت دقيقة وثلاثون ثانية على اصدار الدكتور فيني لأمره التخاطري . وما لبثت حركات تشنجية ان ظهرت في ذراع كوزمينا اليسرى المشلولة . وتدريجيا مدت ذراعها . لكنها لم تمد الذراع اليمنى السوية ، مما لم يحقق للتجربة سوى نجاح نصفي .

ركز فاسيلييف افكاره ليصدر امرا ذهنيا . «اثني ركبتك اليمنى» . فثنت كوزمينا ساقها . ولبث باقي جسمها ساكنا بلا حراك ، وكانت قد تصرمت ثلاث دقائق الى خمس .

لما سئلت كوزمينا لماذا نفذت تلك الحركات المختلفة ، اجابت وهي لا تزال تحت تأثير التنويم المغناطيسي : «انه البروفسور فاسيلييف الذي أمرني بها» او «كان ذلك بأمر من الدكتور فيني» . ولم تخطىء قط في تسمية الشخص الذي اصدر اليها الايحاء التخاطري .

ركز الدكتور فيني افكاره لينقل اليها تبليغا تخاطريا اشد صعوبة. فقد أثار بالايحاء الذهني العصب الزندي للذراع اليسرى المشلولة ؛ ثم اثّر على العصب المتوسط ، وأخيرا على العصب الشماعي . في تلك اللحظة رفعت كوزمينا ذراعها اليسرى . وكانت وضعية العضو مماثلة لتلك التي تحدثها اثارة ميكانيكية للاعصاب ذاتها . ثم اسبلت ذراعها اليسرى . وأخذت يدها الوضعية المتحددة باثارة العصب الشماعي .

من غير المحتمل ان تكون كوزمينا قد فهمت ما مدلول مصطلحات «العصب الزندي» و«المصب المتوسط» و«العصب الشماعي» ، او ان تكون قد عرفت الوضعية المناظرة التي يحدثها تنبيه تلك الاعصاب ، حتى ولو كان فيني اصدر اوامره بصوت عال .

اثارت التجربة فضول اطباء آخرين ، فدلفوا الى الغرفة التي سرعان ما اكتظت بحوالي اثني عشر شخصا . وران الصمت. ودعا فاسيلييف قادما جديدا ، البروفسور كوليابكو ، الى اعطاء ايحاء : «حكي خدك الايسر وارنبة انفك» . فرفعت كوزمينا ذراعها اليمنى الى خدها الايسر وشفتيها ، ثم حكت خدها الايمن باليد ذاتها .

سال فيني المريضة ، التي كانت ما تزال تحت تأثير تنويمه المغناطيسي ، ماذا تفعل . قالت : «الجانب الايمن من وجهي يحكني» .

سال فيني :

ـ من كلمك ؟

ـ ليس انت .
ـ من اذن ؟
ـ البروفسور **كولباشون** . فهو الذي سبب لي تلك الحكة في خدي الايمن .

لقد جاء لفظ الاسم محرفا بعض الشيء وكانت المرأة المشلولة قد التقت كوليابكو مرة واحدة لهنيهة من الزمن قبل التجربة . وكانت الغرفة تفص بعدد من الاشخاص ينيف على العشرة ، وكان معظمهم من القادمين الجدد .

اجرى الاطباء على كوزمينا ١٩ اختبارا في ١٥ جلسة . ويقول فاسيلييف ان ١٠ اختبارات من مجمل التجارب التي اجريت لاستثارة حركة جسمانية لدى كوزمينا بالايحاء التخاطري كللت بالنجاح التام ، وان ٦ منها حقق نجاحا جزئيا ، وان ٣ منها فقط منيت بالاخفاق .

فهم فاسيلييف انه ، طبقا لنظريات بافلوف ، لا يمكن اخضاع الشخص ذاته لهذه الاختبارات لحقبة مديدة من الزمن . وإلا فان ظهور استجابة مشروطة سيحجب عن الانظار المفعول التخاطري. وتابع فاسيلييف تجاربه . حاول ان يأمر تخاطريا بتنفيذ حركة جسمية يؤديها الفرد عادة بصورة آلية ومن دون ان يفكر بها في حالة الوعي : الاهتزازات البطيئة التي يهتزها الجسم ليحافظ على توازنه . وبواسطة جهاز تسجيل حساس للغاية ، اكتشف الدكتور فاسيلييف انه في مقدوره التأثير تخاطريا على اهتزاز جسم انسان بعينه من دون ان يعي هذا الاخير ذلك . وكانت قوة فكره كبيرة بما فيه الكفاية لترغم الفرد الخاضع للتجربة على رفع ساقه ومدها بسرعة الى الامام ليستعيد توازنه .

يبدو انه من المستحيل ان نغفل الكلام ، في كتاب يتحدث عن الامكانيات التي يحوزها الفكر للتأثير على الجسم ، عن اشهر المنومين المغناطيسيين الروس قاطبة : راسبوتين ، الراهب الجائع الى السلطة ، المجنون ، القديس ، الشيطاني ، وغير ذلك من

الاحكام التي تصدر عليه . لقد ولد عدد موفور من الاساطير الخيالية والمتناقضة حول ذلك الشخص الذي كان يدعي انه خادم الله الوضيع . وكان راسبوتين يملك ، تحت ظاهر سيمائه المسرحية ، قدرات نفسية فعلية . وكان قد تدرب على أيدي الشمانيين (٢) في سيبيريا . وكان قد اشتهر عن نظام الشمانيين القديم انه يتيح للانسان معرفة عميقة بالمضمار النفسي ، شريطة ان يبقى على قيد الحياة بعد التدريب . ولقد كان راسبوتين ، كما هو معلوم ، قويا بما فيه الكفاية كي يبقى على قيد الحياة . ومعلوم كذلك انه كان الشخص الوحيد الذي امكنه ان يعالج اشهر مريض في روسيا الامبراطورية : القيصر الشاب الذي كان يشكو من داء النزف .

كان في مستطاع راسبوتين ان يسكن آلام الفتى وأن يوقف نزفه ، وكان يعتمد في ذلك بلا ريب التنويم المغناطيسي . لكن يبدو ايضا انه كان مبرئا محبوا بقدرات فوق عادية . ويقال انه كان يستطيع ان يعالج ابن القيصر عن بعد (كان راسبوتين يملك على كل حال قدرة خارقة للمالوف للتاثير على الجسم في اتجاه آخر . فقد كانت سيدات المجتمع الراقي لا يمضين دقيقة في حضور الراهب حتى يقعن ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، في فراشه . ولا بد ان ذلك الرجل كان يشع منه إسقاط ذهني اكيد اذ صرحت سيدات كثيرات فيما بعد : «لقد أوحي لي بكل شيء ، فنمت مع الله») . وانه لما يسحر الالباب أن يتخيل المرء ان راسبوتين ، بعينيه البراقتين ورائحته الشيطانية ، قد صار ذات يوم موضوعا للاستبارات تحت الكترودات الدكتورة بافلوفا . بيد اننا لا نستطيع ان نتصور انه كان سيقبل الدخول في مناقشة حول

---

٢ ـ الشمانية : مذهب من مذاهب عبادة القوى الخفية وفوق الطبيعية في آسيا الوسطى والشمالية . ـم ـ

الاواليات الفيزيولوجية لقدراته المقدسة . وصورة قدرات راسبوتين النفسية هي التي كان الدكتور فاسيلييف وزملاؤه يحاولون محوها حين باشروا دراساتهم المتبحرة بعد مضي أقل من سبع سنوات على مصرع الساحر . وقد أخضع هؤلاء الباراسيكولوجيون الاوائل للتجارب المختبرية الايمان السحري بأنه في مستطاع الانسان ان يؤثر عن بعد على جسم غيره .

حين نشرت اخيرا اكتشافات فاسيلييف في السنوات الستينات ، بدأ الدكتور كوغان وادوارد ناوموف ويوري كامنسكي والدكتور سيرغييف ، وكثيرون غيرهم ، يسلكون الطريق الذي رسمه فاسيلييف . كان فاسيلييف يوجه تخاطريا حركات الجسم . وقد نجح في تحريك الذراع المشلولة لكوزمينا. وحاول الباحثون الجدد ان يؤثروا تخاطريا على السيرورات الفيزيولوجية . فقد استثار كامنسكي استجابة اصطناعية في دماغ نيقولائيف . ثم حاولوا ان يسقطوا تخاطريا انفعالات معينة. واخيرا، برهنوا على ما يبدو، خارج المختبر، على ان الأم يمكن ان تنتابها آلام حادة بينما وليدها يبكي في اللحظة عينها . وعلاوة على البراهين الاضافية التي جاءت بها تلك التجارب على وجود التخاطر ، فان أمثال تلك الحالات تطرح مشكلات فلسفية وأخلاقية وشخصية وعلمية . هل يؤثر الفكر حقا على الجسم عن بعد ؟ هل يؤثر جسم الفرد على جسم فرد آخر ؟ هل يمكن لجسم فرد من الافراد ان يؤثر على روح فرد آخر ؟ وكلما كانت الستر تنزاح عن قدرات **بسي** ، كانت الحدود الواضحة والمرسومة بدقة لكل من البيولوجيا والسيكولوجيا تأخذ بالامحاء والتداخل ، مفسحة واسع المجال لافتراض وجود دينامية جديدة كل الجدة تحت واجهة ذينك العلمين .

هل نحن في سبيلنا ، على مستوى الافراد ، الى اكتشاف وجود نظام للاتصالات اللاواعية ؟ هل من الممكن ان نؤثر ، من دون ان نعي ، في كل لحظة على غيرنا ؟ وما الظروف الخاصة التي

تجعل التيار التلجسمي يمر ؟

من منظور العلاقات القائمة بين البيولوجيا والتخاطر ، كلمنا ادوارد ناوموف مرارا عما ينجم عن ذلك من تاثير على العلاقات الانسانية والعائلية والاجتماعية . «لقد اعتدنا الا نرى سوى التوافق السيكولوجي ، وعلينا الان ان نتكلم عن توافق او تنافر بيولوجي» . وتبقى تيارات الاتصال التلجسمية مجهولا ذا اهمية غير محددة . ويعتقد ناوموف ان التبحر في دراسة هذا المجهول وديناميته يمكن ان يقود الى تفهم اكبر والى تآلف اعظم في العلاقات الانسانية .

الفصل الرابع

متخاطر ضد دكتاتور :
وولف ميسنغ وجوزيف ستالين

اثناء حفلة عامة ، اقتحم شرطيان سوفياتيان في زيهما الرسمي خشبة المسرح ، واعلنا للمشاهدين (كان ذلك في غومل، من مدن روسيا البيضاء) : «اننا لآسفون ، الحفلة انتهت» . ثم أرغما نجم الحفلة ، المتخاطر وولف ميسنغ ، على ركوب سيارة صغيرة اقلعت حالا باتجاه مكان مجهول . في ذلك الزمن (١٩٤٠)، كانت التصفيات امرا دارجا ، وكان الناس كثيرا ما تمتقلهم الشرطة فيختفون من دون ان يتركوا اثرا ، ومن دون ان يعلم احد او يسأل لماذا وكيف .

سأل ميسنغ :

ـ ماذا سيحدث لفاتورة فندقي ولأمتعتي ؟

فجاءه الجواب بأنه لن تكون به حاجة الى حقائبه ، وبأن فاتورة اقامته في الفندق قد سددت .

يروي ميسنغ فيقول :

ـ وصلنا الى مكان ما كنت ادري اين هو . اقتادوني الى غرفة في ما بدا لي انه فندق . وبعد وقت قصير ، اقتادوني الى غرفة اخرى . ودخل رجل ذو شاربين .

لقد اضحى المتخاطر وولف ميسنغ في حضرة ستالين شخصيا !

لم يكن ستالين معنيا بمواهب ميسنغ الميتانفسية ، انما كان يرغب في الحصول على معلومات شخصية بخصوص الاصدقاء البولونيين الرفيعي المقام لهذا الاخير . اما مواهب المتخاطر النفسية فسوف يختبرها في وقت لاحق .

لم يكن وولف ميسنغ حساسا عاديا ، بل شخصية مشهورة في الباراسيكولوجيا . كان قد طاف بأرجاء العالم قاطبة ، واختبره مشاهير من أمثال اينشتاين وفرويد وغاندي ؛ وقد تعرف الى كثيرين من رجال السياسة في كل مكان . وكان في عداد اصدقائه الماريشال بلسودسكي (١) واعضاء كثيرون في الحكومة البولونية . وكان ميسنغ قد هرب يوم غزا النازيون بولونيا ، وبعد ان وضع هتلر جائزة لراسه مقدارها ٢٠٠٠٠٠ مارك .

يشكل ذلك اللقاء الاول بين ميسنغ وستالين نقطة انطلاق

---

١ ـ جوزيف بلسودسكي : ماريشال وسياسي بولوني ، كان له اسهام واسع في انشاء الدولة البولونية بعد الحرب العالمية الاولى باعتباره قائدا للجيش ورئيسا للدولة (١٨٦٧ ـ ١٩٣٥) . ـم ـ

لسلسلة تجارب مدهشة خرج منها المتخاطر مظفرا . وكـــان ستالين على علم بقدرات ميسنغ المفترضة التي تتمثل في اسقاط فكره تخاطريا على اذهان الآخرين ، وبالتالي في توجيه افكارهم او تشويشها .

امر الدكتاتور ميسنغ بأن ينفذ اختبارا مستحيلا في الظاهر. اذ طلب اليه ان يقترف بقوة فكره وحدها سرقـــة في مصرف ويحصل على ١٠٠٠٠٠ روبل من شباك صندوق غوسبنك فـي موسكو ، حيث ما كان احد يعرفه .

روى ميسنغ فيما بعد : «قدمت الى الصندوق ورقة بيضاء اخذتها من دفتري» . وفتح ميسنغ بعد ذلك حقيبته اليدويـة ووضعها على المنضدة . ثم امر امين الصندوق ذهنيا بأن يسلمه المبلغ الضخم .

نظر امين الصندوق في الورقة ، وفتح الصندوق ، وعــد للحال ١٠٠ ... روبل لميسنغ الذي كدس رزم الاوراق المالية في حقيبته ثم انصرف . ولحق بالموظفين اللذين كان قد سماهمـا ستالين ليراقبا التجربة . وبعد ان شهدا ان هذه التجربة تمت حسب الاصول المطلوبة ، قفل ميسنغ راجعا الى صنـــدوق المصرف . ولما بدأ يخرج الاوراق المالية ويضعها على المنضدة ، نظر اليه امين الصندوق ، ثم نظر في قطعة الورق البيضاء على مكتبه ، وانهار على الارض مصابا بنوبة قلبية . «من حســن الحظ ، لم تكن مميتة» ، كما قال ميسنغ .

اقترح ستالين عقب ذلك مهمة أعجب ايضا ، من وجهـــة نظره كدكتاتور . فقد اقتيد ميسنغ الى مبنى حكومي ، ولعلـه الكرملين . وهناك ، تلقت مختلف مفارز الحرس امرا بعـــدم السماح لميسنغ بأن يغادر الحجرة او المبنى . وبديهي ان المتخاطر ما كان مزودا بأي جواز مرور .

قال ميسنغ :

ـ نفذت ذلك الاختبار بلا صعوبة . لكن حين نفذت الى الشارع، لم استطع امساك نفسي عن التلفت الى الوراء وإرسال تحية بإشارة من يدي الى الموظف الحكومي الكبير الذي كان ينظر من نافذة الطابق الاخير الى الفرفة التي غادرتها لتوي .

كانت تسري شائعات شتى عن ستالين ، لكن لم يخطر في بال احد ان يقول انه يهتم بالبحث في مضمار الظاهرات فوق المادية . وقد تنوقلت قصة تينك التجربتين سرا عبر ارجاء روسيا والى ما وراء حدودها . وقد نشرها السوفياتيون انفسهم في مجلة هامة ، **العلم والدين** ، ضمن اطار سيرة حياة ميسنغ . ولا أدل على صحة تلك المعلومات من كونها تخطت حاجز الرقابة السياسية وخالفت السياسة الرسمية المادية النزعة لتلك المطبوعة . ويروي ميسنغ في ترجمة حياته انه التقى بستالين عدة مرات .

سرد علينا علماء سوفياتيون يعرفون المتخاطر الشهير تفاصيل اختبار آخر قسره عليه ستالين . فقد أوجب على ميسنغ ان يدخل بلا اذن ولا جواز مرور الى عزبة رئيس الدولة في كونتسيفو . وكان هذا الطلب يعدل اليوم ان تطلب من احدهم أن يحاول التسلل خفية الى أقبية « فورت نوكس »[٢] لسرقة ذهب الولايات المتحدة . كان عدد كبير من الحرس يطوقون دارة ستالين الريفية . وكان فريق من الحراس الشخصيين يتولى حماية الدكتاتور . اما القائمون على خدمة البيت فكانوا جميعا من رجال الشرطة المتنكرين . وبعد بضعة ايام ، وفيما كان ستالين يعمل في عزبته جالسا امام طاولة عريضة مكتظة بوثائق رسمية، دلف رجل صغير القامة ، اسود الشعر ، الى البيت من دون أن

---

٢ ـ امنع حصن في العالم ، يحتوي على ذهب الولايات المتحدة الاميركية . ـم ـ

يسترعي انتباها خاصا . فقد انحنى له حراس ستالين الشخصيون باحترام ، بينما بادر الخدم الى فتح الابواب امامه.

اجتاز الرجل صفا من الغرف ، وكلها مفروشة على نحو متماثل من اريكة وسجادة وطاولة . وتوقف امام الغرفة التي كان يجلس فيها ستالين . رفع الدكتاتور عينيه مذهولا . كان الرجل الذي ينظر اليه من نطاق الباب وولف ميسنغ .

كيف امكنه النجاح ؟

يشرح ميسنغ فيقول : «أوحيت ذهنيا للحراس وللخدم : انني بيريا ، انني بيريا» .

كان لوران بيريا ، رئيس الشرطة السرية السوفياتية ، من المترددين المالوفين على عزبة ستالين . وما كان ميسنغ ، بشعره الاجعد ، يشبهه من قريب او بعيد . ومع ذلك ، لم يكلف نفسه حتى عناء وضع نظارة انفية فولاذية شبيهة بتلك التي يضعها بيريا .

سرعان ما ذاع نبأ تجارب ستالين مع ميسنغ في اوساط الدوائر العليا للسياسة السوفياتية في موسكو . وقدّر بعضهم ان ميسنغ اصبح رجلا خطرا ، لكن ستالين كان بطبيعة الحال يحميه . وكانت النتيجة النهائية لتلك الاستبارات ان تلقى ميسنغ من اعلى السلطات اذنا بالقيام بجولات حرة عبر أرجاء الاتحاد السوفياتي قاطبة .

لقد كان وولف ميسنغ ، لا في نظر ستالين وحده ، بل في نظر عدد كبير من السوفياتيين ، نجما ، وجها أسطوريا ، معروفا على جميع مستويات المجتمع على مدى اكثر من ربع قرن من الزمن . واسمه مشهور حتى لدى كبار العلماء . وقد كتب الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء، الدكتور نيقولاي سيميونوف، نائب رئيس اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي ، في مجلة **العلم والدين** في ايلول ١٩٦٦ : «من الاهمية بمكان ان تدرس

دراسة علمية الظاهرات الميتانفسية التي تحدث لدى حساسين من اشباه وولف ميسنغ» .

لا غرو اذن ان تكون أسطورة قد نسجت خيوطها حول شخصية ذلك الرجل الذي اختبره ستالين . فوولف ميسنغ رجل مرموق بنى شهرته الباراسيكولوجية في أظلم سنوات العهد الستاليني . وفي زمن كانت تعلن فيه الحكومة السوفياتية على الملأ ان التخاطر لا وجود له وانه لا يوجد في الاتحاد السوفياتي اي متخاطر (كان المتخاطرون يسمون ب «المهرجين»)، كانت وزارة الثقافة تستخدم وولف ميسنغ ، وكان ذلك امرا مثيرا للعجب الشديد ، مثلما تستخدم اي مقدم عروض مسرحية . وفيما كان سائر المتخاطرين يخشون حتى ان يطرقوا الموضوع علنا ، وفي الوقت الذي كان يتوجب فيه على الشغيلة العلميين ان يتابعوا سرا ابحاثهم في مضمار إ.ف.ح ، كان ميسنغ يعقد اثناء ذلك جلسات علنية شبه يومية وينفذ فيها تجارب تخاطرية . وكان يطلق على المرض الذي يقدمه اسم «تجربة سيكولوجية» ؛ وقد قام بجولات في جميع مدن روسيا تقريبا . وفي أعتم سنوات حكم ستالين ، وفي الوقت الذي كان آخر ما يمكن ان يتصوره انسان هو ان يرغب الروس في مشاهدة امرىء قادر على قراءة افكارهم ، كان الناس يحتشدون في صفوف متراصة لمشاهدة عروض ميسنغ التخاطرية . بل راجت شائعة تزعم انه يملك القدرة على اجتراح معجزات !

من المؤكد ان حياة ميسنغ تنطوي على خوارق كثيرة . فحين فر من الارهاب النازي ، دخل روسيا خلسة مختبئا تحت حمل تبن في تشرين الثاني ١٩٣٩ . لم يكن سوى مهاجر الماني ، يهودي ومتخاطر . ولكن لم تمض سنوات ثلاث حتى كان ، بصفته مواطنا روسيا ، قد صار على قدر من الثراء اتاح له ان يشتري على حسابه الشخصي وان يهب الطيران السوفياتي طائرتين مطاردتين . وقد طاب للضباط الروس ان يقفوا ،

بقلنسواتهم الفروية، بجانب المواطن وولف امام عدسات الصحافة اثناء الاحتفال الخاص الذي قدم فيـــه الطائرتين الى سلاح الطيران ، وكانت كل طائرة قد كتب على جسمها باحرف كبيرة اسم و. ج. ميسنغ . ومن المؤكد ان القصة كانت ستثير ضجة لو حدثت في الغرب ؛ اما في الاتحاد السوفياتي فكانت ، بكل معنى الكلمة ، بمثابة معجزة .

لو لم يكن وولف ميسنغ ذا شخصية غير عادية ، لما كان بكل تأكيد نجا من الارهاب الستاليني .

في الاول من ايلول ١٩٣٩ غزت الجيوش الهتلرية بولونيـا وبات متعذرا على ميسنغ ان يبقى في مسقط راسه . وبالفعل ، كان ميسنغ قد تنبأ منذ عام ١٩٣٧ ، اثناء عرض علني على مسرح وارسو وبحضور اكثر من الف شخص ، بأن «هتلر سيلقى مصرعه اذا غامر بنفسه الى الشرق» .

يقول ميسنغ ان الفوهرر ابدى تأثرا شديدا بتلك النبوءة ، مثلما بكل نوع من انواع الصوفية . وقد سبق ان لاقى المتخاطر اريك هانوسن مصرعه على ايدي النازيين لانه كان مطلعا علـى الكثير من خططهم . وحين نقلت الى هتلر نبوءة ميسنغ ، وضع الدكتاتور جائزة ... ٢٠٠ مارك لراس المتخاطر .

يوم دخلت القوات الالمانية الى وارسو ، التجأ ميسنغ الـى غرفة الحجرة المبردة لجزار في المدينة. بيد انه اعتقل مساء اليوم عينه حين جازف بالنزول الى الشارع . وتفرس الضابط النازي الذي امر بايقافه في وجهه ، ثم اخرج من جيبه دفترا صغيرا يحتوي على صور الاشخاص المطلوبين من قبل الشرطة الالمانية . وفجأة امسك بميسنغ من شعره وصاح :

ـ من انت ؟

ـ انني فنان .

ـ انت وولف ميسنغ . وانت الذي تنبأت بموت فوهررنا !

وتراجع الالماني خطوة الى الوراء وهو لا يزال ممسكا بميسنغ من شعره ، وسدد ضربة عنيفة بقبضته الى حنكه .

قال ميسنغ فيما بعد :

ـ كانت لكمة من قبضة استاذ في التعذيب . وتدفق سيل من الدم من فمي ، وطارت مني عشر اسنان دفعة واحدة. واقتادوني الى مخفر شرطة ، وفهمت انني هالك لا محالة اذا لم اغادر بولونيا حالا .

وروى ميسنغ فيما بعد انه استجمع قدراته النفسية في مجهود يائس ، وامر ذهنيا جميع رجال الشرطة الذين كانوا موجودين في المبنى في تلك الساعة ان يجتمعوا في الفرفة التي هو فيها . وبدأ جميع العاملين المتواجدين في المخفر ، ابتداء من القائد الى الحارس الذي كان يتولى حراسة المخرج ، تساورهم حاجة ملحة للتوجه الى الفرفة التي عينها لهم ميسنغ . «حين اجتمع ، تلبية لأمري ، جميع النازيين في الفرفة التي كنت فيها، لبثت راقدا على الارض من دون ان أحرك ساكنا ، وكأنني ميت. وعلى حين بغتة قفزت ، وهرعت الى الممر . وهناك ، وقبل ان يفيق الالمان من مفاجأتهم ، اغلقت عليهم الباب بالمزلاج ثم هرعت الى الخارج» .

حالف ميسنغ التوفيق في اجتياز الحدود الروسية في مساء اليوم نفسه . غير ان اباه واخوته واسرته بكاملها لاقوا مصرعهم في غيتو وارسو . وفي بريست ـ ليتوفسك ، المدينة السوفياتية الحدودية ، كان يحتشد آلاف اللاجئين الهاربين من النازي . وكان الاتحاد السوفياتي بلدا يجهل عنه ميسنغ كل شيء : اذ ما كان يتكلم حتى الروسية .

قصد وزارة الثقافة التماسا للعمل . فقيل له : «لسنا بحاجة الى منجمين او الى مشعوذين في هذا البلد . ثم ان التخاطر لا وجود له !» .

عقد ميسنغ العزم على ان يرغم مخاطبيه على تغيير رأيهم .

وارجح الظن انه قام للحال بعرض ليثبت لهم قدراته وصدقه . ومهما يكن من امر ، فقد تعاقد وكيل وزارة الثقافة للحال مع المتخاطر البولوني الذي بدأ يشق طريقه الى المجد . وفي جولته الاولى ، جرى ارساله الى روسيا البيضاء .

كان ميسنغ نادرا ما يتعرض في عروضه للاسرار الشخصية او الشؤون السياسية . كان يطلب فقط من الاشخاص الحاضرين في القاعة ان يفكروا بمهمة ما يتمنون ان يشاهدوها وقد انجزت من قبله . وكان المتفرج يكتب تعليماته على ورقة ويسلمها في مغلف مختوم الى هيئة تحكيم يتولى الجمهور ذاته اختيار اعضائها .

اثناء عرض قريب العهد امام مجموعة من الاطباء ، طلب ميسنغ من متفرج متطوع : «فكّر فقط بما تريدني ان افعله» . وعلى الاثر ، ومن دون ان يلمس ميسنغ الطبيب الذي كان يركز افكاره ، نزل الى القاعة وشرع يسير بتؤدة في المشى الرئيسي ، وكأنه يوجه نفسه بنفسه بنوع من الرادار . وتوقف امام صف المقاعد ، ثم قصد مستقيما الرجل الجالس في المقعد رقم ٤ . انحنى ميسنغ ، واخذ من جيب الرجل مقصا واسفنجة ورفعهما فوق راسه حتى يراهما سائر المشاهدين . وقال : «أعتقد ان لا جدوى من تقطيع هذه الاسفنجة» . ثم تناول قطعة حكك ، ورسم معالم حيوان على الاسفنجة ، وقال للحضور : «انه كلب !» .

تحققت هيئة التحكيم من الرسالة بفتحها المغلف المسلم اليها من قبل الطبيب مقدما . فوجدت ان هذا الاخير طلب من ميسنغ ان يكتشف في القاعة واحدا من اصدقائه وان يقص صورة كلب من قطعة اسفنج يحتفظ بها ذلك الصديق في جيبه ! وقد تبلغ ميسنغ الرسالة ، لكنه آثر ان يحافظ على اسفنجة الدكتور .

يشرح ميسنغ ، البالغ اليوم من العمر سبعين عاما ، فيقول :

«تصلني افكار الناس كالصور . وانا التقط عادة مشاهد بصرية لهذه الحادثة او ذلك المكان» . ويحرص المتخاطر على التنويه باستمرار بأن المقدرة على قراءة الافكار لا تنطوي على اي شيء غامض او خارق للطبيعة . ويلح على ان التخاطر يعني بالنسبة اليه ضبط القوانين الطبيعية واستخدامها . «ابدا ، اول ما ابدا ، بوضع نفسي في حالة استرخاء تجعلني احس بقابلية للتلقي ممزوجة بشعور بالقوة . وعندئذ يأتي التخاطر بسهولة . ولا يعود عليّ سوى ان اتلقى اية فكرة كانت . واذا لمست جسم الوصيل المرسل ، ساعدني ذلك على تمييز فكرة من الضجيج العام . لكن التماس الجسماني ليس بالنسبة الي ضرورة . وحين تكون عيناي معصوبتين، تصبح النشاطات التخاطرية اكثر سهولة علي. فاذا لم أر الوصيل المرسل ، استطعت تركيز كل انتباهي على التقاط فكره» .

يروي ميسنغ في ترجمة حياته التي تحمل عنوان **العلم والدين** انه في عام ١٩٥٠ جرت محاولة تفسير قدراته بنظرية الافكار المحركة . ففي ذلك الزمن ، وجهت الدعوة الى قسم الفلسفة في اكاديمية العلوم السوفياتية الى تفسير قدراتميسنغ تفسيرا ينسجم والمذهب المادي للنظام القائم . وكان ذلك في زمن عصيب كانت فيه الدكتاتورية تجثم بكل ثقلها على حياة الروس وفكرهم . كانت الحكومة السوفياتية تريد تفسير مواهب ميسنغ على طريقتها ، وبناء عليه «خرجت» **الاكاديمية** بنظرية الافكار المحركة .

يقول ميسنغ : «انه لمن دواعي الاسف الشديد ان تكون فحوى تلك النظرية قد طبعت على البرامج التي توزع قبل جلساتي . وهذا من نتائج عبادة الشخصية التي ارستها الستالينية» .

ان إقدام ميسنغ على نشر **العلم والدين** ، وهو مؤلف يدحض فيه تلك النظرية ، يدل على ان الزمن قد تبدل . فالافكار المحركة

لا تستطيع ان تفسر الافعال الباهرة التي قام بها ميسنغ برسم ستالين ، كما لا تستطيع ان تفسر ادراكاته الميتاعادية حين يكون الوصيل المرسل موجودا في مكان تفصله عدة مبان عن المكان الذي يوجد فيه المتخاطر . ويضيف ميسنغ قوله : «لا تفسر نظرية الافكار المحركة كذلك كيف يمكنني ان اتلقى افكارا مجردة . وانني لأجد الافكار المعقدة والطريفة اكثر قابلية لفك لغزها ، وأرجح الظن لانها اكثر إثارة للاهتمام» .

تتعلق درجة الوضوح التي يصل بها فكر الغير اليه ببراعة المرسل في تركيز افكاره . هذا ما يؤكده ميسنغ . فاذا كان ذهن الوصيل يعج بأفكار متناقضة كثيرة ، فلن يحس المتخاطر الا برؤية مشوشة لتلك الافكار ، تماما كما كانت الصور الفوتوغرافية التقليدية تتشوش اذا ما تحرك احدهم اثناء اللقطة . يقول ميسنغ : «انه لمما يثير الفضول ان تكون الافكار الصادرة عن الصم ـ البكم هي الاسهل قابلية للالتقاط ، ربما لأن هؤلاء الناس يفكرون صوريا اكثر مما يفعل سائر الافراد» .

زار صحافي ذات يوم ميسنغ في غرفته في فندق نوريلسك اثناء واحدة من جولاته ؛ فرأى عددا كبيرا من الهدايا المقدمة الى المتخاطر من معجبيه العديدين ، واعجب بوجه خاص بجلد دب ابيض كبير ، مفروش على السرير ، أهداه اياه قوم من المحيط المتجمد الشمالي يقطنون منطقة ايفاركا .

سأل الصحافي ميسنغ ان يجري امامه بصفة شخصية عرضا لقدراته . فطلب اليه المتخاطر ان يعصب له عينيه . وبعدئذ ركز الصحافي افكاره وأوحى ذهنيا لميسنغ بأن يكتشف المكان الذي وضعت فيه نسخة من مجلة **اوجونيوك** وبأن يفتحها على الصفحة التي توجد فيها صورة للينين . وامره ، فضلا عن ذلك ، بأن يحدد هل الصورة نسخة عن رسم للينين ام صورة فوتوغرافية لممثل يؤدي دوره. وحمل ميسنغ، وهو لا يزال معصوب العينين،

المجلة الى الصحافي مفتوحة على الصفحة المطلوبة ، واوضح قائلا : «انها صورة أصلية» .

اقر الصحافي فيما بعد : «نجح ميسنغ تمام النجاح . وقد كان بوسعه ايضا ان يميز الوان صفحات المجلة ، من دون ان ينظر اليها ، في الوقت الذي كنت أحدق فيها النظر انا نفسي بكل انتباه» . لكن يبدو ان المجرب سها من شدة تأثره عن التحقق مما اذا كان ميسنغ لا يستطيع ان يرى من تحت المصابة . وعلى كل حال ، لن يفسر ذلك كيف امكن للمتخاطر ان يلتقط الامر الذهني الصادر اليه .

ان وولف ميسنغ معروف من الداني والقاصي في الاتحاد السوفياتي . وهم يتحدثون عن ملكاته النفسية بمثل اليسر الذي يتحدثون به عن اداء عازف البيانو اويستراخ او رقص بافلوفا .

غالبا ما يسأل الناس ميسنغ عن طريقته لقراءة افكار الآخرين . فيأتي جوابه : «لكأنكم تسألونني ان أحاول تفسير الرؤية في بلد عميان . ان في مقدورنا تسجيل ذبذبات دماغنا على جهاز التخطيط الكهربائي للمخ لكننا لا نملك اي اداة ــ عدا دماغ الانسان ــ تستطيع تسجيل افكاركم ذاتها . لعل النشاطات التخاطرية تتعلق بالحقول الكهرطيسية ، او بحقل ما آخر نجهل بعد وجوده . ويرى الدكتور نيقولاي كوزيريف ، العالم الشهير في الفيزياء الفلكية ، ان التخاطر يمكن ان يربط بحقل الجاذبية» .

«ان على العلم ان يحرر التخاطر من جو الصوفية وان يكتشف كيفية عمله . والحق انه يعمل ! منذ بضعة عقود ، لم نكن نعرف شيئا عن الذبذبات الاشعاعية . فلمَ لا يقودنا التخاطر الى اكتشاف جديد من ذلك النوع ؟ لقد ادهشني على الدوام ان العلماء لا يفهمون ، او لا يريدون ان يفهموا ان التخاطر يتدخل في كل لحظة من لحظات حياتهم بالذات . أفلا يشابه مسلكهم مسلك اولئك العلماء من العصر الوسيط الذين كانت ترتعد فرائصهم خوفا من الابتعاد عن المذهب الارسطوطاليسي ، فكانوا يأبون

التسليم بوجود الكهرباء ، مع انهم كانوا يعاينون ومضاتها في كل لحظة ؟» .

بدات اولى تظاهرات ملكات ميسنغ الميتانفسية منذ عهد طفولته . يقول : «ولدت في ١٠ ايلول ١٨٩٩ ، فوق تراب الامبراطورية الروسية في قرية صغيرة اسمها غورا كالواريا ، قرب وارسو» .

كانت أسرة ميسنغ مدقعة الفقر ، ومشتطة في تدينها ، وقد حفظ وولف «التلمود» عن ظهر قلب وهو في السادسة من العمر بفضل ذاكرته ـ المعجزة . وقد قرر الحاخام ان على الولد ان يذهب الى مدرسة دينية كي يصير حاخاما بدوره . واغتبط والدا ميسنغ للفرصة التي أتيحت لابنهما ، لكن وولف رفض ذلك رفضا قاطعا .

يتذكر ميسنغ فيقول : «يومئذ حدثت أولى عجيبة في حياتي . فقد ارسلني والدي لاشتري علبة سجاير ، وكان الليل قد ارخى سدوله لدى عودتي . كان مدخل كوخنا الخشبي غارقا في الظلام . وفجأة ظهر على درجات السلم شخص مارد ، يقدح شررا ، يرتدي ثوبا ابيض ، وقال صوت : «يا بني ، انني رسول من السماء بعثت كي اتنبأ بمستقبلك ! اذهب الى المدرسة ! صلواتك مقبولة في السماء !» . وعلى اثر هذه الكلمات ، اختفى الشبح .

«كنت آنئذ غلاما عصبي المزاج ، سريع التاثر والانفعال ، صوفي الطبع ؛ وقد كان لتلك الكلمات وقع الصاعقة عليّ ؛ فسقطت على الارض مغمى عليّ . حين ثبت الى رشدي ، كان ابي وامي يتلوان الصلوات علي . ولما تمالكت نفسي ، رويت لهما ما حدث لي . وبعد معجزة كتلك ، لم يعد في مقدوري ان أقاوم وذهبت الى المدرسة الدينية في القرية المجاورة» .

بيد ان الصبي لم يكن سعيدا في حياته النسكية . فحين بلغ

الحادية عشرة من العمر ، عقد العزم على الطواف في الدنيا ، وقفز الى اول قطار مسافر وليس في جيبه الا فلوس قليلة . اختبأ ميسنغ تحت مقعد في عربة نصف فارغة ، وغط في رقاد عميق . «بديهي انه لم يكن معي تذكرة ، وجاء المفتش ونادى عليّ : «ايه ، ايها الغلام (ما زال صوته في اذنيّ الى اليوم) ، ارني تذكرتك !» .

«بيد راجفة مددت الى المفتش قطعة ورق قصصتها من جريدة قديمة . تلاقت انظارنا . وعندئذ طفقت اتضرع في نفسي بكل قوتي ان يحسب الرجل قطعة الورق تذكرة ركوب .

«اخذ المفتش الورقة ، وقلبها بين اصابعه . في اثناء ذلك ، كنت اركز فكري اقصى ما يمكنني التركيز . وفي النهاية ادخل التذكرة بين فكي ثقابته ، ثم ارجع قطعة الورق الي وسالني : «ما دمت تحمل تذكرة ، فلماذا تختبىء تحت المقعد ؟ هيا ، قف على قدميك ! في غضون ساعتين سنصل برلين» .

«كانت تلك هي المرة الاولى التي تتجلى فيها قدرتي على الايحاء الذهني» .

وصل وولف ميسنغ الى برلين ووجد له عملا أشبه ما يكون بالمتالة في الحي اليهودي . وذات يوم ، فيما كان في طريقه الى تسليم رزمة في ضاحية برلين ، سقط ضعفا وخورا وهو يجتاز جسرا . كان وحيدا ، لا اصدقاء له ، بعيدا عن مسقط راسه . وحمل الى المستشفى . كان جسمه باردا ، ولم يكن يحس له نبض او تنفس ، فوضع في المشرحة . ولا ريب في انه كان سيدفن في مقبرة عامة لولا ان الحظ قيض له طالبا في الطب لاحظ اثناء فحصه للغلام ان قلبه لا تزال به حركة واهنة وقدم العلاج الضروري لميسنغ ، وفي غضون ثلاثة ايام عاد النبض وخفقان القلب رويدا رويدا الى حالتهما الطبيعية . وذكر الدكتور آبيل ، وهو طبيب نفس واعصاب في المستشفى ، ان حالة

ميسنغ هي واحدة من اندر حالات الليتارجيا (٣) .

كتب ميسنغ في ترجمة حياته : «ادين للدكتور آبيل لا بحياتي فحسب ، بل كذلك باكتشاف ملكاتي الميتانفسية وتطويرها » .

قال له آبيل :

ـ انت تملك ، علاوة على قدراتك الميتانفسية ، القدرة على السقوط بملء ارادتك في حالة التخشب» (٤) .

والتخشب حالة غير طبيعية ، يغلق فيها التنفس وخفقان القلب والتظاهرات المنظورة للحياة . ويقدم المتمرسون على اليوغا عروضا مدهشة في التخشب احيانا .

منح الدكتور آبيل الفتى ميسنغ ثقة في قدراته الميتانفسية. وبالتعاون مع الدكتور شميت ، زميله في الطب النفسي ، وزوجة هذا الاخير ، قرر آبيل ان يدرب ميسنغ على التخاطر .

كانت تلك الفترة منعطفا في حياة الفتى . وقد وجد له آبيل مديرا فنيا (٥) ، هو السيد تسلمايستر الذي دبر له وظيفة في متحف الشمع ببرلين . كان «الفتى المعجزة وولف ميسنغ» يستلقي في نعش من البلور ، ويضع نفسه في حالة تخشب . ولمدة ثلاثة ايام من كل اسبوع ، من الجمعة الى مساء الاحد ، كان الفتى يرقد في التابوت بلا حراك كالجثة .

يقول ميسنغ : «امضيت بالاجمال ثلاثة شهور من حياتي في نعش مذهب ، وكنت أتقاضى عن هذا العمل ٥ ماركات في اليوم » .

في سائر ايام الاسبوع ، كان ينمي ملكاته فوق المادية

---

٣ ـ الليتارجيا : سبات عميق غير طبيعي . ـم ـ

٤ ـ او الجمدة Catalepsie . ـم ـ

5 — Imprésario .

ويطورها . كان يتسكع في ساحة سوق المدينة ، ويتدرب على سماع افكار الفلاحين الالمان المتعلقة بوجه عام ببيوتهم او عائلاتهم او زيجاتهم او أسعار محاصيلهم . وفيما كان يتنصت لما يجول في رؤوس الآخرين ، كان كثيرا ما يسمع في الوقت نفسه اجوبة على المشكلات المطروحة ، ويقول للناس : «لا تشغلوا بالكم بصدد كذا وكيت ، فكل شيء سيسير على ما يرام» . ثم كان يتكهن لهم بما سيحدث .

كان الناس يعودون اليه فيما بعد مذهولين ليخبروه بأن نبوءاته قد تحققت . ودرس ميسنغ ومرس ملكاته التخاطرية لعامين من الزمن. واقتطع من اجره الزهيد ما يسدد به اتعاب الاساتذة الذين درّسوه ، وكان هو نفسه يطالع بنهم .

وقاده دوره التالي الى «حديقة الشتاء» المشهورة في برلين ، وهي مكان للتسلية لعب فيه تلك المرة دور فقير هندي . كان قادرا ، متى شاء ، على تخدير مختلف اجزاء جسمه ، وما كان يشعر بأي الم حين كانت تفرز في صدره إبر غليظة . ثم كان ينقلب الى مخبر سري عجائبي ، فيكشف عن وجود مجوهرات واشياء ثمينة اخرى يحملها المشاهدون معهم مخفية .

في عام ١٩١٥ ، وفي ضرام الحرب ، نظم المدير الفني جلسة لميسنغ في فيينا . وكانت تلك الجلسة آية الموسم . كان وولف آنئذ في السادسة عشرة من العمر ، وما جرى له في فيينا وتجليته الباهرة فيها يستأهلان ان يسردا .

دعا البرت اينشتاين شخصيا الفتى وولف الى زيارته في شقته . ولا يزال ميسنغ يتكلم بدهشة الى اليوم عن العدد الهائل من الكتب التي رآها في تلك الشقة . وفي مكتب اينشتاين ، التقى وولف أبا التحليل النفسي سيغموند فرويد (الذي كان قد لاحظ ذات يوم انه لو قيض له ، هو فرويد ، ان يحيا حياته مرة ثانية ، لحبذ ان ينذر نفسه للبحث الباراسيكولوجي) . وقد

اثارت مواهب ميسنغ فوق المادية عجب فرويد الشديد ، فقرر ان يجري بنفسه للفتى عددا من الاختبارات . وقد قام فرويد ذاته بدور المرسل .

يروي ميسنغ :

«لا ازال اذكر الى اليوم الامر الذهني الذي اصدره الـــي فرويد : «اذهب وابحث في خزانة الحمام عن ملقط الشعر . ثم ارجع الى البرت اينشتاين وانزع ثلاث شمرات من شاربـــه الكث ! » .

بعد ان عثر ميسنغ على الملقط ، اتجه مستقيما نحو عالِـــم الرياضيات المشهور ، وشرح له ــ معتذرا ــ ما يريد فرويد ان يفعله به . فابتسم اينشتاين ومد خده للفتى .

في السنوات العشر التالية طاف ميسنغ بأرجاء العالم فـي سلسلة من الجولات : في اليابـــان ، البرازيل ، الهنـــد ، الارجنتين ، آسيا ، ووصولا الى اوستراليا . وفي اوروبا زار جميع العواصم الكبرى : باريس ، لندن ، روما ، استوكهولم ، جنيف ووارسو .

في ١٩٢٧ قصد ميسنغ الهند حيث التقى غاندي . وتناقشا في السياسة. ثم اجرى غاندي على ميسنغ اختبارا نفسيـــا باصداره اليه امرا . فقد اوحى ذهنيا للمتخاطر بطلب بسيط : «خذ نايا من الطاولة وسلمه الى واحد من الاشخاص الموجودين في الغرفة» . وهكذا فعل ميسنغ . فرفع الرجل الناي الـــى شفتيه وبدأ ينفخ فيه . وفجأة بدأت تتحرك سلة موضوعة على ارض الغرفة ، وبرز منها ثعبان عظيم من نوع الكوبـــرا وشرع يتمايل على ايقاع الموسيقى !

اتيحت الفرصة لميسنغ اثناء وجوده فـي الهند لمراقبـــة التجليات الباهرة لمارسي اليوغـــا الهندوسيين . ويـــروي : «يستطيع اليوغي ان يضع نفسه في حالة جمدة تدوم اسابيع ، بينما لا استطيع انا ان ابقى في هذه الحالة اكثر من ثلاثة ايام» .

طوال عشرة اعوام عمل ميسنغ في بولونيا حيث سجل نجاحات باهرة كمستبصر ومتخاطر وقارىء افكار . وعلاوة على جلساته التخاطرية العلنية ، كان ياتيه الناس لاستشارته في شؤون شتى او بوليسية . ومن قبيل ذلك ان الكونت تزارتورسكي ، وهو من اسرة بولونية عريقة لعبت دورا سياسيا هاما في تاريخ البلاد ، عرض على ميسنغ مبلغا ضخما مقداره ٢٥٠ ... زلوتي ليعثر على مجوهرات الاسرة التي كانت قد فقدت . وكان رجال الشرطة والتحريون الخاصون قد قاموا بالبحث عنها طوال شهور بلا جدوى .

نقلت طائرة الكونت الخاصة ميسنغ الى قصر آل تزارتورسكي. ولم يطل الامر بالمتخاطر ليشتبه في صبي صغير ، ابن واحد من الخدم . وفيما كان ميسنغ يتفحص دمى الطفل في غرفته ، طلب من مضيفه ان يبقر بطن دب كبير من القطيفة . وهكذا كان : فأخرج من جوف الحيوان اغراضا شتى ، قطعا من الزجاج الملون، قناني ، زينة لشجرة الميلاد ، ملاعق صغيرة ، واخيرا مجوهرات آل تزارتورسكي الضائعة التي كانت قيمتها تبلغ ... ٨٠٠ زلوتي ! وكان الصبي ، الذي ينجذب على ما يبدو الى كل شيء يلمع ، هو الذي اخذ المجوهرات ودسها مع اشياء براقة اخرى في جوف دبه .

كان ميسنغ يتردد ايضا على العلماء الروحانيين : «كنت انتسب الى جمعية صوفية ، مع انني انا نفسي ملحد ، بالطبع . وفي ذلك الزمن ، كان العلم الروحاني رائج الشعبية في كل مكان . وكان اتباع هذا المذهب يعتقدون ان ارواحا متشككة تصدر تيارا معاكسا يحول دون الاتصال مع ارواح الموتى» .

واثناء الجلسات الروحانية التي كان يحضرها ميسنغ ، كان التبليغ يصل بواسطة ضربات وطرقات على قدم طاولة دوّارة . وكان بعض الوسطاء الذين يتردد عليهم يستحضرون الارواح ،

وكانت هذه الارواح تكتب بالحكك على لوح اسود . كما كان وسطاء آخرون يستقدمون أشباحا تعزف على القيثارة .

كتب ميسنغ : «حين كان الوسيط البولوني الشهير يان غوسيك يحضر الجلسات ، كنا نستحضر روح نابليون او الاسكندر الاكبر !» . وهو يقر بأن العلماء الروحانيين ساعدوه على شحذ قدراته الميتانفسية . بيد ان ميسنغ يستشهد اليوم بفريدريش انجلز الذي كتب يقول : «يشكل العلم الروحاني الخرافة الاكثر وحشية بين المعتقدات الباطلة كافة» . ويضيف ميسنغ من جانبه : «انني مقتنع ، من جهتي ، بأن المذهب الروحاني شعوذة صرف » .

يخامر ميسنغ ، بسبب ما اصطدم به من مصاعب شخصية وصراعاته ضد القدر ، شعور بالتعاطف الفعال مع التعساء من الناس والمبتلين بالمصائب منهم . يقول : «انني لعلى استعداد دائم لاستخدام قدراتي لمساعدة الناس عندما يعضهم الدهر بنابه» . ويقول ان مقدرته على بث أفكار في ذهن الغير يمكن ان تستخدم كحافز لرفع معنويات الاشخاص الذين يعانون من شعور خطر باليأس . «كثيرا ما يحدث لي ، بفضل قوة ايحائي الذهني، ان ابث من جديد الشجاعة والعزم والثقة في نفوس اشخاص على وشك الانتحار» .

يكرس ميسنغ وقته الحر ايضا ، في حله وترحاله ، لكي يختبر متخاطرين آخرين ويفضح المحتالين منهم . في وارسو شاهد ميسنغ ، ذات يوم ، فقيرا هنديا يحاول ان يضع نفسه في حالة التخشب التي اعتاد ميسنغ ان يمارسها بنفسه . يروي فيقول : «كان الرجل ممددا ، جامدا كالخشبة ، بين كرسيين ، بينما كان الاطباء يبحثون عن ضربات القلب . لكن لم يعثروا لها على اثر . كان الفقير يبدو فعلا في حالة تخشب ، لكنني كنت أعلم ان ذلك غير صحيح . سألت دكتوري ان يفحص الفقير . فاكتشف

عندئذ ان الرجل يضع على صدره مشداً من الفولاذ ، وبذلك كان يستطيع ان يتحمل ثقل شخص آخر جالس عليه . وسمعنا صوت كرتين من الفولاذ تسقطان على الارض ، وكان المحتال قد اخفاهما تحت ابطيه ليوقف دوران الدم ويمنع النبض عن معصميه » .

ويتشكى ميسنغ قائلا : «حين يصادف اهل العلم مشعوذين من تلك الشاكلة ، يستنتجون ان جميع المتخاطرين والحساسين محتالون» . وفي الواقع ، يلاحق ميسنغ المحتالين بغضب فنان يذود عن عروس إلهامه بالتجرد البارد للباحث العلمي .

يبدي باراسيكولوجيو الاتحاد السوفياتي رغبة في التبحر في دراسة شخصية ميسنغ الكبير ، وقد اعرب العديد من العلماء عن رغبتهم في المشاركة في تجاربه كأعضاء في هيئة التحكيم او وصلاء مرسلين . وقد عولوا على نظريات بافلوف ليحاولوا تفسير ما راوه . ويعتقد الباحثون المعاصرون في مضمار بسي ان الاكتشافات الجديدة التي تمت حول قدرات كارل نيقولائيف فوق المادية يمكن ان تفسر جزئيا مواهب ميسنغ .

لم يتسن الوقت قط لميسنغ للذهاب الى مختبر علمي . «انه يعد على الدوام بأن يزورنا في المختبر حالما تتاح له الفرصة ، لكننا لا نزال بانتظاره !» . ان العلماء الذين التقيناهم في الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا يعرفون ميسنغ شخصيا ، ويثمنون قدراته تثمينا عاليا . «من المؤكد انه يملك قدرات باراسيكولوجية . ربما ليس في كل مرة ، ولا على الدوام ، ولا في جميع جلساته، لكنه قدم الادلة الكافية على ملكاته خلال السنين المنصرمة» . ولقد كان بود الاساتذة او يخضع ميسنغ لاختبارهم ، لكن «ميسنغ تجاوز الان السبعين من العمر ، وصحته ليست جيدة ، وهو يستهلك طاقة هائلة في جولاته . ثم انه فنان ، ومزاجه انفعالي جدا» . وهذا كثير الحدوث في الباراسيكولوجيا . فالشخصيات التي تدب في عروقها حيوية بالفة والتي تتميز

بالقوة وتصدر عنها طاقة ميتافنسية هي بوجه التدقيق من ذلك النوع الذي لا يخضع بسهولة للطرائق المخبرية المنطقية الباردة .

هل وولف ميسنغ صادق ؟ يجيب العلماء الذين طرحنا عليهم السؤال والمتخصصون في ابحاث بسي بالايجاب ، او هكذا تشير الدلائل على الاقل . لقد درست لودميلا سفنكا ـ زيلنسكي ، الصحافية التي تحرر في مجلة **اطلس** ، وهي مجلة اعلامية للمراسلين الاجانب ، درست سيرة ميسنغ الذاتية ، والاختبارات التي يقول انه نفذها بناء على طلب ستالين ، وتجلياته على خشبات المسارح ، وعروضه امام مشاهير العالم ، والتفاصيل السيكولوجية لحياته الشخصية كمتخاطر . وخلصت الى الاستنتاج : «لا يجوز ان ننسى ان كل ما فعله او كتبه شخص موضع اخذ ورد كميسنغ لا بد ان يكون ، في الشروط الاجتماعية والسياسية السائدة في الاتحاد السوفياتي ، قد اخضع للتحليل والنقد والتقييم ولرقابة دائمة ، بحيث يغدو كل احتيال او محاولة احتيال او تبجح غير قائم عليه البرهان امرا مستحيلا . وفي الواقع ، يمكننا ان نكون على ثقة بان ميسنغ يتمتع لا محالة بقدرات حقيقية ثابتة ، وإلا لما بقي على قيد الحياة وتمتع بمثل المستوى الذي يتمتع به من الحياة في مثل المناخ السائد» .

يملك ميسنغ عطية لم يرد لها ذكر في ترجمة حياته . فقد مارس التنبؤ لفترة طويلة من الزمن ، وان يكن ذلك ظل مجهولا من قبل العديدين من معجبيه في الاتحاد السوفياتي ، وهو بلد ما كان يجوز فيه الى عهد قريب الكلام عن عطية التنبؤ . لكن على الرغم من الحظر المفروض على التنبؤات ، احدثت تنبؤات ميسنغ احيانا هزات عنيفة في الدوائر العليا في الاتحاد السوفياتي . ففي عام ١٩٤٠ ، كانت العلاقات الجرمانية ـ السوفياتية ممتازة. وكان ستالين قد وقع ، في العام السابق ، مع هتلر معاهدة عدم اعتداء . ومع ذلك، القى ميسنغ خطابا في ناد خاص في موسكو، وتنبأ قائلا : «ستهدر الدبابات السوفياتية ذات يوم في شوارع

برلين ! » .

كان لتصريح ميسنغ وقع القنبلة في اوساط القادة الشيوعيين . ومن سوء الحظ ، ان هذا المظهر من قدرات ميسنغ لم يحظ باهتمام ستالين (ومع ذلك ، ابى ستالين بعد تصرم سنة واحدة ان يصدق ان الغزو الهتلري للبلاد قد بدأ . وقد ظل يرفض التصديق على الرغم من انقضاء ليلة على دخول الدبابات النازية الى روسيا !) .

لكن لئن ضرب ستالين صفحا عن نبوءة ميسنغ ، فلم يكن كذلك شأن الالمان . فقد اصدرت سفارة المانيا للحال احتجاجا . ناهيك عن ذلك ، كان هتلر لا يزال يضمر الضغينة لميسنغ لانه سبق له ان افصح عن تكهنات بصدد موته . وقد وجد السلك الدبلوماسي السوفياتي نفسه في وضع محرج وغامض . وفي النهاية ، اصدرت الحكومة السوفياتية بلاغا : «لا يمكن ان نكون مسؤولين عن تنبؤات وولف ميسنغ» .

اعاد المتخاطر الكرة في عام ١٩٤٣ ، فادلى بنبوءة علنية . كان ذلك في الوقت الذي ترزح فيه روسيا البيضاء واوكرانيا والبلطيق والقرم تحت جزمة النازيين . وما كان في مستطاع احد بعد ان يستشف نهاية الحرب . وكان ميسنغ نفسه قد أجلي ، لدواعي امنه ، الى سيبيريا . وفي نوفوسيبيرسك ، المدينة السيبيرية العلمية المشهورة ، تكلم ميسنغ في ذلك العام امام جمهور غص به مسرح المدينة . تنبأ بان الحرب ستنتهي في ايار ١٩٤٥ ، وفي اغلب الظن في الاسبوع الاول من الشهر .

يقول ميسنغ بلهجة تطمينية : «قد تبدو مقدرتي على الرؤية في المستقبل مناقضة للتصور المادي للعالم ، بيد ان سبق العلم لا ينطوي على شيء لا يدرك او خارق للطبيعة . فالى جانب المنهج العلمي والمنطقي لتحصيل المعرفة ، توجد ايضا معرفة مباشرة هي سبق العلم . وانما فقط لاننا لا نملك سوى افكار مبهمة حول معنى الزمان وعلاقات الزمان والمكان وصلات الماضي والحاضر

والمستقبل ، تبدو لنا تلك المعرفة في الوقت الحاضر غير قابلة للتفسير» . لقد نبذت الحكومات الشيوعية على الدوام سبق العلم الذي يربط الكثير من الناس اجباريا بينه وبين قدر انساني مسبق التعيين ؛ ولا يجوز ان ننسى ان تلك الحكومات عينها تكافح منذ امد بعيد لاخراج الفلاحين الروس من مناخ الخرافة والتطير والتواكل القدري الذي يسدر فيه اهل تلك البلاد .

يردف ميسنغ فيقول : «طبيعي ان حرية الاختيار موجودة. لكن توجد ايضا محاور كبرى . والمستقبل يتألف من متعاقبات من الماضي والحاضر . وثمة شبكات ارتباط نظامية بينها. واوالية هذا الارتباط لا تزال طي الغيب بالنسبة الى الكثيرين من الناس، لكني أعلم علم اليقين من جهتي انها موجودة» .

كيف يتبدى المستقبل لميسنغ ؟ «بمجهود ارادي أعاين فجاة النتيجة النهائية لحدث ما تومض امام ناظري . فأوالية المعرفة المباشرة تختصر دارة العلة المنطقية والمعلول المتوالد منها ، وتكشف مباشرة للرائي المرحلة الاخيرة والنهائية من السلسلة المتحكمة بحدث من الاحداث» .

لعل الرقباء السوفياتيين غير راضين كل الرضى عن التفسير العادي الذي يعطيه ميسنغ لسبق العلم . فبعد الاعلان للجمهور عن ان السيرة الذاتية الكاملة لميسنغ ستصدر في عام ١٩٦٧ ، منع الكتاب فجأة من الصدور ، وان كان يجري تداوله ـ من الجائز ـ في شكل مخطوط . ومن المحتمل ان التنبؤ وافشاء سر عجائب كثيرة لم يحظيا برضى بعض اصحاب المقامات . ولعل ميسنغ يروي في سيرته الذاتية عددا كبيرا من القصص التي فيها لشخصيات حزبية نافذة ضلع (يتساءل بعضهم عما اذا لم يكن ستالين قد استخدم مواهب ميسنغ لاغراض ذات طابع عملي وسياسي) . ام ان منع صدور الكتاب هو مجرد مظهر من مظاهر الحركة التناوبية المتوازنة الاثيرة لدى السياسة السوفياتية والمتمثلة في اطلاق قدر من الحرية والاسراع بعد ذلك الى تعليقها؟

الفصل الخامس

السياسة والباراسيكولوجيا

تقدم قصة الوسيطة السيكوكينيزية نليا ميخائيلوفا مثالا باهرا على التدخل المتواصل والضغط الخفي الذي تمارسه السياسة على الباراسيكولوجيا والعلم في الاتحاد السوفياتي . ففي اول ايام المؤتمر ، كان من المفروض ان نحضر عرض افلام علمية عن نليا في «بيت السلم والصداقة» الواقع في حي جديد من أحياء موسكو .

في قاعة المؤتمر كان حاضرا زهاء مئة سوفياتي ، وكان بعضهم قد وصل لتوه من تخوم روسيا وسيبيريا النائية . وقد لاحظنا ايضا مثول وفد رسمي كبير التعداد من بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا .

كان الغرب يتمثل بمندوبين بريطانيين ، وبنا نحن الاثنتين ، وبخمسة ممثلين آخرين للعالم «الحر» . وكان رجل العلم الوحيد الحاضر هو الدكتور ج.غ. برات من جامعة فيرجينيا .

استقبل المدعوين الدكتور فاسيلي ايفيموف ، عالم البيولوجيا البالغ من العمر ثمانين سنة . تحدث بطلاقة وبلا ملاحظات مدونة ، وكال الثناء لصديقه القديم الدكتور فاسيلييف الذي كان من رواد ابحاث إ.ف.ح في روسيا على الرغم من العقبات والصعاب التي صادفها اثناء الحرب ، ثم في ظل العهد الستاليني . ومنذ وفاة فاسيلييف في عام ١٩٦٦ ، لا يزال تلامذته يواصلون عمله في مختبرين لابحاث إ.ف.ح اسسهما في لينينغراد . واضاف الدكتور ايفيموف قوله : «يجري تلامذته الان ابحاثا في مضمار السيكوكينيزيا والتخاطر وعصا كشف الينابيع والتصوير الفوتوغرافي الذهني» . واعاد الى الاذهان الاكتشاف الحديث العهد لإشعاع يصدر عن الجسم البشري ، وهو الاكتشاف القمين بأن يفضي الى تفهم افضل لظاهرات **بسي** . ثم عبر عن رجائه بأن يجري استخدام القدرات الميتاعادية التي ينطوي عليها العقل البشري في سبيل الصالح العام للانسانية .

ما كاد المندوبون الغربيون يبدؤون بالقاء كلماتهم ، حتى لاحظنا أن نسخا من صحيفة **البرافدا** تتناقل من يد الى يد على مدار قاعة المؤتمر . وبدا لنا ان الاهتمام المتأجج الذي يدلل عليه السوفياتيون عادة حيال المعلومات عن العالم الغربي يمحي ويتلاشى ازاء ما كانوا يقرؤونه في الصحيفة . وظهر الكدر على وجوه السوفياتيين حالما اطلعوا على ذلك العدد من **البرافدا** . وهمست في آذاننا احدى المترجمات وهي تلقي نظرة خاطفة على الصحيفة التي كان يطالعها جارها: «الامر يتعلق بنليا ميخائيلوفا» .

كانت الصحافة قد اعلنت مؤخرا انه في مستطاع نليا ميخائيلوفا ان تحرك اراديا وعن بعد اشياء مختلفة : قطع خبز ،

عيدان ثقاب ، سجاير ، الخ . وقيل انها اوقفت عن النوسان رقاص ساعة جائط ، وحركت اباريق ماء تزن ليبرة ، الخ ، وهذا من دون ان يكون لها اي اتصال جسماني بالاشياء المذكورة . وأكد صحافيو **موسكو كومسومول** و **موسكو برافدا** ، اللتين تنشرهما منظمة الحزب في العاصمة ، اكدوا انهم فحصوا الوسيطة ولم يجدوا معها اي حبل او مغنطيس او اي اداة مشابهة مخيفة .

حين يقرأ المرء لائحة العلماء الذين استجوبـــوا او اختبروا ميخائيلوفا ، يعثر على جميع اسماء العلم السوفياتي الرفيع او على جميعها تقريبا . ويؤكد كلهم بالاجماع انهم لا يستطيعون ان يعطوا اي تفسير لظاهرة تحريك الاشياء . وقد روى لنا ادوارد ناوموف ان نليا عملت تحت اشراف الدكتور فاسيلييف حتـــى وفاته في عام ١٩٦٦ . ومع ذلك ، قال الاميركيون القلائـــل المتخصصون في إ.ف.ح والمطلعون في الوقت نفسه على الشؤون السوفياتية انه لم يرشح شيء من المعلومات عن العمل الـــذي انجزه فاسيلييف اثناء السنوات الست الاخيرة من حياته . وكان عالم سوفياتي قد قدم الى اميركا لزيارة مختبرات إ.ف.ح في عام ١٩٦٥ قد صرح لمن يريد ان يسمعه ان ابحاث الدكتـــور فاسيلييف قد انتهت ، وان مختبره قد اغلق ، وان الدكتور نفسه سيكرس وقته من الان فصاعدا لتحرير مؤلفات علمية .

كان الدكتور كابتســا ، أبو القنبلة الهيدروجينية السوفياتية، والدكتور ناوموف ، والبروفســـور ميخولين ، والدكتـــور ستكوفسكي ، عضو اكاديمية العلوم الاجتماعية وعضو اللجنـــة المركزية للحزب الشيوعي ، كانوا جميعهم قد صرحـــوا بقدر او بآخر من العلنية : «لا تمت ملكات ميخائيلوفا السيكوكينيزيـــة بصلة من قريب او بعيد الى الروحانيات . فحين يفكر الانسان ، يشع طاقة ، ويبدو ان هذه الطاقة اقوى لدى بعض الافراد منها لدى بعضهم الآخر . ان السيكوكينيزيا تبقى واقعة فيزيائية ـــ

فيزيولوجية» .

لم يجر جميع العلماء السوفياتيين ابحاثا على ميخائيلوفا ، لكن الغالبية الساحقة منهم كانوا معنيين بالاعمال الباهرة لهذه الاخيرة ، وقد دفع بهم فضولهم الى ابداء الرغبة في حضور عروضها .

غير ان ترجمانتنا التي كانت تقلب نظرها في عدد **البرافدا** قالت لنا : «انه لهجوم ماكر ضد ميخائيلوفا ، والمقال ينتقد ايضا بعض العلماء الذين عملوا معها» .

تقرر ان تعلق الجلسة لأمد وجيز بسبب الانباء . وحذرنا ناوموف بقوله : «الامر جدي ، فقد حظر علينا ان نعرض فيلم ميخائيلوفا ، ونليا نفسها لم يؤذن لها بالقدوم الى المؤتمر» . واكتفى الروس بالترداد : «الامر جاء من الاعلى» ، لكن لم يضف احد شيئا على ذلك .

ثارت ثائرة مترجمتنا : «هذا المقال منسوج بالاكاذيب ! انهم يتهمون ميخائيلوفا بالاحتيال والشعوذة . يقولون انها سرقت من الجمهور ٥٠٠٠ روبل ! يريدون تخريب المؤتمر ! ليس لذلك من معنى ، والشيء نفسه يتكرر كلما ظهر جديد هنا» .

اخيرا ، امكننا ان نقرأ بأنفسنا مقال **البرافدا** . كان يتحدث عن «الساحرة نليا التي تخطت شخصيات غوغول الخيالية بخداعها الجمهور بقدرات كاذبة !» . وزعم كاتبو المقال ان ميخائيلوفا قامت ب «معجزاتها» بواسطة مغنطيس اخفته في «مواضع عورتها» فوق الحزام وتحته ! اما كيف يمكن لمغنطيس ، حتى ولو احسن اخفاؤه ، ان يحرك اشياء غير مغنطيسية كالبلور او الخبز او البيض ، فهذا ما لم يفسره المقال . وقيل لنا فيما بعد ان واضعه لم يلتق قط بميخائيلوفا . وانما قرر بكل بساطة ان «الملكات السيكوكينيزية مستحيلة» ، وأن ميخائيلوفا «لا بد بالتالي ان تكون قد استخدمت مغنطيسا» .

أحدث النبأ بعض البلبلة في القاعة . وراح ناوموف يتناقش

بصوت خافت مع شتى مستشاريه . وقال لنا احدهم : «لقد منعنا من استخدام بيت الصداقة ، واليوم الثاني من المؤتمر قد الغي » .

كان الهجوم على نليا ميخائيلوفا ، الذي نشر في **البرافدا** صبيحة افتتاح المؤتمر بالذات ، مناورة متعمدة برسم المندوبين الغربيين . وقد قيل لنا ان **البرافدا** ، الصحيفة الرسمية للحزب الشيوعي ، موضوعة تحت اشراف بريجنيف واصدقائه في الحكومة . وجميع المقالات التي تنشر فيها توزن بدقة . وكان مؤتمر آخر حول إ.ف.ح قد انعقد في موسكو قبل اسبوع ولم يحضره احد غير الروس . ولم يصدر في حينه اي تعليق عليه لا في **البرافدا** ولا في اي مكان آخر . المقصود اذن اليوم مهاجمة نليا التي كان من المفروض ان تكون نجمة المؤتمر الجديد الذي يشارك فيه اجانب .

على كل حال ، كانت تنتظرنا في رحلتنا نذر اخرى تنم عن تلك الاجواء السياسية المضطربة . ففي لينينغراد ، وفي معهد الدماغ بختسيريف ، حيث كان الدكتور فاسيلييف الشهير قد ادار قسم الفيزيولوجيا لسنوات عدة ، زعم مضيفونا ، بعد تواتر اسئلتنا ، انهم لا يعرفون شيئا لا عن العالم المشهور ولا عن عمله. وقد صرح لنا خلف فاسيلييف ، الدكتور بافل غوليائيف : «لم اعد أهتم بالباراسيكولوجيا ، ومعهدي مغلق بسبب الترميمات ، والتجارب موقوفة . ثم انني في اجازة مرضية» .

لكن هوذا الدكتور غوليائيف يعلن بعد ستة اشهر لا اكثر ان فريق الابحاث الذي يعمل تحت اشرافه قد صمم جهازا يستطيع ان يكشف ويسجل «الهالة» الانسانية ، وهالة الحيوانات ، بما فيها الحشرات . وطبقا لبيان نشرته الصحافة السوفياتية ، تتمثل الهالة التي اكتشفها غوليائيف في حقل كهربائي معقد يكتنف الجسم ويغلفه وكأنه قرينه . وهم يأملون ان يستخدموا

الهالة الكهربائية لتشخيص الامراض . ويروي علماء شيوعيون آخرون ان مختبرات غوليائيف تعمل بنشاط محموم منذ اربع سنوات لدراسة التخاطر بين التوائم والتنويم المغنطيسي التخاطري وتسيير الآلات بفعل **بسي** .

سازرنا واحد من اصدقائنا في لينينغراد بأن تعليمات حكومية حذرت جهاز العاملين في الجامعات في شباط ١٩٦٨ : «ممنوع التحدث الى الاجانب» .

لم يكن في نيتنا ان نتكلم في السياسة في هذا المؤلف ، لكن لا مناص لنا من ان نلاحظ ان السياسة تدس انفها في كل شيء في الاتحاد السوفياتي .

على الرغم من هجوم **البرافدا**، استأنفمؤتمرنا اعماله بسرعة، لكننا لاحظنا ان التقارير العلمية السوفياتية قد الغيت . وبدلا منها ، وبدون اي تفسير ، راح العلماء السوفياتيون يخوضون معنا في احاديث مرتجلة ، يسبقها على الدوام التحذير التقليدي : «انني هنا بصفة شخصية ولست مفوضا للكلام باسم منصب رسمي او باسم مجموعة ما» .

يبدو اذن ان حركة النوسان الابدية التي تميز العمل المتحرر تارة والمستبد طورا للسياسة السوفياتية في مضمار الادب تنطبق ايضا على مضمار العلم . قبل خمسة عشر عاما كانت السبرنيطيقا تدمغ بالهرطقة من قبل ايديولوجيا النظام القائم . أما اليوم فعلى هذا العلم يعقد «أمل السوفياتيين» . فهل دخلت الباراسيكولوجيا في طور انكماش ايديولوجي ؟ ام المقصود فقط مد ستار من الدخان امام انظار المراقبين الغربيين ؟

اوردت مجلة **بلانيت** في عددها الصادر في تموز ١٩٦٨ نبأ مفاده ان مؤتمرا هاما حول إ.ف.ح انعقد في موسكو في شباط من العام نفسه . وقد كتبت الصحافة السوفياتية بلسان وكالة نوفوستي بصدد ذلك المؤتمر الذي حضرته شخصيات مرموقة في العلم السوفياتي : «من الواضح ان العلم الرسمي في الاتحاد

السوفياتي قد عكف من الان فصاعدا بنشاط وحمية على حل الغاز الباراسيكولوجيا» .

وكانت وكالة نوفوستي تلك عينها قد اعلنت عن المؤتمر الذي نحضره الان : «ستجرى اثناء هذا الاجتماع جميع الاختبارات الهامة التي انجزها اشهر الفيزيائيين لا في مضمار التخاطر فحسب ، بل كذلك في سائر المضامير الميتاعادية» .

بوسع المرء اذن ان يستنتج ان الباراسيكولوجيا ، في الاسابيع التي سبقت حزيران ١٩٦٨ ، كانت تمر بفترة ازدهار رسمي في الاتحاد السوفياتي .

وظاهر الامر ان مشروع عرض فيلم ميخائيلوفا في مؤتمرنا اصطدم من البداية بعقبات . فقد علمنا من اصدقائنا الروس ان مناورات ومكائد غريبة قد دبرت ضد العلماء من قبل مجهولين في محاولة لسرقة فيلم ميخائيلوفا ؛ وكذلك كان المسؤولون عن المؤتمر قد تلقوا قبل بضعة اسابيع مكالمات هاتفية تهديدية .

لمَ كل تلك المناورات ؟ من اراد الاستيلاء على الفيلم ولأي غرض ؟ لم يذكر لنا الروس شيئا عن ذلك . وقد علمنا ان ٤٦ فيلما قد انتجت حول نشاطات ميخائيلوفا وان مؤسسة «افلام كييف» قد انتجت فيلما طويلا تلعب فيه نليا دورا واسمه **اسرار دماغنا** . وقد نشرت ايضا تقارير علمية حول السيكوكينيزيا والادراك فوق الحسي خلال المؤتمرات الستة والعشرين التي انعقدت آنفا حول الباراسيكولوجيا والتي لم يحضرها اي اجنبي، باستثناء مؤتمر١٩٦٦ الذي لم تجر فيه مناقشة حالةميخائيلوفا.

هل قرر احدهم في الدوائر العليا ان ميخائيلوفا تثير ضجة اعلامية اكبر مما ينبغي سواء افي روسيا ام في الغرب ؟ لقد اكتشفنا فيما بعد انه فينفس الوقت الذي نشر فيه مقال **البرافدا** واجهت السيدة ميخائيلوفا حملة تهديد وتخويف بالهاتف . وكانت هذه المناورة منظمة هي الاخرى . فأولا لا وجود لدليل هاتف في

روسيا ، ومن الصعب بالتالي الحصول على رقم هاتف ، ثم ان نليا ميخائيلوفا اسم مستمار ، اذ ان الاسم الحقيقي لنليا هو كولوجينا . وازاء تلك التهديدات خاف العلماء وقرروا في النهاية ان يخفوا السيدة ميخائيلوفا في الريف خارج منطقة لينينفراد لردح من الزمن . ولهذا ما كانت ستحضر المؤتمر ، وما امكن لأي زائر اجنبي ان يتصل بها .

في اليوم الاول من المؤتمر ، كنا في حالة ترقب وانتظار . وعلق واحد من الغربيين الحاضرين بقوله : «ينقص هذا المؤتمر ممثلون بارزون للباراسيكولوجيا السوفياتية. لقد قرأت تقاريرهم حول إ.ف.ح في الصحافة العلمية» . غير ان السوفياتيين الحاضرين كانوا مصممين على بذل قصارى جهودهم لانجاح المؤتمر ، وتوالت اعماله بالفعل من الصباح الى المساء بلا انقطاع وبلا مأدبة منصوص عليها في البرنامج سلفا . وكان يحيط بنا عدد موفور من الاختصاصيين السوفياتيين الراغبين في مناقشتنا وتبادل المعلومات بخصوص بسي . وبدا وكأن الجو آخذ بالانفراج خلال تلك الساعات الاثنتي عشرة . غير ان المندوبين السوفياتيين الذين قطعوا روسيا من اقصاها الى اقصاها كي يحضروا اللقاء ما كان في حسابهم ان يعودوا من حيث اتوا بخفي حنين . وبناء عليه ، تقرر بالاتفاق مع التشيكيين استخدام قاعة للسينما في مبنى سفارة ذلك البلد لعرض فيلم ميخائيلوفا ، وكذلك فيلم تشيكوسلوفاكي عن السيكوكينيزيا . وتقرر ان يتم العرض في اليوم الثاني من المؤتمر .

كان هذا القرار مثيرا للاستغراب حقا ، اذ انه ، حتى قبل غزو تشيكوسلوفاكيا من قبل السوفياتيين ، كان التضامن بين موسكو وبراغ شكليا وسطحيا. ففي شوارع العاصمة السوفياتية كان الغربيون الذين يسألون وديا معارفهم او المارة ان يدلوهم الى طريق السفارة التشيكوسلوفاكية لا يتلقون من جواب سوى نظرات باردة .

قالت لنا واحدة من المترجمات الروسيات في الاجتماع : «لا ريب في ان هذا المؤتمر لن يجد له صدى في صحافة البلاد اليومية» . وبالفعل ، لزمت الصحف السوفياتية الصمت بخصوص الموضوع .

حاول فلاديمير لفوف ، الصحافي المعادي للباراسيكولوجيا والذي زعم ان نليا ميخائيلوفا اخفت مغنطيسا في «مواضع عورتها» ، ان ينفي وجود مؤتمرنا . ففي رسالة وجهها الى **نيو ساينتيست** اللندنية ونشرت في عدد ٢٥ ايار ١٩٦٩ ، كتب لفوف : «لم ينعقد قط في موسكو في بيت الصداقة اي مؤتمر دولي في حزيران ١٩٦٨ تراسه ادوارد ناوموف» .

ان موقف لفوف هذا يعبر عن راي قسم من العلم السوفياتي يقدر ان نظريات إ.ف.ح تتناقض وقوانين اختصاصاتهم . ويمثل لفوف الاتجاه المحافظ المتطرف ، او ما يمكن تسميته بالعنصر النيو-ستاليني في العلم والسياسة السوفياتيين . ويعارض هذا الاتجاه عنيف المعارضة كل اعلان عن إ.ف.ح في داخل روسيا ونشر اي مؤلَّف علمي حول الموضوع . ويعلم كل امرىء ان الستالينيين الجدد قد شددوا في كل مكان من ضغطهم ، منذ ان غادرنا اراضي روسيا في صيف ١٩٦٨ .

الفصل السادس

هل يعرف الروس كيف يؤثر الفكر على المادة ؟

زمجرت آلات العرض السينمائي وبدانا نشاهد اخيرا الفيلم عن القدرات السيكوكينيزية للسيدة ميخائيلوفا . لم تكن هذه الاخيرة تشبه الصورة التي رسمتها لها **البرافدا** حين جعلت منها نصف ساحرة . فقد ظهرت على الشاشة امراة في مقتبل العمر، على قدر من البدانة ، لطيفة الهيئة ، مبسوطة الوجه ، داكنة العينين . وبدت لنا وكانها تمت بصلة قرابة الى رائد الفضاء يوري غاغارين : فقد كانت قسماتها سلافية نموذجية ، ناتئة الوجنتين ، خنساء الانف .

كانت التجارب تجري في شقة نليا الجديدة ، في حي جديد ، في ضاحية لينينغراد ، حيث كان يمر خط الجبهة اثناء

الحرب .

كانت نليا ، التي ولدت في عام ١٩٢٧ ، بعد عشر سنوات من الثورة ، في الرابعة عشرة من العمر فقط حين بدأ النازيون بمحاصرة لينينفراد. وعبئت نليا ، مثلها مثل سائر اولاد المدينة. التحقت مع اخيها وابيها واختها بصفوف الجيش الاحمر في الخط الاول . وطوال ذلك الكابوس الذي دام ثلاث سنوات عانى السكان المجاعة في طقس شديد البرودة تهبط فيه الحرارة شتاء الى اربعين درجة مئوية تحت الصفر احيانا ، بلا ماء ولا كهرباء . وتحت قصف المدفعية والطيران الالماني المتواصل الذي مشط المدينة برمتها ، خدمت نليا على متن دبابة من طراز ت ٣٤ كاملة راديو . «حاربت ببسالة» : هذا ما تذكره عنها نشرة للجيش الاحمر ؛ ولم تكن قد بلغت العشرين من العمر حين عينت برتبة رقيب اول في الكتيبة ٢٢٦ للدبابات الهجومية ، وما كان ذلك بالشيء النادر في روسيا اثناء الحرب . دامت المجاعة في لينينفراد ٩٠٠ يوم . وفي وقت من الاوقات ، الحقت نليا وافراد اسرتها قاطبة تقريبا بالخدمة على متن قطار مصفح كان يزود المدينة المتضورة جوعا بالمؤن التي تفتقر اليها اشد الافتقار. وانتهت الحرب بالنسبة الى الفتاة حين اصيبت اصابة بليغة بشظية قنبلة .

ان نليا ، التي هي الان امراة في الاربعين من العمر ، متزوجة من مهندس ، ويوشك ابنها ان ينهي دروسه العسكرية ، وقد صارت مؤخرا جدة .

كانت السيدة ميخائيلوفا جالسة الى طاولة مستديرة عريضة بيضاء ، امام نافذة ذات ستائر من الدانتيلا . وقال الروس انها فحصت جسمانيا من قبل دكتور ، وانه استخدم في الفحص الاشعة للتأكد من انها لا تخفي معها مغنطيسا او اي شيء آخر ، وللتحقق ايضا من انه ليس في جسمها اي شظية فولاذية متخلفة فيه عن الجرح الذي اصيبت به اثناء الحرب . ولم يتمخض

الفحص عن اكتشاف اي شيء من هذا القبيل .

اقترب فريق السينمائيين والعلماء والصحافيين واحتلوا امكنتهم . ووضع ناوموف على الطاولة امام نليا بوصلة في شكل ساعة يد ، وسيجارة ، وغطاء قلم حبر ، واسطوانة معدنية صغيرة تشبه المملحة ، وعلبة ثقاب مرسوما عليها صورة سفينة قمرية . كانت الاغراض تلمع على الطاولة البيضاء ، شبيهة بلوحة طبيعة ميتة لسلفادور دالي .

تركزت عينا ميخائيلوفا السوداوان على البوصلة التي كانت اسهل الاشياء قابلية للتاثير فيها. وبالفعل تتحقق السيكوكينيزيا، على حد ما يقول الباحثون الغربيون ، بسهولة اكبر في الاشياء التي تدور ؛ الساعات والبوصلات على سبيل المثال ، اذ لا وجود فيها لاحتكاك سكوني .

قال ناوموف في تعليقه اثناء عرض الفيلم الصامت : «تحتاج ميخائيلوفا احيانا الى فترة تتراوح بين ساعتين واربع ساعات لتتمكن من السيطرة على قدراتها فوق العادية» .

مدت نليا اصابعها الرفيعة افقيا فوق البوصلة على ارتفاع خمسة عشر سنتيمترا تقريبا ، وحركت يديها حركة دائرية . وغارت وجنتاها عميقا بسبب المجهود الذي كانت تبذله . ومرت عشرون دقيقة . كان نبض المراة قد بلغ ٢٥٠ ضربة في الدقيقة . حركت راسها من طرف الى آخر ، شاخصة النظر الى ابرة البوصلة . كانت حركة يديها تذكر بحركة مايسترو يقود فرقة اوركسترا غير منظورة . وعندئذ ، وكما لو ان ذرات ابرة البوصلة تتناغم معها ، اهتزت الابرة . وبتؤدة ، شرعت تدور بعكس اتجاه عقارب الساعة . وبعد ذلك ، اخذت البوصلة مع علبتها البلاستيكية وسوارها الجلدي تدور كلها .

فيما كانت البوصلة تدور على نفسها ، كانت الخطوط تحت عيني ميخائيلوفا تزداد سوادا ، بينما كانت غضون جبينها تنحفر

تحت المجهود المكثف . وتهاوت على مقعدها منهوكة القوى .

قال لنا ناوموف : «تتعلق قوة ملكاتها بشروط المناخ الى حد ما . فاذا كان الوقت عاصفا ، تناقصت قدرتها السيكوكينيزية» .

ظهر في الفيلم بعدئذ ناوموف وهو يفرغ محتوى علبة ثقاب ويبعثره على الطاولة ، على بعد حوالي ٣٠ سنتيمترا من نليا . ثم صف اسطوانة معدنية صغيرة غير مغنطيسية وعلبة الثقاب الفارغة جنبا الى جنب .

قال لنا ناوموف : «انها تختار اغراضها . وبوسعها ان تحرك، حسبما تشاء ، واحدا او اكثر منها» .

من جديد مدت ميخائيلوفا يديها . كان ظاهرا عليها الانهاك بسبب ما بذلته من مجهود . تحت نظرها ، طفقت عيدان الثقاب كلها تنجرف على الطاولة انجراف جذوع الاشجار في تيار نهر عرمرم . وبدات الاسطوانة المعدنية بدورها تتحرك . ووصلت عيدان الثقاب ، وهي ملتئمة الشمل كعوامة خشبية ، الى حافة الطاولة وتساقطت واحدا تلو الآخر على الارض . عندئذ وضع ناوموف علبة ثقاب جديدة وعلبة معدنية غير مغنطيسية تحت مكعب واسع من الزجاج الواقي (١) . كان الغرض من المكعب منع تيارات الهواء او دس اسلاك خفية . وانبسطت يدا ميخائيلوفا فوق غطاء الزجاج الواقي بسنتيمترات ، وشرعت الاشياء تتحرك في المكعب . وأيا تكن الطاقة الفاعلة، فقد كان واضحا انها تخترق الزجاج الواقي بسهولة .

من جديد ظهر الانهاك على ميخائيلوفا . وبلغ نقصان وزنها اكثر من كيلو وخمسمئة غرام في مدى نصف ساعة من الاختبار.

---

١ ـ Plexiglas . ـ م ـ

فلكانها تحول مادة جسمها بالذات الى طاقة . وفي الغرب ايضا سجل الكثيرون من الوسطاء نقصانا في الوزن اثناء تجارب السيكوكينيزيا .

اعترف لنا ناوموف فيما بعد : «لقد كانت نليا منهكة اكثر بكثير مما بدت عليه في الفيلم . وقد كان المجهود القلبي كبيرا للغاية مما اضطررنا الى ايقاف التجربة مرارا . وقد اقتضانا تصوير الفيلم سبع ساعات ونيفا . وحين انتهى كل شيء ، لم يعد في مقدور ميخائيلوفا ان ترى او ان تسمع . وفي الايام التالية ، اشتكت من اوجاع في الذراعين والساقين ، وانتابها دوار وارق» .

هل كانت قدرات ميخائيلوفا حقيقية ، ام كانت تضليلا مثلما ادعى الشكاكون السوفياتيون ؟ لقد جرت تجارب السيكوكينيزيا، بناء على ما كنا رايناه حتى ذلك الحين ، في شروط مرضية ، وتحت اشراف مراقبين مختصين . ولم يكن الفيلم من النوع الذي يستعمله الهواة ، بل كان فيلما مهنيا مكلفا بعرض ٣٥ مم ، صورته عدسة مصورين سينمائيين محترفين .

تذكرنا قصة الزيارة التي قام بها منذ وقت قريب الكاتب السوفياتي كولودني الى شقة ميخائيلوفا . كان مستغرقا في تسجيل ملاحظات اثناء المقابلة حين رفع عينيه ليلاحظ فجاة ان غطاء قلمه يتحرك على بساط الطاولة باتجاهه . يروي فيقول : «شعرت بتقلص في حلقي . كان غطاء القلم يبدو وكأنه يحلق فوق السطح غير المستوي لنسيج البساط». كانت مضيفته ميخائيلوفا تبتسم ، بينما طفق كأس ماء يتحرك بدوره وراء غطاء قلم حبر كولودني . «كان الشيئان يتحركان نحو حرف الطاولة وكأنهما مربوطان بسلك خفي . وكان بساط الطاولة نفسه قد بقي ساكنا، وكذلك سائر الكؤوس الموضوعة الى جانب كأسي . هل من الممكن ان تدفع المراة بذينك الشيئين على التقدم بنفخها في اتجاههما ؟ لكن لم يكن هناك تيار هواء ولا اي علامة من علائم الغش والاحتيال،

بل كانت ميخائيلوفا تتنفس بهدوء . لماذا لم يتحرك الابريق الذي كان موجودا على الطاولة ذاتها ؟ امررت يدي في المساحة الفاصلة بين ميخائيلوفا والطاولة . لم أحس بخيط او بشعرة ، ولا بأي رباط من اي نوع كان . ثم انها اذا كانت قد استخدمت مغنطيسا، فما كان في مقدوره ان يجذب بلورا » .

امسك كولودني بالفرضين المتحركين ، وتفحصهما من جوانبهما جميعا ، آملا ان يجد دليلا ما . وبضورة ميكانيكية قلب كأسه الفارغة ووضع غطاء قلم الحبر تحت الكاس . وبدا على ميخائيلوفا وكان تلك العملية قد اثارت فضولها وشخصت ببصرها الى غطاء قلم الحبر ، وهي تحتسي شايها . وبدأ الغطاء يهتز من جانب وآخر تحت الوعاء الزجاجي .

تساءل كولودني : «ما طبيعة الطاقة التي تحدث تلك الحركة، وما القانون الذي تخضع له ؟» .

ان السيكوكينيزيا تبدو ، من بين سائر التظاهرات الميتاعادية المعروفة ، اعجبها واغربها . فالاشياء تتحرك حركة تلقائية بوجه عام حين يمر فرد من الافراد بلحظة ازمة . وكل واحد يعرف قصة ساعة الجد التي توقفت نهائيا عن العمل ، ساعة موت مالكها بالضبط . والظاهرات التخاطرية ذاتها ليست مثيرة كرؤية طاولة تتحرك فجأة وتلاحقك عبر الغرفة .

يروي الكاتب السوفياتي الشهير ، قسطنطين باوستوفسكي، الواقعة التالية في **قصة حياتي** : بعد ان استعار ذات يوم ميزان حرارة ثمينا ووضعه على طاولته ، اخذ الشيء يتحرك على ذهول منه بدون تدخل ظاهر . «نظرت الى الطاولة واحسست بشعري يقف على راسي . وشرع ميزان الحرارة ينزلق بتؤدة نحو حرف الطاولة . اردت ان اصرخ ، لكن لم يخرج اي صوت من حلقي . ووصلت الاداة الى حافة الطاولة وانقلبت وتحطمت على الارض» .

يروي باوستوفسكي قصة ظاهرة اخرى من ظاهرات

السيكوكينيزيا ، حدثت في زمن الحرب الاهلية في روسيا، في اوديسا ، حيث كان الناس يعانون فاقـــة قاسية الى مــــاء الشرب . «كان علينا ان ننقل الماء في دلاء وان نصبه في اسطوانة زجاجية كبيرة ، موضوعة في ممشى البناية . ذات يوم سمعت صديقي باشا يصرخ في الممشى . قفزت خارج غرفتي ، وما رايته اذهلني: كانت الاسطوانة الضخمة تهتز من تلقاء نفسها امام انظارنا المشدوهة . تارجحت لهنيهة من الزمن ، ثم ارتفعت في الهواء، وعاودت السقوط لتتناثر حطاما على الارض : تبعثرت الف شظية زجاج ، وانسال مخزوننا الثمين من الماء عبر الممشى وصولا الى الدرج . طبيعي انه كان في مستطاعنا ان نسارع وان نمســـك الاسطوانة عن السقوط . لكن دهشتنا انا وباشا لم تترك لنا غير ان ننظر من دون ان نحرك ساكنا» .

كيف تعيش ميخائيلوفا وسط تظاهرات من هذا النــــوع تحدث بلا انقطاع فيما حولها ؟ تقول : «لم اكن اعرف ، منذ بضع سنوات لا اكثر ، انني قادرة على تحريك شيء عن بعد . كان ذلك في يوم انتابتني فيه سورة استياء وغضب شديد . كنت متجهة نحو صوان سفرة موجود في شقتي حين تحرك على حين غـــرة دورق مصفوف في الصوان نحو حافة الرف ، ووقع ، وتحطـم شظايا » .

وتضيف قولها : «بعد ذلك ، بدأت ضروب شتى من التبدلات تحدث في شقتي» . بدأ على الاشياء وكانها تنجذب نحو نليا ، وكانما تحولت الى كائنات فيها حياة . كان ذلك اشبه ما يكون بظاهرات «بولترجست» (٢) . ويعرف اهل العلم عادة نشاطـات البولترجست بانها تحدث بوجه عام بصورة لاواعية بفعل شخص موجود في البيت ، ادرك سن البلوغ في غالب الاحيان . فيظهر

---

2 — Poltergeist .

على الاشياء وكأنها تتنقل من تلقاء ذاتها ، وتنفتح الابواب وتنغلق، وتضيء الانوار وتنطفىء، وتبدو قوانين الجاذبية وكانها انعكست.

لكن الظاهرة هنا مختلفة . فقد احست نليا فجاة بان تلك القوة تصدر عنها . واكتشفت انها تستطيع السيطرة على تلك الطاقة ، وان تحدث تلك الظاهرات متى شاءت . وحين تكون نليا بين افراد أسرتها ، محتضنة حفيدها بين ذراعيها ، تجتذب اليها دمية موجودة على مسافة ما . وفي جلسة لطلي الاظافر ، جذبت قوارير الطلاء من دون ان تمسها . وحتى كلب الاسرة ينظر بذهول الى الاشياء التي تبدأ بالدوران قرب صاحبته . وقد صور زوجها فيلم هواة يظهر قدراتها السيكوكينيزية .

تقول ميخائيلوفا : «أعتقد انني ورثت عن امي تلك الملكة التلكينيزية ، وقد اورثتها ايضا ابني» .

يروي الكاتب السوفياتي فاديم ماران ، العامل مع مجموعة بوبوف : «كانت السيدة ميخائيلوفا جالسة الى مائدة الاسرة . كان على الطاولة ، على بعد ما عنها ، قطعة خبز . ركزت ميخائيلوفا ذهنها وحدقت في قطعة الخبز . مرت دقيقة ، ثم اخرى .. وطفقت قطعة الخبز تتحرك . انتقلت على دفعات متتالية . ولما وصلت الى حافة الطاولة ، اخذت بالتحرك على نحو اكثر نظامية . أمالت ميخائيلوفا راسها الى الامام ، وفتحت فاها، وكما في القصص الخرافية وثبت (لا اجد كلمة اخرى) قطعة الخبز الى فمها !» .

ويحدد الكاتب فيقول : «لم اكن في حالة تنويم مغنطيسي ؛ وكل ذلك مصور في الفيلم» .

لقد جرى تسجيل تاثير نليا على الطعام بمزيد من الجدية في فيلم صوّر علميا . وضعت بيضة نيئة في محلول مملح في اناء زجاجي .ووقفت نليا على بعد مترين . وتحت انظار الشهود ، وفيما كانت العدسة تسجل ما يحدث ، افلحت نليا ، بناء على

قول التقرير السوفياتي ، في فصل صفار البيضة من بياضها بقوة السيكوكينيزيا . ثم جمعت بينهما من جديد .

يؤثر مفعول السيكوكينيزيا اذن على المادة العضوية . فهل من الممكن ان يكون للسيكوكينيزيا تأثير ايضا على الصبغيات ، أو على الحامض الاميني (٣) ، او على الانسجة البشرية ؟ جزم لنا اختصاصي في الفيزياء انه في مستطاع نليا ان تحدث حروقا من الدرجة الثالثة في المعدة بفعل السيكوكينيزيا . وكان قد سبق لباحثين غربيين في المضمار نفسه ان اكتشفوا ان الحساسين الذين يتمتعون بقدرة سيكوكينيزبة يستطيعون ، في ظل شروط اختبارية صارمة ، التأثير على نشاط الخمائر والبكتريات .

لقد صور الفيلم نفسه السيدة ميخائيلوفا وهي تحرك في آن واحد خمس سجاير وضعها المجربون عموديا تحت ناقوس من الزجاج . وحين انتهت التجربة ، فتحت السجاير وفحصت ، لكنها لم تكن تحتوي على اي شيء غير عادي .

اشار عدد من السوفياتيين ، اثناء المؤتمر ، الى اختبار البيضة والسيجارة ليدحضوا حجة المشككين الذين اتهموا ميخائيلوفا باستخدام مغنطيس او اسلاك غير مرئية . وبديهي انه من المستحيل تحريك بيضة او رفعها عن السطح الموضوعة عليه بواسطة سلك او مغنطيس .

ما هي اذن تلك الطاقة السيكوكينيزية الغامضة ؟ كيف تتكون ؟ ما الاوالية التي تسمح لنليا بانتهاك قوانين الجاذبية والفيزياء والكيمياء ؟ ان العدد الذي لا يقع تحت حصر من استبارات السيكوكينيزيا في البلدان الغربية يظهر انه في مستطاع الناس التأثير على القوانين الميكانيكية المتحكمة برمي النرد في الجام. وقد اختبر الباحثون ايضا مفعول السيكوكينيزيا

---

٣ ــ مركب ذري اساسي في كل مادة حية . ــم ــ

في الفطور والنباتات والمواد الاشعاعية على حد سواء .

لكن ماذا يحدث للانسان الذي ينتج ذلك المفعول ؟ وما ردود فعله اثناء التجربة ؟ ان عدم توفر ادوات القياس اللازمة لتقييم مفعول السيكوكينيزيا كميا كان يرغم الباحثين على الاكتفاء بملاحظات بصرية او بأفلام تحت حمراء ـ اذا ما توفرت ـ للتحقق من صدق الوسيط السيكوكينيزي . لكن الغش بات يكتشف منذئذ بفضل تقدم التقنيات ، وأسقط في يد الوسطاء المحتالين . غير ان الباحثين العلميين ، بدلا من ان يفترضوا ان السيكوكينيزيا يمكن ان تمارس بصدق في شروط محددة ، نبذوا هذا المضمار دفعة واحدة . ونحن ندين لمجموعة من العلماء السوفياتيين برفعها من جديد شعلة دراسة السيكوكينيزيا لدى الكائن الانساني . فاذا لم تكن نليا ميخائيلوفا محتالة ، واذا كانت تشع بالفعل بطاقة ما مجهولة باتجاه الاشياء الموضوعة على الطاولة ، فما ردود فعلها الداخلية ؟ وماذا يحدث في الوسط المحيط بها ؟

لقد عكف على هذه المشكلة الدكتور سيرغييف من مختبر لينينغراد العسكري . فالسيكوكينيزيا تفترض وجود تأثير للفكر على المادة عن مسافة . فهل في مستطاع جهاز كاشف مناسب التصميم ان يسجل ، على بعد من الوسيط ، آثار القوة السيكوكينيزية التي يقال انها تشكل طاقة بشرية مجهولة بعد ؟

لقد كان الدكتور هارولد بور ، استاذ تشريح الاعصاب في جامعة يال ، قد اثبت منذ عام ١٩٥٣ ان كل المادة الحية ، بدءا من الحبة ووصولا الى الانسان ، تحيط بها وتؤثر عليها حقول كهربائية ـ دينامية . ومن الممكن ان يعتبر غلاف الطاقة الذي يحيط بالجسم البشري ضربا من قالب الكتروني . وكلما تجددت خلايا الجسم ، سعى حقل القوة هذا الى ان تأخذ الانسجة الجديدة القالب المناسب . وفي زمن لاحق اكتشف الدكتور

ليونارد رافتش ، الاختصاصي في الطب النفسي العصبي في جامعة يال ، ان الفكر يستطيع ان يؤثر على حقل القوة الذي يغلف الجسم. وبقياس شدة هذا الحقل الكهرطيسي على مستوى الجلد ، اكتشف رافتش انه يتمكن حتى من استشفاف الحالة النفسية لفرد من الافراد ، وعمق حالة بعينها من حالات التنويم المغنطيسي .

في لينينغراد ، تساءل الدكتور سيرغييف عما اذا لم يكن حقل القوة ذاك يمت بصلة ما الى السيكوكينيزيا . ففي مقدور الفكر ان يؤثر مباشرة على غلاف الطاقة الذي يسبح فيه الجسم . فهل من الممكن اكتشاف وسيلة لقياس شدة الحقول البيولوجية المعنية ، وتسجيل تأثير الفكر الانساني على هذه الحقول عن مسافة ما ، كما هي الحال مع نليا ؟

لقد ابتكر سيرغييف جهازا جديدا : كاشفا يسجل الحقول البيولوجية (الكهربائية الساكنة والمغنطيسية) عن مسافة زهاء متر من الجسم البشري ، وبدون اي تماس مباشر . وقد عرض لنا فيلم يبين الآثار التي سجلها ذلك الجهاز الكاشف ، لكن قيل لنا في الوقت نفسه ان تصميم ذلك الجهاز لا يزال سريا بعد .

لقد استخدم سيرغييف ادواته الكاشفة الجديدة ليقيس حقل قوة ميخائيلوفا عندما تكون مخلدة الى الراحة . واكتشف ان شدة الحقل تعادل فقط عشر الحقل المغنطيسي الارضي الذي يبلغ ٦ر. غاوس (٤). بيد ان الحقل المغنطيسي الشخصي المسجل حول نليا اقوى بكثير مما لدى متوسط الافراد : هذا ما يقوله سيرغييف الذي تؤكد صحة استنتاجاته الاقيسة التي أجريت في معهد علم المقاييس والموازين في لينينغراد .

---

٤ ــ غاوس : وحدة الحث المغنطيسي ، نسبة الى العالم الالماني كارل فريدريش غاوس . ــم ــ

كان الدكتور سيرغييف ، البالغ من العمر اربعين عامـــا ، الخطيب الوحيد في ثاني ايام المؤتمر . وهو شخصية مرموقة ، عالم رياضيات واختصاصي في فيزيولوجيا الاعصاب ، ذو حظوة واسعة في العالم العلمي في الكتلة الشرقية. ففي جميع مختبرات بلدان هذه الكتلة ، بلا استثناء تقريبا ، وجدنا آخر مؤلفات هذا العالم الذي كانت نظرياته في مضمار الابحاث المخية موضـــوع دراسات مستأنية . يقول سيرغييف ، متحدثا عن اكتشافـــه الجديد للجوانب غير القياسية في مخ ميخائيلوفا : «ينتج معظم الافراد في الاقسام الخلفية من المخ تيارا كهربائيا تزيد قـــوة فولتاته بثلاث مرات او اربع على قوة تيار الاقسام الجبهية . أما مخ ميخائيلوفا فينتج في الاقسام القفائية (المنطقة الخلفية) تيار فولتات اقوى بخمسين ضعفا من تيار الاقسام الجبهية» (بديهي ان هذا النشاط الكهربائي يبقى في الاحوال جميعا ضعيفا للغاية الى حد يستوجب تكبيره اربعة ملايين مرة حتى يصبح في الامكان رصده وتسجيله) . وقد وجد سيرغييف نظير هذه البنية المخية لدى حوالي ٧ بالمئة من الافراد الذين اجرى عليهـــم القياس . واستنتج من ذلك ان هذا التيار الفولتي غير العادي يمثل مؤشرا جيدا لكشف قدرات باراسيكولوجية تزيد على المعدل المتوسط لدى فرد من الافراد .

بدأ عندئذ على الشاشة عرض الفيلم الثاني عن ميخائيلوفا . اعلن سيرغييف : «ان ما رأيتموه حتى الان في الفيلم السابق يمثل التظاهر الخارجي للتلكينيزيا . وفي مستطاع الناس جميعـــا ان يعاينوا على هذا النحو السيكوكينيزيا . والآن ، بفضل الاتنـــا الجديدة ، نستطيع ان نعـــرف بعض الحقائق عن مفاعيـــل التلكينيزيا وطبيعتها الداخلية . سنكتشف ما يجري في جسم الكائن البشري لحظة تظاهر النشاط السيكوكينيزي» . وبـــدأ الفيلم : رأينا السيدة ميخائيلوفا جالسة في حجرة في مختبر

الفيزيولوجيا في لينينغراد . وكان المكان معزولا الكترونيا ومجهزا بمعدات التخطيط الكهربائي للدماغ . وكانت نليا تعتمر خوذة جلدية مغطاة بالالكترودات . وكان معصماهـا ملفوفين بأساور جلدية ومربوطين بالكترودات اخرى . كانت ، كرواد الفضاء ، محشوة بالآلات . وكان يجري تسجيل نشاطها القلبي وذبذباتها المخية . وكانت اجهزة سيرغييف الكاشفة الجديدة ، الموضوعة على مسافة ما من ميخائيلوفا ، تقيس الحقول البيولوجيةالموجودة حول جسمها على امتداد نصف قطر بطول اربعة أمتار .

بدات ميخائيلوفا ، كعادتها ، تؤدي بيدها حركات دائرية فوق اشياء موضوعة على الطاولة . تجوّف وجهها بفعل المجهود فيما كانت تجاهد لتنشيط قدراتها السيكوكينيزية (اننا نصف هنا خلاصة ما شاهدناه في الفيلم ، وما اطلعنا عليه من مقابلات لاحقة وتقارير منشورة) .

في طور اول ، سجل الـ E.E.G نشاطا كهربائيا محموما في المنطقة المخية المعروفة بأنها مركز البصر (المنطقة الخلفية او القفائية) . فهل فرط نشاط هذه المنطقة من المخ هو الذي يحدث لدى ميخائيلوفا عمى مؤقتـا بعد كل تجربة من تجـارب السيكوكينيزيا ؟ وفيما كانت تركز انتباهها تركيزا شديدا ، كان جهاز التخطيط الكهربائي للقلب يسجل خفقانا بمعدل ٢٤٠ ضربة قلبية في الدقيقة ، اي بزيادة اربعة أضعاف على النبض العادي.

طفقت الاشياء الموضوعة امام ميخائيلوفا تتحرك . وفجـأة كشفت اجهزة سيرغييف عن شيء جديد لم يسبق قط للباحثين ان رأوه . فقد اخذت الحقول المغنطيسية الماثلة حول جسم ميخائيلوفا تظهر نشاطا منتظم الايقاع . فلكأن ميخائيلوفا تحدث ذبذبة قوية عبر الغلاف اللامنظور الذي يحيط بها . واعتمد المخ والقلب نفس ايقاع حقل قوتها ! وليس حقل قوتها بكامله هـو وحده الذي شرع يهتز ، بل اظهرت الاجهزة الكاشفة ان القـوة الاهتزازية قد تركزت تبعا لمحور نظرها .

لكنّ كيف يمكن لهذا الحقل المغنطيسي الاهتزازي ان يحرك شيئا من الاشياء متى ما ركزت نليا فكرها عليه ؟

يقول سيرغييف : «اعتقد ان اهتزازات حقول القوة المحيطة بجسمها تفعل فعل الذبذبات المغنطيسية . وحين تحدث هذه الاهتزازات او هذه الذبذبات المغنطيسية ، ترغم الشيء الذي يتركز عليه نظر ميخائيلوفا ـ حتى ولو لم يكن مغنطيسيا ـ على سلوك مسلك الشيء الممغنط . ولهذا نجد الشيء موضوع البحث مجذوبا اليها او مردودا عنها» .

ان نظرية الدكتور سيرغييف بخصوص السيكوكينيزيا تستند كذلك الى اكتشاف مزعوم حققه السوفياتيون ، تبين لهم بموجبه ان شكلا جديدا من الطاقة يجول عبر الجسم البشري .

على هذا النحو ، تتحول عمليا الصيغة القديمة القائلة بـ «تأثير الفكر على المادة» الى الصيغة التالية «تأثير الفكر على حقول القوة» . وبموجب النظريات السوفياتية ، يمثل حقل القوة الاهتزازي هذا الاوالية التي يتمكن بفضلها الفكر الانساني من إحداث بعض مفاعيل سيكوكينيزية . واذا ما تأكدت صحة هذه التجارب ، يكون السوفياتيون قد سجلوا بالطبع نقطة لها اهميتها في دراسة المضمار السيكوكينيزي .

لقد كان من دواعي الإستغراب ان يلتئم شملنا على ذلك النحو في السفارة التشيكية في موسكو وان نصغي الى العلماء السوفياتيين يحدثوننا عن اكتشاف الاهتزازات . فمنذ عشرات السنين طرح على الوسطاء السؤال نفسه : «ما أصل وما اوالية السيكوكينيزيا والادراك فوق الحسي ؟» . ومن جميع انحاء العالم تقدم الوسطاء ، الذين لم يكن بين بعضهم بعضا من اتصال، بأجوبة شبه متماثلة : فجميعهم كانوا يتحدثون عن اهتزازات . وقد شرح الوسطاء ان الجسم البشري مركب من حقل طاقة تأخذه حالة اهتزاز . واذا ما تسارع تواتر اهتزاز هذا الحقل ،

امكن لنا ــ على حد قول الوسطاء ــ ان نماين الطاقة او المعلومات الآتية من بعد آخر . لكن حتى يوم اكتشاف بور ورافتش لحقول الطاقة اللامرئية المغلفة للجسم ، ما كان احد يعلم على وجه التحقيق ما الذي يفترض فيه انه يهتز ، ولا كيف تبدأ الظاهرة بالعمل . وقد تنبأت ذات يوم وسيطة انكليزية ، غريس روشر ، بأن البشرية ستخترع عما قريب ادوات عالية التوتر تعزز ملكات الادراك فوق الحسي بزيادتها اهتزازات حقول طاقتنا . وتوكيد السوفياتيين بأنهم صمموا آلات تخلق حقولا مغنطيسية وحقولا اصطناعية اخرى يفسح في المجال للاعتقاد بأن تلك الاجهزة الجديدة تعزز القدرات الميتانفسية ، وبخاصة التخاطر والسيكوكينيزيا .

طبقا لما كتبه الدكتور رافتش في **مجلة يال للبيولوجيا والطب** في عام ١٩٥١ ، فان تأثير الشمس والقمر يطال ايضا حقل قوة الجسم . وقد اكد صحة ذلك الدكتور سيرغييف : «ان انسب وقت للنشاط السيكوكينيزي هو وقتاختلالات الحقل المغنطيسي الارضي الناجمة عن نشاط البقع الشمسية» .

يقول السوفياتيون ان حقول قوتنا ، وبالتالي قدرات **بسي** فينا ، مرهونة بثلاثة عوامل .

١ ــ الحقول التي تنتجها الآلات .

٢ ــ الحقول الطبيعية التي ينتجها القمر والشمس ، وفي ارجح الظن الكواكب .

٣ ــ الاهم من ذلك كله : الانفعالات الانسانية . وبالفعل ، قال لنا السوفياتيون ، ليس مفعول انفعالات الانسان هو وحده الذي يؤثر على حقل قوته الذاتي ، بل كذلك ، والى حد ما ، تأثير الانفعالات التي تساور المراقبين الحاضرين .

قال ادوارد ناوموف : «لقد كان من الصعوبة بمكان تفسير هذه النقطة لبعض العلماء . فهؤلاء يتوقعون من الكائنات البشرية ان ترد جميعها الفعل كآلات . ولا يبدو عليهم انهم يفهمون ان حقل

قوتهم الذاتي يمكن ان يتداخل مع حقل قوة السيدة ميخائيلوفا. فطبع هذه الاخيرة عصبي للغاية وقابل أشد القابلية للاثارة . وبعض اولئك العلماء ، ممن يعوزهم التبحر في علم النفس او المعلوماتية الحيوية ، يصدرون بلا علمهم اشعاعات مناوئة ، فكأنهم يسقطون ريبيتهم التي يسجلها الوسيط . انه لفي مستطاعنا ، بالرغم من كل شيء ، الحصول على تظاهرات سيكوكينيزية ، لكن السيدة ميخائيلوفا تحتاج الى سبع ساعات متواصلة في حضور مراقبين شكاكين لكي تجعل ابرة البوصلة تدور . تشكل التأثيرات السلبية عقبة اكيدة اذن . اما في جو من المؤازرة والتعاطف ، فان الوسيط يستطيع ان يحرك الابرة في أقل من خمس دقائق» .

ان تاريخ حقل القوة الانساني ، تلك الفيلجة من الطاقة التي تغلفنا بشتى اشكالها، قد بدأ لتوه ليس الا. ولا يملك السوفياتيون اجهزة الدكتور سيرغييف الكاشفة لتسجيل اهتزازات ذلك الغلاف عن بعد فحسب ، بل يبدو ايضا انهم قد اكتشفوا وسيلة لتصويره (٥) .

هكذا بدأت ترتسم صورة جديدة للكائن الانساني الذي لا يعود ، والحالة هذه ، مخلوقا معزولا ، بل كائنا غاطسا في وسط دينامي ومتجانس ، يتوافق رد فعله مع تأثير كل كائن وكل شيء يحيط به ، ويفعل فيهما بدوره . ان الحقول المغنطيسية الاهتزازية الخاصة بالآلات والارض والقمر والشمس ، والحقول التي تصدر عن افكار كل واحد منا وانفعالاته ، تؤثر جميعها على حقول قوة جسمنا ، وبالتالي ، كما يقول الروس ، على قدراتنا

---

٥ ـ الاشارة هنا الى الجهاز الذي اكتشفه الزوجان كيرليان لتصوير حقول الجسم الكهربائية . ـم ـ

الميتانفسية .

لقد استطاع الدكتور سيرغييف مؤخرا الوصول الى اكتشاف مذهل . فقد وصل اجهزته الكاشفة عن بعد بجسم انسان ميت من وجهة النظر السريرية . كانت الاجهزة التقليدية قد توقفت عن تسجيل اي ذبذبة مخية واي خفقان قلبي . ومع ذلك ، استمرت اجهزة الكشف الجديدة تعمل ! فعلى بعد ٤ امتار من الجسم الهامد الحياة ، كانت حقول القوة الكهرطيسية تهتز . ويبدو ان قدرا معينا من الطاقة قد تحرر .

لقد اشار المستبصر والمتخاطر الشهير آيلين غاريت ، رئيس جمعية نيويورك الباراسيكولوجية ، الى انه كان يشاهد دوائر لولبية من الطاقة تغادر جثث الافراد في الايام الثلاثة الأول التي تلي وفاتهم . فهل هي الظاهرة عينها التي سجلتها اجهزة سيرغييف الكشافة ؟

ثمة واقعة ابعث ايضا على الاستغراب : فالمنحنيات التي سجلها الجهاز الكاشف على الجسم كانت شبيهة بالرسم البياني الذي سجله الجهاز عينه لحظة تحريك الاشياء عن بعد من قبل ميخائيلوفا . وفي كلتا الحالتين ، الموت وتأثير السيكوكينيزيا ، كان قدر معين من الطاقة يتحرر ، على ما يبدو .

صرح الدكتور رجداك ، العالم التشيكوسلوفاكي البارز الذي يعمل في معهد براغ العسكري : «لقد تجاوزت الاعمال الاخيرة للدكتور سيرغييف الطريقة القديمة التي كانت ترصد التلكينيزيا من الخارج . ففي وسعنا الان ان نكشف ونسجل بواسطة ادواتنا تلك الملكات الانسانية الخارقة . وبذلك تكون قد خطيت الخطوة الاولى نحو تفهم ذلك الشكل الجديد من الطاقة والسيطرة عليه» .

يقول احد المراقبين الغربيين ، وهو الدكتور يورجن كيل من جامعة تاسمانيا (اوستراليا) ، من جانبه : «رأى العلماء الروس والتشيكيون ، اثناء المؤتمر ، الى الظاهرات الميتاعادية على انها احداث فيزيائية لا بد ان تتم السيطرة عليها ذات يوم نظير سائر

ظاهرات العلوم الكلاسيكية . والطريقة التي اخذ بها السوفياتيون مدهشة وتستأهل ان توليها الاقطار الغربية اهتمامها» .

ثمة شيء يبدو واضحا في جميع الابحاث التي اجريت على ميخائيلوفا وجميع التقارير التي تؤكد على حدوث تغيرات مذهلة في الذبذبات المخية وخفقان القلب والحقول الكهرطيسية : فالمشنعون على نليا يفتقرون الى الخيال باتهامهم المرأة باستخدام مغنطيس وأسلاك خفية . فلو افلحت المرأة في تعديل الرسم البياني لذبذباتها المخية على ذلك النحو الجذري بواسطة مغنطيس او اسلاك خفية ، فان هذا العمل يشكل بحد ذاته ، والحالة هذه، حدثا فائقا للعادة .

كيف ينبغي ان ننظر الى تهمة الغش والاحتيال الموجهة الى ميخائيلوفا ؟ وهل تفتقر كل الافتقار الى اي اساس او سند ؟

ينبغي ان نوضح ان نليا ميخائيلوفا لم تقتحم مسرح العلم السوفياتي بصورة مفاجئة بوصفها وسيطة سيكوكينيزية ، ذات ملكات معجزة . فقبل عدة سنين كانت نليا نزيلة في مستشفى لينينفراد قيد النقاهة . وكانت تكرس وقتها الحر للتطريز . ذات يوم حملت اليها الممرضة كيسا من مكبات الخيوط المتعددة الالوان ، فدست نليا يدها في الكيس واخرجت منه ، من غير ان تنظر فيه ، مكبات الخيط الاصفر والخيط الاخضر . وحين فتحت يدها ، ادركت للحال انها استطاعت ان تختار من قلب الكيس ، بين الالوان المتعددة ، ومن دون ان تراها ، لون الخيط الذي تريده بالضبط .

كانت يدها هي التي ميزت ، بنوع ما ، الالوان .

بعد ان رجعت نليا الى بيتها، طالعت مقالا في احدى الصحف حول روزا كوليشوفا التي كان يقال انها قادرة على رؤية الالوان بيديها . وفكرت نليا بينها وبين نفسها مهتاجة : «انا ايضا استطيع ان افعل مثلها !» . وانتهزت ذات يوم سانحة فحصها

طبيا لتخبر طبيبيها ، فينبورغ وبيليائيف ، بالحادثة . ومن سخرية الاقدار ان الدكتور فينبورغ ، الذي كان يقف موقفا تشكيكيا جازما من الرؤية غير الشبكية والمواهب فوق العادية بوجه عام ، صار فيما بعد واحدا من اشرس المدافعين عن وجود هذه الملكات .

سرعان ما قاد نليا اكتشافها لمواهبها الجديدة الى ملاقاة واحد من اعظم علماء الفيزيولوجيا في الاتحاد السوفياتي ، الدكتور ليونيد فاسيلييف . وطفق هذا الاخير يجري سلسلة من الاستبارات المتقنة لدراسة مواهب ميخائيلوفا ، ثم ما عتم ان نظم لها عرضا خاصا امام اختصاصيين علميين ذوي شهرة . وقامت ميخائيلوفا امام اولئك المشاهير بعرض وصفته الصحافة المتخصصة بأنه كان آية في النجاح .

تساءل الدكتور فاسيلييف عن الكيفية التي تتم بها الرؤية عن طريق الجلد . فاذا كانت يدا ميخائيلوفا قادرتين على الرؤية ، فلعل نوعا مجهولا من الطاقة ينبثق منهما . واذا كانت المسألة مسألة طاقة ، فلعل مفعولها يتظاهر بأشكال اخرى ، وليس بالرؤية الجلدية وحدها . واثناء تجربة مع ميخائيلوفا ، استخدم فاسيلييف اكتشاف باحث يوناني شهير ، الدكتور تاناغراس ، الذي كان قد اثبت ان واحدا من الذين اجرى تجاربه عليهم يستطيع ان يجعل ابرة البوصلة تدور بمجرد بسط يده فوقها .

وضع فاسيلييف بوصلة امام نليا وطلب اليها ان تحاول . لم تكن هذه الاخيرة قد جربت قط تجارب من هذا النوع ؛ وعليه من غير المحتمل ان تكون قد استعدت مقدما لعملية غش او احتيال. حين بسطت يديها فوق البوصلة ، دارت الابرة. اكتشف الدكتور فاسيلييف اذن لدى نليا ملكة سيكوكينيزية ممتازة . وعلى الاثر اجرى سلسلة كاملة من تجارب السيكوكينيزيا . وسرعان ما اكتشف الدكتور انه في وسع ميخائيلوفا ايضا ان تحرك الاشياء

عن بعد ، بقوة السيكوكينيزيا . واثناء العديد من التجارب التي نفذتها ميخائيلوفا على مرأى من العلماء ، سألها واحد منهم ان تعدل منسوب تدفق الرمل من ساعة رملية . وفي الحقيقة ، لم تؤثر ميخائيلوفا على تدفق الرمل ، بل جذبت اليها ، عن بعد ، الساعة الرملية ذاتها .

قبل تعرف قدرات نليا السيكوكينيزية تعرفا تاما ، تورطت عن صواب او خطأ في قضية تهريب قطع نادر . ومثل هذه النشاطات غير المشروعة رائجة في كل مكان من روسيا ، لكنها تعاقب باشد العقوبات . وحكم على ميخائيلوفا بعقوبة سجن ، لكنها انقذت بفضل تدخل علماء بارزين ـ ومنهم الدكتور فاسيلييف ـ تشفعوا لها بقدرتها العقلية ، فحبست السلطات المتخاطرة في مستشفى .

يقول الدكتور رجداك : «ان الاتهامات بالغش والاحتيال لا تمت بصلة الى ملكاتها التلكينيزية . فلم يكتشف قط اي مغنطيس على جسم السيدة ميخائيلوفا . اما معهد القياسة الذي درس حالة نليا ، فقد اكتشف فقط زيادة في الحقل المغنطيسي حول جسمها ، لكنه لم يكتشف اي مغنطيس مخفي . بيد ان المراقبين، بدلا من ان يمحصوا الظاهرة بمزيد من التعمق ، اكتفوا بالتصريح بانه «ربما كان في مستطاع المرأة ان تخفي مغنطيسا» .

ان كلا منا يملك حقل قوة يغلف جسمه ، لكن حقل قوة نليا اقوى من المعدل الوسطي . وقد اكد ذلك جميع العلماء الذين درسوا حالتها . غير انه لم يخطر في بال تقنيي معهد القياسة ان المقدرة التي اظهرتها نليا على تكثيف حقل قوتها يمكن ان تكون اساس ملكتها السيكوكينيزية .

لقد اكدت مجموعة من ابرز اهل العلم في الاتحاد السوفياتي، بالاضافة الى رجداك وسيرغييف وناوموف ، ان موهبة نليا السيكوكينيزية ليس فيها غش او تدليس .

لقد اختبر الدكتور رجداك بنفسه ميخائيلوفا ، وعرض في البرافدا التشيكوسلوفاكية نتيجة تحقيقه . كتب يقول :

«قصدت أسرة ميخائيلوفا مساء ٢٦ شباط ١٩٦٨ . كان يرافقني صحافي من اصدقائي ، هو السيد بلازيك ، وكذلك الدكتوران زفيريف وسيرغييف . وكان حاضرا ايضا زوج السيدة ميخائيلوفا ، وهو مهندس . وقد فحص الدكتور زفيريف السيدة ميخائيلوفا فحصا جسمانيا دقيقا للغاية . ولم تسجل اي اداة من ادوات القياس التي أمررناها عليها اي علاقة تنم عن احتمال وجود مغنطيس او شيء ما تخفيه في جسمها .

«فحصنا الطاولة بعناية ، وطلبنا من السيدة ميخائيلوفا اثناء التجارب ان تغير مكانها حولها اكثر من مرة . وامررنا بوصلة على طول جسمها ، وعلى الكرسي والطاولة ، فلم يطرا اي تبدل ظاهر على الابرة . طلبت اليها ان تغسل يديها . ففعلت . ثم ركزت ذهنها ، وجعلت ابرة البوصلة تدور لاكثر من عشر مرات . ثم حركت عن بعد البوصلة في علبتها وعلبة ثقاب وحوالي عشرين عود كبريت ، والكل في آن واحد . ووضعت سيجارة امامها ، فطفقت هي الاخرى تتحرك ما ان القت عليها نظرة . وفيما بعد قطعت تلك السيجارة ، لكن لم يكن في داخلها اي شيء غير عادي . وكانت السيدة ميخائيلوفا تخضع ، بين كل سلسلة واخرى من الاختبارات ، لفحص جسماني جديد من قبل الدكتور .

«وضعت خاتم زواجي الذهبي على الطاولة . فتحرك بسرعة اكبر من سائر الاشياء الاخرى . وقد علمت انه مهما تكن طبيعة تلك الطاقة ، فان معدن الذهب اكثر حساسية بها من اي مادة اخرى . كان يكفي المراة ان تمرر يدها فوق الخاتم الراقد على الطاولة حتى يشرع بالتحرك في اتجاهها . ولا بد لنا من ان نستبعد كل فرضية عن سلك او اداة ما مخفية .

«لقد كان مصدر عيدان الثقاب وعلبة الثقاب جيوبنا

بالذات ، وما كان في مقدور السيدة ميخائيلوفا البتة ان تعدّها وتهيئها مقدما . وقد سألناها ان تحرك عيدان الثقاب لا بجذبها اليها ، بل بإبعادها عنها . ورجوناها ايضا ان تحرك عود ثقاب اخترناه بأنفسنا من مجموعة العيدان من دون ان تحرك غيره معه». وحسبما جاء في مقال الدكتور رجداك ، فقد نفذت المراة تلك المهام جميعا .

يتابع الدكتور رجداك فيقول : «وضعنا بعد ذلك امام السيدة ميخائيلوفا بوصلتين وامرناها بان تدير ابرة واحدة منهما فقط . ففعلت» . ويخلص رجداك الى الاستنتاج بانه في مستطاعها ان توجه طاقتها السيكوكينيزية في اتجاه او في آخر ، حسبما تشاء .

«اخترت بنفسي من صوان السفرة كؤوسا وأوعية : فناجين، صحونا صغيرة ، ومملحة زجاجية . وبالنظر الى انني اخترت بنفسي هذه الاشياء ، فمن المتعذر ان تكون السيدة ميخائيلوفا قد حضّرتها بصورة من الصور . ولقد كانت زنة القطعة منها ٢٥٠ غراما . ولقد حركتها السيدة ميخائيلوفا كلها بلا صعوبة . وبناء على طلبنا ، تمكنت كذلك من تحريك اشياء موضوعة على كرسي او على الارض . ولقد كان الغش من رابع المستحيلات نظرا الى انها كانت جالسة في غرفة حسنة الاضاءة وتحت مراقبة دقيقة من قبل الدكتورين زفيريف وسرغييف والسيد بلازيك وانا نفسي» .

وروى لنا الدكتور رجداك :

«اجرينا استبارا آخر غريبا حقا . فقد ملأنا وعاء زجاجيا بدخان السجاير ، وقلبناه ، ووضعناه على الطاولة امام السيدة ميخائيلوفا . وعن بعد ، ومن خلال ذلك الناقوس الزجاجي ، امكنها ان تقطع الى شطرين ذلك الدخان ، كما لو انه من مادة صلبة » .

اصاب السيدة ميخائيلوفا ، بعد تنفيذ تلك التجارب ، انهاك شديد . فقد توقف النبض تقريبا . وما عاد بوسعها ان تتحرك ، وامسى وجهها شاحبا ومهزولا . وبموجب تقرير الدكتور زفيريف ، اشار جهاز التخطيط الكهربائي للقلب الى وجود اثارة انفعالية شديدة ، والى عدم انتظام في ضربات القلب . ودل التحليل على ارتفاع نسبة تركز السكر في الدم ، وطرأ اضطراب على افراز الفدد الصم . واصاب الجسم كله ضعف عام ، كما لو بعد صدمة قاسية . وفقدت السيدة ميخائيلوفا حاسة الذوق ، واشتكت من اوجاع في الذراعين والساقين ، وباتت عاجزة عن تنسيق حركاتها ، وشكت من دوار . وقالت فيما بعد ان نومها قد اضطرب .

حضرنا عرض فيلم آخر ، شاهدنا فيه ميخائيلوفا تؤدي تمارين مشابهة على مفعول السيكوكينيزيا . كان قسم من الفيلم قد صور في الشقة ، والقسم الآخر في الحديقة . وطفقت الاشياء المحيطة بالوسيطة تدور وتنزلق في اتجاهات شتى . وقد وصلت مؤخرا الى البلدان الفربية بعض افلام ميخائيلوفا .

لقد فحص ايضا نليا اختصاصيون علميون من اقطار الكتلة الشرقية الاخرى ، وبخاصة الدكتور جيورجي لوزانوف ، مدير معهد علم الايحاء والباراسيكولوجيا في بلغاريا . ولقد كان شاهدا على استبارات السيكوكينيزيا التي اجريت على ميخائيلوفا في لينينغراد ، وفي نيته ان يدعوها الى مختبره بالذات .

لقد كتب الدكتور ميلان ريزل ، الاختصاصي السابق في الكيمياء الحيوية والباراسيكولوجيا في براغ واللاجىء الى الفرب ، كتب في الولايات المتحدة مقالات اتهم فيها السيدة ميخائيلوفا بامكانية ارتكاب الغش . لكن نظرا الى ان الدكتور ريزل كان اول عالم شيوعي يتلقى جائزة ماكدوغال لعام ١٩٦٣ عن عمله في مضمار الظاهرات الميتاعادية ، فان العديد من العلماء السوفياتيين يبدون حياله بعض الريبة ؛ زد على ذلك انه ما

استطاع قط ان يستبر نليا ميخائيلوفا بنفسه . يبدو اذن ان شهادته تستند الى المقالات غير الموثقة التي كتبها فلاديمير لفوف.

بعد المؤتمر ، حدثنا فيزيائي شاب يشبه شبها غريبا الروائي باسترناك ، عن استباراته الخاصة التي اجراها على ميخائيلوفا. وكان قد ادلى بتقرير عنها في المؤتمر . «انني اعلم ، بصفتي فيزيائيا ، ان التلكينيزيا لا يمكن ان يكون لها من وجود . لكني اعلم ايضا انني كنت بنفسي شاهدا عليها. ولقد اثارت التلكينيزيا اهتمام جميع الفيزيائيين في مركز دوبنا الذري . لكن يبدو عليهم وكأنهم يعتقدون بأنهم اذا ما آمنوا بوجودها فلا مناص لهم من ان يهجروا الفيزياء ليشرعوا بدراسة الباراسيكولوجيا» .

سألناه :

ـ ماذا يقول عن ميخائيلوفا الفيزيائيون الآخرون ؟

ـ في استبار هام اجري في موسكو ، تولت مجموعة من الفيزيائيين ، تضم علماء مشهورين ، تصميم مخطط التجربة بكاملها . فقد وضعوا عدة اشياء غير مغنطيسية داخل مكعب من الزجاج الواقي . وقامت نليا بتحريك تلك الاشياء بقوة السيكوكينيزيا . فافتكر العلماء عندئذ : «انه خطأ في التجربة ، ولعل نمطا معينا من الطاقة الكلاسيكية تسرب الى الزجاج الواقي من خلال جزء الميلمتر الذي يمكن ان يفصل بين حافته الداخلية وبين الطاولة» . قال شفيتز ذلك وهو يضحك ، ثم اضاف: «لقد اثارت التجربة انتقادات كثيرة ، وكذلك التقرير الذي وضعوه هنا ، بحيث قر قرارهم على اخضاعها لسلسلة اخرى من الاستبارات» .

وسألناه :

ـ اذا كان في مستطاع ميخائيلوفا تحريك الاشياء فلعل في مقدورها ايضا ان تؤثر على الجزيئات الكيمياوية كنترات الفضة في الطبقة الفوتوغرافية الحساسة ؟ وبعبارة اخرى ، لعل في

مستطاعها ان تظهر صورة على ورق حساس ؟

فأجاب شفيتز :

ـ اجل . في مستطاعها ان تظهر على الورق الفوتوغرافي حرف A او O . وفي مقدورها احيانا ان تظهر صورة وجه على الورق الحساس بعد ان تراه .

لعل اكتشاف حقل القوة الاهتزازي الذي يكتنف ميخائيلوفا اثناء نشاطها السيكوكينيزي سيلقي بعض الضوء على القدرة العجيبة التي يمتلكها تيد سيريوس ؛ فهو يسقط ، على حد ما يقال ، صوره الذهنية الى حد التأثير على فيلم من نوع بولارائيد. والاختصاصيون السوفياتيون ، الذين يجرون التجارب على نليا، يتقصون جميع المعلومات المتعلقة بحالة تيد سيريوس و«صورته الذهنية» .

في اذار ١٩٦٨ ، كتب الدكتور ترلتسكي ، استاذ كرسي الفيزياء في جامعة موسكو : «تبدو لي عروض التلكينيزيا التي قدمتها ميخائيلوفا طبيعية . فهل من الممكن ان توجد قوى ما هي لا بالكهرطيسية ولا بالجاذبوية (٦) ، وقادرة في الوقت نفسه على تحريك الاشياء كما في حالة ميخائيلوفا ؟ بلى ، أعتقد بصفتي فيزيائيا ان احتمالا كهذا وارد . كيف ترتبط هذه القوى بالانسان وبدماغه ؟ أن ابحاثنا العلمية لم تتقدم بعد بما فيه الكفاية للاجابة على هذا السؤال» .

قوة جديدة ، طاقة موصولة بالافراد ، ذات طبيعة معروفة او مجهولة ، قابلة للتوجيه بالقوى الذهنية. لهذا تثير المسألة اهتمام السوفياتيين المتزايد . ولا يجوز لنا ان نتصور ان الامر يتعلق فقط بالقدرة على تحريك عيدان ثقاب موضوعة على طاولة . فأهداف السوفياتيين العلمية مغايرة تماما : فهم يسعون الى

---

٦ ـ نسبة الى الجاذبية الارضية . ـ م ـ

اكتشاف قوانين عامة خلف هذه الوقائع ، المثيرة بكل تأكيد لكن الثانوية . وفي غابر الايام ، لم يكن تحليق طيارة الورق الملتقطة للبرق الجوي هو الذي حظي بالاهمية ، وانما كون تلك التجربة قد افسحت في المجال لوضع قوانين الكهرباء .

يصرح الدكتور الكسي غوبكو، من معهد علم النفس الاوكراني: «سوف نستخدم ظاهرات السيكوكينيزيا والادراك فوق الحسي في مضمار التربية ولتسيير الآلات ذهنيا» . ويجزم سوفياتيون آخرون : «سوف نطبق هذه الطاقة الحيوية على السيرورات الفيزيائية او الكيميائية ، وكذلك في الطب . ولقد استطاع البحث السوفياتي الدائر حول ميخائيلوفا ان يتوصل من الان الى معلومات ثمينة حول الظاهرة المحيرة المتمثلة بالمغنطيسية الحيوية، وهي حقل طاقوي آخر يحظى بدراسات متزايدة في الاتحاد السوفياتي . ان ذهن ميخائيلوفا يستطيع ان يحدث اهتزازا في الحقول الكهرطيسية التي تحيط به . وفي انكلترا ، اكتشف بيكر وديلافار ان الحقول المغنطيسية تستطيع ، مهما تكن ضئيلة ، ان تحدث ، اذا ما اهتزت ، تناقصا في نسبة الكولسترول وفي عدد الكريات البيض في الدم .

يعتقد بعض العلماء الشيوعيين ان هذا الشكل الجديد من الطاقة التي تشعها الكائنات البشرية قابل للالتقاط والتخزين . بيد ان السيكوكينيزيا تنطوي على بعض الاخطار . فعلى امتداد شهور، ادت ظاهرات النشاط السيكوكينيزي بفعل البولترجست الى إحداث خلل في عمل المؤسسات الكهربائية ، والى تحرك قطع من الاثاث في منزل واقع في روزنهايم في المانيا الغربية . ويعلق الناطق بلسان الادارة البلدية للمدينة ، وكان قد كلف بالتحقيق في القضية ، على الحدث على النحو التالي في مجلة **الباراسيكولوجيا** (المجلد ٣ ، العدد ٣ ، سنة ١٩٦٩) : «لا يمكن للمرء ان يفكر بلا تخوف بالآثار المفجعة التي قد تنجم في ميدان

التكنولوجيا اذا ما امكن لمثل تلك القوى ، الخارجـــة على ارادة التقنيين ، ان تؤثر على محطات التقوية الكهربائية وأن تخل بعمل كل صنوف الاجهزة والمعدات . ولهذا السبب ، فان من دواعي الصالح العام ، على نطاق الانسانية قاطبة ، ان يحاول اهـــل العلم السيطرة على تلك القوى الغامضة التي لا تزال تفلت مـن قبضة معرفتنا .

«اننا مرغمون على التسليم بوجود قدرة لا تزال التكنولوجيا تجهلها الى اليوم ، ولا يسعنا ان نحدد لا طبيعتها ولا قوتها ولا اتجاهها . ان هذا الشكل من الطاقة يقع خارج نطاق فهمنا» .

ان الامر لا يستوجب اكثر من بضع ثوان من تركيز تلك الطاقة المجهولة وتوجيهها نحو احدى المنشآت الحديثة ، من قواعـــد اطلاق الصواريخ الى السدود الكهرمائية الى اجهزة توزيع الطاقة في مدينة كبيرة ، حتى تحدث فوضى عامة . واننا لنديـــن لباراسيكولوجي اميركي بالتعليق التالي : «من الممكن ان تغـدو السيكوكينيزيا السلاح المطلق الجبروت» .

في صيف ١٩٦٩ تلقينا من مصدر موثوق نبأ يفيد ان تجارب اخرى حول السيكوكينيزيا وحول ميخائيلوفا هي قيد الاجراء في الاتحاد السوفياتي . ويفترض هذا العمل بحثا معمقا في طبيعة الحقول التي تحيط بجسمها . وقيل لنا ايضا ان السوفياتيين اكتشفوا اشخاصا آخرين لديهم مواهب سيكوكينيزية .

ونقل الينا اخيرا ان ابحاثا جديدة وسريـــة في مضمـــار السيكوكينيزيا تجري الان في تبليسي في جيورجيا . وعلى كل حال ، صرح علماء سوفياتيون انهم مشغولون بالتحقق من صحة تصريح عالم بيولوجي فرنسي يزعم انه في مستطاع الانسان ، بقوة السيكوكينيزيا ، التأثير على سرعة تحول النشاط الاشعاعي (اليورانيوم المرصص) . فقد طلب ذلك الفرنسي ، الذي يؤثر ان يبقى اسمه مغفلا مع انه من الشخصيات المعروفـــة في الادب الباراسيكولوجي ، طلب من بعض الشبان ان يحاولوا ذهنيـــا

تسريع او تبطيء تحول المادة الاشعاعية النشاط . ويزعم صانع التجربة ان المداد جيجر (٧) اثبت ان سلسلة التجارب المنفذة قد نجحت . ومن المفيد ان نلاحظ ان ذلك المجرب اختار مجموعة فتيان تتطابق اعمارهم مع العمر المتوسط الذي تحدث فيه عادة ظاهرات البولترجست . لكن الروس معنيون بالطبع ، في المقام الاول ، بفكرة قدرة تلك القوة السيكوكينيزية الغامضة على التأثير على المادة الاساسية . ولعل نليا ميخائيلوفا قادرة ايضا على التأثير على معدل النشاط الاشعاعي .

يبدو ان نليا حساسة متعددة القدرات ، شانها شان اوسابيا بالادينو ووسطاء سيكوكينيزيين مشهورين آخرين في مطلع هذا القرن . فهي تمارس التخاطر والاستبصار والقياس النفسي ، ومحبوة بقدرات سيكوكينيزية . بيد ان السوفياتيين لا ينظرون اليها على انها نجمة مجتمعية او شخصية خارقة للمألوف . بل يرون في نليا مساعدا ثمينا للبحث العلمي . والضجة المثارة حول ملكات ميخائيلوفا السيكوكينيزية لا تتركز حول شخصية الوسيطة بالذات ، وانما على ما ينجم عنها من اكتشافات علمية نظير اكتشاف الدكتور سيرغييف : اعني ارتباط الظاهرات السيكوكينيزية بالحقول البيولوجية الاهتزازية . اما تهم الغش والاحتيال المتعلقة باستخدام مغنطيس او اسلاك مخفية في «مواضع العورة» ، فلا تهم بكثير او قليل البحث العلمي العصبي ـ الفيزيولوجي . وتساهم نليا في فتح آفاق متجددة امام العلماء . وفي هذا السبيل تتحمل التهجمات الشخصية التي يشنها عليها صحافيون شكاكون يتسببون لها في تلقي عدد غير قليل من الرسائل والمكالمات الهاتفية المدائية . وضغط الجمهور

---

٧ ـ مداد ذري ينسب الى اسم مصممه هانس جيجر ، عالم الفيزياء الالماني .

هذا يتضافر ، بالنسبة الى ميخائيلوفا ، مع المجهود الجسماني الهائل الذي تنفقه في التجارب السيكوكينيزية .

بوسعنا ان نأمل ان نليا ميخائيلوفا ، التي اعتادت على الصراع منذ حداثتها والتي شهدت حصار لينينغراد ، لن تشيح عن الكفاح ما دام العلماء يعتقدون انها تساعدهم على اكتشاف طاقة الانسان المجهولة عندما يربطونها كرائد فضاء وسط مختبر مكتظ بالادوات .

الفصل السابع

الفكر مقابل الفضاء: بعدان مطلوب استكشافهما

حين ذاع نبأ مفخرة غاغارين ، اول رائد للفضاء ، استولى انفعال شديد على سكان موسكو ، واحتشدت الجموع في الساحة الحمراء ، وتفجرت الفرحة الشعبية . وعاشت الامة كلها في انتظار تجليات فضائية تالية .

وقد أصيب الباراسيكولوجيون بدورهم بعدوى روحانية الفضاء . فهم يداعبون الحلم في استكشاف بعد الفكر وبعد الفضاء الكوني في آن واحد . وكان ابو الصواريخ الروسية ، ك.إ. تسيولكوفسكي ، قد صرح في الثلاثينات من هذا القرن : «في عصر الاسفار الفضائية ستظهر الحاجة بوجه خاص الى الملكات التخاطرية . ولسوف تساهم هذه الملكات في تقدم

الانسانية العام . وفي الوقت الذي يفترض فيه بالصواريخ الفضائية ان تحمل الناس باتجاه اسرار الكون الكبرى ، يمكن لدراسة الظاهرات الميتانفسية ان تقودنا الى معرفة اسرار النفس الانسانية . وفك سر هذا اللغز هو ، على وجه التحديد ، الذي يفتح امام الانسان ارحب الآفاق» .

بعد ثلاثين عاما ، في ١٩٦٧ ، كتبت مجلة **الانباء البحرية** الروسية ما يلي : «يظهر انه في مستطاع رواد الفضاء ، اثناء دورانهم الفلكي ، ان يتواصلوا تخاطريا فيما بينهم بأسهل مما يفعلون مع اهل الارض . وقد ادرج في برنامج رواد الفضاء التدريب على العامل بسي اثناء التحضير للاسفار الفضائية . وتعقد الآمال على ان يساعدهم هذا التدبير على الاحساس وعلى تحاشي اخطار محتملة» .

يذهب الفكر بالباراسيكولوجيين من الان الى الاسفار في الفضاء ما بين المجرات . ويقدرون انه من الممكن الاعتماد على التخاطر كلغة مشتركة حينما سيلتقي رواد الفضاء بأولى السفن الفضائية الآتية من مجموعات شمسية اخرى . ومن الممكن ان يشكل إ.ف.ح وسيلة اتصال بين الارض وحضارات المجرة الاخرى . وقد يكون من الممكن ايضا الاعتماد على إ.ف.ح للاتصال مع ركاب الصحون الطائرة ــ اذا ما وجدوا ــ او لفهمهم . غير ان السوفياتيين ، بانتظار ذلك اليوم ، يكرسون جهودهم للمخلوق الموجود من الان في متناول مختبراتهم : الانسان .

يطيب للعلماء لو يتمكنون من تزويد رواد الفضاء بقدرات نفسية شخصية وفعالة تعزز وسائلهم الالكترونية اثناء الطواف في الفضاء . ولو وضعت هذه الملكات موضع التطبيق العملي فعلا ، لكان معنى ذلك ارسال وتلقي رسائل مرموزة بواسطة إ.ف.ح . وقد مر بنا ان الارسالات التخاطرية استطاعت ، على الارض ، تخطي جدران الغرف المعزولة الصادّة للذبذبات الراديو .

ومن الممكن للتخاطر ، نظريا ، ان يقوم بدور وسيلة اتصال مستمدة في المناطق الفضائية التي لا يعمل فيها الراديو ، وكذلك في الحالات التي يتطلب فيها الاتصال بالراديو مددا طويلة قد تزيد على الساعة طردا مع توغل السفن الفضائية الى مسافات ابعد فأبعد في الفضاء الكوني . وقد بدات فكرة الاتصال التخاطري المرموز ترى النور في نهاية الخمسينات ، يوم وضع القمر الاصطناعي سبوتنيك في مداره . فبفضل الرسائل المرموزة كان في مستطاع الباراسيكولوجيين ان يرسلوا ويتلقوا معلومات ذات طابع خاص ومجرد في كثير من الاحيان ، علما بأنه ما كانت تتناقل من قبل تخاطريا سوى صور صامتة .

في آذار ١٩٦٧ ، بعث السوفياتيون برسالة تخاطرية مرموزة من موسكو الى لينينغراد . وقد اعتمدوا ، في تنفيذ هذه التجربة ، على معارفهم المكتسبة حديثا في فيزيولوجيا إ. ف.ح . كان المتلقي كارل نيقولائيف ، والمرسل يوري كامنسكي . وقد حاول كامنسكي ان يتخيل بكل ما اوتي من قوة على الاقتناع الذاتي انه يسدد ضربات الى نيقولائيف . تصور نفسه يضربه على وجهه وساقيه ، ويرمي به ارضا . وأثناء هذه المصارعة الوهمية، كانت اطول جولة ــ ومدتها خمس وأربعون ثانية ــ تمثل مَدّة حسب نظام مورس . اما الجولات الاقصر زمنا ــ ومدتها خمس عشرة ثانية ــ فكانت تمثل نقطة . وما كان كامنسكي يعرف الكلمة التي يحاول على هذا النحو ان ينقلها بالتلاكم عبر الفضاء بدءا من موسكو . بل كان قد سلم فقط لائحة بزمن الجولات المتتالية . وفي لينينغراد وصل الدكتوران بافلوفا وسيرغييف جمجمة نيقولائيف بجهاز لتخطيط المخ كهربائيا وبسائر معدات المراقبة. وبدا نيقولائيف يتلقى الدفقات التخاطرية . وراح جهاز التخطيط الكهربائي للمخ يسجل طول كل تبليغ بمداته ونقطه . وكان نيقولائيف ، الواعي بالانفعالات الواصلة اليه ، يحدد ايضا مدة

كل هجمة نفسية . كانت الكلمة المنقولة مؤلفة من سبع علامات مورس . وفي التجربة الاولى ، تلقى نيقولائيف ، وهو يحسب طول كل علامة مرسلة ، علامات مورس السبع التي كانت موجهة اليه ، بلا زيادة ولا نقصان . وحين فك رموزهـــا اكتشف ان كامنسكي ارسل من موسكو الى لينينغراد ، ومن دماغ الى دماغ، كلمة **ميغ** . وهذه الكلمة تعني «لحظة» ، وهي تمثل اتصالا لحظيا يحلـــم الباراسيكولوجيون بتحقيقـــه اولا بين مينســـك وبينسك ، ثم بين الارض والسفن الفضائية .

لقد صممت واختبرت وطورت في المختبرات التشيكيـــة والبلغارية مجموعات من الرموز التخاطرية المعقـــدة . لكن اول باحث وضع حجر الاساس لهذا النظام هو انسان لم يفكر قط ، في ارجح الظن ، ان يضرب كائنا من كان على وجهه . انـــه دوغلاس دين ، الاختصاصي في الكهرباء الكيميائية ، والاستاذ في المعلوماتية ، والرئيس السابق للجمعية الباراسيكولوجيـــة الاميركية . ففي عام ١٩٦٠ سمع دين عن اكتشاف اكتشفه عرضا الدكتور فيفـــار من براغ . فقد اكتشف هذا الاخـــير ان الـPlethysmographe ، وهو جهاز يسجل تبدلات ضغط الدم ؛ يستطيع ان يعين اللحظة التي يكون فيها المريض واقعا تحت تأثير فكر الغير . وبمساعدة المهندسين تايتش وميهالاسكي من معهـد التصاميم الهندسية في نيوارك في ولايـــة نيوجرسي ، شرع دوغلاس دين بتحويل مقياس ضغط الدم القديم الى جهـــاز للتسجيل التخاطري يمكن استخدامـــه ذات يوم في الفضاء ، لصالح رواد الفضاء .

اكتشف في بادىء الامر شيئا خارقا للمألوف . فحين يركز المرسل التخاطري فكره على اسم شخص يرتبط بك بربـــاط عاطفي ما ، يمكن ان تتعرض لتبدل في ضغط الدم . واذا كنت ممددا في حالة استرخاء، فلن تدرك في وعيك التبليغ التخاطري . ومع ذلك ، ثمة شيء قد سجل ، شيء احدث في جسمك تغيرات

لا تقع تحت الادراك الحسي . ويبدو ان ٢٥ بالمئة من الافراد مؤهلون لتلقي هذا التخاطر اللاواعي .

لقد اثبت دوغلاس دين بوضوح ، قبل السوفياتيين ، وبمساعدة رسوم بيانية موضوعية سجلها جهاز ، ان التخاطر يستطيع ان يؤثر على السيرورات الفيزيولوجية في جسم الانسان .

في عام ١٩٦٤ قدم دين مشروعه المسمى ب «نظام الاتصال بسمي» الى رابطة الجمعيات التقنية في اول مؤتمر عن الفضاء انعقد في كاب كانافيرال . وبموجب النظام التخاطري الذي تخيله دين ، يركز المرسل فكره على اسم شخص او شيء له شحنة انفعالية بالنسبة الى المتلقي . ويشير عندئذ مقياس ضغط الدم ، الموصول بالمتلقي ، الى حدوث تبدل في ضغط الدم عند هذا الاخير . وهذه الاشارة تقابلها في نظام مورس فاصلة قصيرة (نقطة) . ثم يقطع الاتصال لحين معلوم من الزمن ، ويكون ذلك بمثابة فاصلة طويلة (مَدّة). وباستخدام اسماء مشحونة انفعاليا، امكن لدين الاتصال بين غرفة وغرفة ، ثم بين بناية وأخرى ، وأخيرا بين نيويورك وفلوريدا على مسافة ٢٠٠٠ كيلومتر .

قال لنا دين :

«سوف تستخدم في اغلب الظن في الاتصالات عبر الفضاء طريقة مشابهة لتلك . وارجح الظن ان الروس يعملون بدورهم في الاتجاه نفسه . ومن قبيل ذلك ، على سبيل المثال ، اننا حين سنكتشف المجموعة الشمسية ، وصولا الى المشتري فرضا ، فسينقطع الاتصال بالراديو مع السفينة الفضائية لمدة تتجاوز الساعة . ونأمل ان نتمكن ، بفضل التخاطر ، من اختصار هذا الفاصل في المواصلات . او يمكننا نظريا ، باستخدام الاستبصار او سبق العلم ، ان نقيم اتصالا لحظيا او شبه لحظي» .

ان جميع الباراسيكولوجيين الروس الذين التقيناهم يعرفون

مشروع دوغلاس دين ، وفـــي عام ١٩٦٦ نشرت صحيفـــة **كومسومولسكايا برافدا** خلاصة عن اعماله .

ان انظمة الاتصال **بسي** ، الاميركية منها والسوفياتية على حد سواء ، تستنـــد اولا ، في تلقي الرسائل ، الى استخـــدام العمليات الفيزيائية اللاواعية الناجمة عن التخاطر . وتكـــون السلسلة على الشكل التالي : فكر ــ نيقولائيف ــ خطوط بيانية ــ محلل ــ مفكك رموز . ويدخل الكائن الانساني في تركيب نظام الاتصال هذا ، ولكنه يمثل فيه الجزء الاكثر حساسية : فلا يمكن لأي آلة ان تفني غناءه . وينطوي نظام دين على مزيـــة كبيرة : فليس من الضروري ان يكون المتلقي متخاطرا مدربا اتم التدريب. بيد ان الروس ، الذين تتوفر لديهم معدات متقنة وموارد مالية لا يتوفر نظيرها ، ولو من بعيد ، لدوغلاس دين ، يستطيعون ان يصمموا بفضل متلقيهم المتخصصين نظاما اكثر مرونة .

هل لدينا من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنهم بـــداوا باجراء ابحاث في هذا المضمار ؟

علق لويس باولز ، مدير مجلة **بلانيت** ، على خبر اوردته وكالة نوفوستي عن اهمية مؤتمر الباراسيكولوجيا الذي انعقد فـــي شباط ١٩٦٨ . فلاحظ أن العديد من مشاهير العلماء السوفياتيين يؤمنون ، على ما تشير الدلائل ، بأن ابحاث **بسي** لها اهميتها من أجل التقدم الى الامام سواء أفي مضمار المعرفة ام التكنولوجيا. «أكد عدد منهم ان رواد الفضاء قد يلجؤون ، في الرحــــلات الفضائية ، الى استخدام التخاطر للاتصال مع الارض او فيمـــا بينهم» . وقول باولز يؤكد الموقف الذي وقفه عالم روسي اثناء مؤتمر الملاحة الفضائية الذي انعقد في باريس عام ١٩٦٦ .

يبدو ان السوفياتيين يعملون بلا توانٍ في هذا المشروع . قال ناوموف : «اثناء واحدة من تجاربنا ، لبث نيقولائيف حبيس

غرفة سوداء (١) لمدة سبع ساعات متوالية . ونظرا الى انه كان مربوطا الى ادوات القياس ، فقد توجب تلقيمه الطعام بالملعقة» .

لقد تخلى السوفياتيون ، في مجرى جهودهم لتصميم نظام للاتصال بسي ، عن مبدأ الاكتفاء بارسال الصور التخاطرية . فقد حاولوا ارسال دفعات من الانفعالات . ثم انهم اجروا تجارب للاتصال تخاطريا عن طريق دفعات من الاصوات .

ركز كامنسكي فكره لينقل دفعات من الاصوات تضم فواصل طويلة وقصيرة بغية تبليغ كلمة بين مختبرين في لينينغراد . وكانت تلك الكلمة المرموزة تتألف من سبع اشارات مورس ، وقد نقلت كل اشارة منها على سبع دفعات . وتقول الدكتورة بافلوفا ان نيقولائيف تلقى في المرة الاولى خمس اشارات من اصل سبع. وفي المرة الثانية تلقى ستا . وامكن ، من خلال تركيب النتائج ، فك رموز كلمة «ايرا» . ثم وصل اسمان آخران بطريق التخاطر، الاول «جانين» ، والثاني – وليس في ذلك ما يدعو الى الاستغراب – «لينين» . ترى هل كان هذا النظام يستوحي استخدام الاسماء على النحو الذي تنص عليه الطريقة التي تخيلها دوغلاس دين ؟

قال ناوموف : «من اصل ٢١ رسالة مرموزة جرى نقلها تخاطريا ، تم تلقي ١٨ رسالة على الوجه الصحيح اثناء تلك التجارب . وطبيعي ان هدفنا ارسال رسائل اطول ، مما يعني أن علينا ان نصمم تركيبات جديدة . ودماغ المتلقي يأخذه ضرب من التعود ، وتغدو اجوبته مشروطة . علينا اذن أن نغير الرموز كل ربع ساعة تناوبا» .

افلح السوفياتيون ، باستخدامهم صورا تخاطرية ، في نقل كلمات مرموزة من موسكو الى طومسك ، على مسافة ٥٠٠٠

---

١ – اي غرفة التحميض . –م–

كيلومتر تقريبا . وانظمة الاتصال **بسي** هذه ، او على كل حال تلك التي حدثونا عنها ، لا تزال غير متقنة بما فيه الكفاية لتسمح لرواد الفضاء بلعب مباريات شطرنج بين ملاحي السفن الفضائية (ستشكل ممارسة لعبة الشطرنج في الفضاء ، في راي السوفياتيين ، واحدا من اكثر اشكال التخاطر شيوعا في المستقبل) . لكن سيكون من المستغرب الا يواصل الروس الدراسات بغية تحسين نظام الاتصال التخاطري في الفضاء . وحتى عالم محافظ نظير الدكتور ايبوليت كوغان ، مدير مجموعة بوبوف للمعلوماتية الحيوية ، صرح للصحافة السوفياتية «ان التخاطر سيجري تطبيقه في كل مرة يتعذر فيها استخدام وسائل اتصال اخرى» . وقال ان التخاطر «سيستخدم في الرحلات الفضائية ، اذا ما حدث توقف او عطل في الراديو اثناء الطيران. وفي مثل هذه الحال ، يكفي ان يجري تبليغ الرقم ٥ ، على سبيل المثال ، تخاطريا . وسيكون ذلك بمثابة إخطار لمحطة المراقبة الارضية بأن الراديو لا يعمل وبأنه من الواجب اتخاذ التدابير الضرورية . صحيح ان ذلك يستوجب اختصاصيين في الموضوع . لكن سيجري تجنيد هؤلاء الافراد من بين الموهوبين ميتانفسيا ، وسيخضعون لتدريب صارم» .

يعتقد كوغان ايضا انه سيكون في مستطاع البعثات النائية التائهة او المعرضة للخطر على سطح الارض ان ترسل نداءات استغاثة بطريق التخاطر . واذا ما تذكرنا قصة الاتصالات التخاطرية على متن الغواصات ، فمن الممكن ان نتصور ربط هذا النوع من السفن بمحطات على سطح الارض بواسطة شيفرة **بسي**. اما على المدى الطويل ، فسيكون في مستطاع القوات المسلحة ان تستخدم مثل هذا النظام في الاتصالات الصامتة والسرية للغاية.

هل سبق ان مارس رواد الفضاء الروس التخاطر على الارض او في الفضاء ؟ نجهل ذلك. ولعل الدكتور يوجين ب. كونيتشي،

الذي كان مدير التكنولوجيا الحيوية في قسم التكنولوجيا والبحث الانساني في الوكالة الاميركية للابحاث الفضائية N.A.S.A يعرف ذلك . ففي عام ١٩٦٣ ادلى امام مندوبي المؤتمر الدولي الرابع عشر للملاحة الفضائية المنعقد في باريس بالتصريح التالي: «ان طبيعة وماهية بعض ظاهرات الاتصال الكهرطيسي بين الكائنات الحية هما الان ، بحسب المعلومات الواردة ، موضوع بحث له الاسبقية على ما عداه في البرنامج الفضائي السوفياتي للرحلات الفضائية المأهولة» . واضاف كونيتشي قوله ان العلم الغربي قد بدأ ، ليس إلا ، بالاهتمام بتلك الظاهرات ، وذكر اعمال الدكتور هنري بوهاريخ، طبيب الاعصاب والباراسيكولوجي الاميركي .

في عام ١٩٦٧ نقل تقني اميركي آخر ، اهل للثقة ، انباء من روسيا عن نشاطات بسي مفترضة جربت في الفضاء . فقد كشف له باراسيكولوجيون سوفياتيون النقاب عن ان رواد الفضاء يجرون تجارب باراسيكولوجية خارقة للمألوف حقا ؛ وان الاتحاد السوفياتي يسعى الى اختبار جميع طرق الاتصال الممكنة بين الفضاء والارض . ومن هذا القبيل ، على سبيل المثال، ان واحدا من رواد الفضاء تلقى تعليمات تقضي بتركيز انتباهه على بعض الافكار وبعض الاشياء . وفي الساعة المتفق عليها ، حاول متخاطرون ان يلتقطوا على الارض فكره . بيد ان المعطيات والنتائج ، على ما ساروه مخاطبوه ، تعتبر من اسرار الدفاع القومي .

كانت كاي شترنر ، رئيسة جمعية الباراسيكولوجيا في كاليفورنيا ــ التي مركزها في سان دييغو ــ هي المواطنة الاميركية الوحيدة التي حضرت في عام ١٩٦٦ مؤتمر موسكو . وبحسب التصريحات التي ادلت بها ، كشفت المناقشات النقاب عن ان السوفياتيين يبذلون جهودا لا يستهان بها لاختبار الملكات الميتانفسية ، بينما يكون رواد الفضاء في حالة انعدام الجاذبية في

الفضاء . ويدرب الملاحون السوفياتيون كذلك على اليوغا والتنويم المغنطيسي من خلال استبارات تنفذ في الفضاء ، على ما تروي السيدة شترنر . وتضيف قائلة : «طبيعي ان السلطات السوفياتية تفضل ان تطرح اسئلة على ان تجيب على تلك التي نطرحها عليها» .

لعل وصولنا الى الاتحاد السوفياتي في وقت شهد تصلبا سياسيا بين الشرق والغرب هو الذي جعلنا نتلقى الجواب التالي على الاسئلة التي طرحناها بصدد الفضاء : «وانتما ، لماذا لا تتحدثان عن رواد الفضاء الاميركيين ؟ الى اين وصلوا في مضمار **بسي** ؟» . لقد كان ذلك بمثابة حوار بين صم . ففي البرامج الفضائية الاميركية ، لا ياتي ذكر رسمي لتدريب ملاحي الفضاء على إ.ف.ح . وعليه ، ما كنا نريد ان نبيع الروس قصة ثانية مماثلة لقصة **ناوتيلوس** .

ان الاعلان العام الوحيد بخصوص تدريب ملاحي الفضاء السوفياتيين على إ.ف.ح هو الذي نشر في **الانباء البحرية** . يتحدث المقال عن برنامج وضعه المرحوم البروفسور جلرشتاين ، الدكتور في البيولوجيا والباراسيكولوجي من جماعة بوبوف . في عام ١٩٦٦ القى الدكتور جلرشتاين محاضرة عن سبق العلم ، وهو موضوع كانت الرقابة الرسمية قد رفعت عنه الحظر آنئذ . وصرح : «سينتقل ملاحو الفضاء بسرعة فائقة للغاية ، الى حد سيمكنهم معه ان يروا ــ بالمعنى الحرفي للكلمة ــ في المستقبل. وحتى يكونوا قادرين على مواجهة الامور في الوقت المناسب ، فلا بد أن يدربوا على رؤية الاحداث قبل وقوعها . ويبدو ان بعض الافراد القلائل يملكون المقدرة على الرؤية في المستقبل . وبناء عليه ، وضعنا برنامجا لتدريب رواد الفضاء على تطوير درجة معينة من سبق العلم» .

الفصل الثامن

الصحون الطائرة وظاهرات بسي

كثيرا ما استذكر الشغيلة العلميون السوفياتيون افكار ك.إ. تسيولكوفسكي ، الاختصاصي في مسائل الفضاء ، الذي كان يعتقد بأن الكون مأهول بالسكان ، كلما رأوا في الفضاء اشياء غريبة ، لا وجود لها رسميا .

في ٢٦ تموز١٩٦٥ ، في الساعة ٩ر٣٠ ، شاهد ثلاثة ملاحين فضائيين روس ، فيتولنييك وزوجته ويان ملديريس ـ وكانوا يدرسون السحب المضيئة في اوغر في ليتونيا ـ شاهدوا فجأة ظهور نجم شديد اللمعان كان يتحرك ببطء باتجاه الغرب . وسددوا في البدء نواظرهم ، ثم مقرابهم (تلسكوب) ، الى ما حسبوه نجما ، ثم سجلوا التقرير التالي :

«رأينا اسطوانة على شكل عدسة ، يبلغ طول قطرها ١٠٠ متر ، وفي وسطها حلقة صغيرة مرئية . وكانت تدور حولها ثلاث حلقات اخرى اصغر حجما . وكانت اربعتها ذات لون رمادي لؤلؤي . وبعد عشرين دقيقة بدأت الحلقات الصغيرة تبتعد عن الاسطوانة ، وابتعدت هذه الاخيرة بدورها ، وفي حوالي الساعة ١٠ كان كل شيء قد اختفى» .

قدر ملاحو الفضاء ان تلك الاشياء الغريبة تحلق على ارتفاع ٢٠٠ كيلومتر تقريبا . وأوضح الشهود اننا لو حكمنا على تلك الاجسام من خلال امتدادها في حقل الرؤية لبدت لنا ثابتة في الفضاء ، وان العلة الوحيدة لحركتها الظاهرية هي دوران الارض .

قبل بضع سنوات من تلك الواقعة ، كانت قد راجت شائعات مفادها ان أجراما ضخمة تقدح شررا قد اجتازت سماء قازاخستان وردت الى الكنيسة الفلاحين المذعورين . وصرح الدكتور فيلكس ي. زيغل ، من معهد موسكو للملاحة الجوية : «في الواقع ، سبق للرادارات السوفياتية ان التقطت ، في العشرين سنة الماضية ، صورة اجسام طائرة لم يتم التثبت من هويتها» (مقال ظهر في مجلة **سمينا** في نيسان ١٩٦٧) . وظهرت قصص مدهشة اخرى في العديد من المجلات السوفياتية . وسُمح للدكتور زيغل ، الذي كان على صلة بمجموعة بوبوف الباراسيكولوجية ، بأن يحقق في الموضوع وبأن ينشر بعضا من الوقائع المروية من قبل شهودها . واختار زيغل الشهادات التي تدعمها الشخصية العلمية للشاهدين بها . وحسبنا ان نلقي نظرة على النص حتى ندرك ان اولئك المراقبين كانوا على درجة من الاختصاص في رصد ظاهرات السماء لا تسمح لهم بالخلط بين صحن طائر وبين القمر او الزهرة عند شروقها . وتبين تلك التقارير ايضا لماذا يبني الباراسيكولوجيون من الان نظريات عن

الوسائل الممكنة للاتصال العقلي مع الكائنات التي قد تصادف في الفضاء .

في ١٦ آب ١٩٦٠ ، في حوالي الساعة ١١ ليلا ، كانت بعثة جيوفيزيائية تضم ثمانية رجال من لينينغراد تخيم في العراء في جبال قازاخستان . وفجأة شاهدوا جسما لامعا على شكل عدسة وذا لون برتقالي يجتاز السماء فوق قمة الجبال . وروى فيما بعد رئيس البعثة ، الدكتور سوشيفانوف ، ان قطر ذلك الجسم كان اكبر بحوالي ٥٠ بالمئة من اسطوانة القمر البدر . وبعد ان مخرت الاسطوانة السماء بسرعة ثابتة وبخط متكسر ، اختفت . وكانت اطرافها اقل سطوعا من وسطها .

شاهد كذلك الدكتور كريلوف ، وهو عالم جيوفيزيائي ، في شمال القفقاس جسما اسطواني الشكل وضاربا الى الحمرة وسرعان ما تبدل لونه الى زرقة الفولاذ .

في عام ١٩٦٤ التقت طائرة سوفياتية تعمل على خط موسكو ـ لينينغراد النظامي اسطوانة تطير بموازاة الطائرة ، محدبة الوسط وكانما فيها حجرة ركاب . وكان الدكتور زيتسيف ، الاختصاصي في دراسة الاجسام غير الثابتة الهوية في التاريخ القديم ، بين ركاب الطائرة . ويروي الدكتور تسيخانوفتش ، وهو عالم فلك قفقاسي ، انه رأى اسطوانة مماثلة في وضح النهار عام ١٩٦٥ . ويبدو ان عددا كبيّرا من الطائرات السوفياتية قد لاحقته اجسام غريبة موجهة ، على ما تشير الدلائل ، من قبل كائن عاقل . ويروي الطيار السوفياتي الشهير ، فالانتان اكوراتوف ، قصة لقاء من لقاءاته بتلك الاجسام عام ١٩٥٦ : «كنا نقوم بطيران استكشافي فوق بحار الجليد في غروئنلاند . فجأة ابصرنا عدسة كبيرة مهتزة الاطراف تطير بموازاة طائرتنا . لم نشاهد اي جناح ، او اي هوائي ، او اي كوة ، او اي غاز منفلت . قررنا ان نقترب منها ، لكن الآلة ابتعدت ما ان تقدمنا في اتجاهها . وبعد

زهاء خمس عشرة دقيقة تسارع طيران الآلة فتوارت عن الانظار بسرعة بدت لنا اسطورية» .

ما كانت تلك الاجسام الوضاءة والملونة التي تحلق فوق روسيا وتطير بمحاذاة الطائرات ؟ يلاحظ الدكتور زيفل ان الفرضية التي تلقى أقل قدر من الاعتراضات هي فرضية سفن فضائية آتية من حضارات غير ارضية . ويصرح الدكتور كوبريفتش ، رئيس اكاديمية العلوم في روسيا البيضاء : «لعل كائنات قادمة من الفضاء البعيد تستكشف ضواحي الارض من دون ان تتصل بسكانها . وقد يكون تطورها الفكري متقدما للغاية بحيث انها تنظر الينا مثلما تنظر الى اسلافنا اهل الكهوف والمغر » .

في عام ١٩٦٧ ، استمع مؤتمر حضارات الفضاء الى كلمة من عالم الفلك الارمني الكبير فكتور امبرتسميان . وقد خلص هذا في ختام كلمته الى الاستنتاج بأن «وجود حضارة غير ارضية في مجرتنا الشمسية يمكن ان يعتبر عمليا بحكم المؤكد ، وبأنه ينبغي ان نبدأ من الان بدراسة المشكلات العلمية والتقنية التي تطرحها علاقاتنا المستقبلية مع تلك العوالم المجهولة » .

وازاح الدكتور زيفل من جهته النقاب عما يلي : «اننا نملك من الوثائق الرصينة الآتية منمختلف انحاء روسيا عددا يستحيل معه علينا ان نفترض ان مصدرها جميعها خداع البصر . فخداع البصر لا يظهر بوضوح على الصور الفوتوغرافية او الرادارات !» . ويروي الدكتور زيفل ان النقيب بيدوكوف من سلاح الجو التقط ، اثناء طيرانه فوق اوديسا في ليلة من نيسان ١٩٦٦ ، على شاشة راداره جسما غير محدد الهوية ، على مدى خمس واربعين دقيقة ، على ارتفاع يتراوح بين ١٥ و٤٠ كيلومترا (وقد اكد صحة الواقعة رصاد آخرون من رادارات اخرى) . وسرت شائعاتمفادها ان بعض ملاحي الفضاء السوفياتيين شاهدوا اثناء طيرانهم صحنا طائرا يقترب من كبسولتهم .

في الغرب تكهن الدكتور هاينك ، مدير قسم علم الفلك في جامعة نورث وسترن والخبير في موضوع الصحون الطائرة، وقد اذهلته تصريحات الدكتور زيفل العلنية ، تكهن بانه سيفتح ذات يوم صحيفته ليقرأ : «لقد حل الروس لغز الصحون الطائرة» . وكتب يقول : «سيأتي يوم تكون فيه الانباء الواردة من روسيا مثيرة للغاية بحيث ان اطلاق اول قمر اصطناعي من نوع سبوتنيك في عام ١٩٥٧ لن تعود له من اهمية كحدث اكثر مما لموسم قمح جيد» .

وقبل شهر من ادلاء الدكتور زيفل بتصريحه ، اجتمع الباراسيكولوجيون السوفياتيون مع عدد من الفيزيائيين لعقد ندوة كان موضوعها : «أمكانيات الاتصال مع الحضارات غير الارضية». وفي معرض الحديث عن مشكلة الصحون الطائرة ، ذكر زيفل ان كاميرات جديدة هي قيد الصنع من اجل تصوير الصحون الطائرة. وقال انه يعتقد ان التخاطر يمكن ان يشكل وسيلة للاتصال مع زوارنا الغامضين .

من جهته ، استند الدكتور زيتسيف ، الذي كان يحضر ايضا مؤتمر الباراسيكولوجيين ، الى الوثائق التاريخية التي درسها على مدى سنوات ليتقدم بفرضية تقول انه من الممكن ان تكون كائنات غير ارضية قد زارت كرتنا الارضية قبل الوف السنين حاملة معها فجر الحضارة البشرية . ومن هذا القبيل يلاحظ ان قصة التوراة عن دمار سدوم وعمورة تذكرنا بانفجار نووي وصفه شاهد غير مطلع على ذلك العلم .

وفي راي الدكتور زيتسيف كذلك ان الحكايات الميتولوجية الهندية مثل الرامايانا والمهابهاراتا ومختلف الوثائق السنسكريتية تتحدث عن «مركبات سماوية تقذف السنة لهب» و«تعبر السماء كالمذنبات» .

ويعتقد بعض علماء الآثار السوفياتيين ان تلك المركبات النارية يمكن ان تكون قد تركت آثارا وراءها . وقد توصلت مؤخرا

الحفريات عند حدود الصين والتيبت الى اكتشاف ٧١٦ اسطوانة صخرية تحتوي على آثار معدنية وتشبه الاسطوانات الفونوغرافية الحديثة . وقد قدر قدمها بزهاء عشرة آلاف سنة .

يقول زيتسيف ان ذلك يمكن ان يكون شكلا من الكتابة ، وان تلك الاسطوانات تهتز في شروط تجريبية محددة كما لو انهـا تحمل شحنة كهربائية . ومن جهة اخرى يؤيد زيتسيف الاطروحة القائلة ان الشعوب القديمة شادت معابدها طبقا لشكل المركبات الفضائية لزوارها الاغراب . وتشتمل الهياكل القديمة على اشكال تشبه كبسولات جميني الاميركية . ونجد عليها مثالا في كتب الهندسة المعمارية اليهودية التي تصور ضريحا في وادي قدرون . كذلك فان مركبة الفوستوك الفضائية تذكر بشكلها المعابد الفينيقية والمنحوتات القديمة المحفورة في مغر الهند . ويشير الدكتور زيتسيف ايضا الى ان المعابد الصينية والكنائس والمآذن الاسلامية تعيد الى الاذهان تصميم المركبات الفضائية . وابراج الكرملين وقببه التي على شكل بصلي تذكر بشكل مركبات فوستوك . ويضيف الدكتور زيتسيف قوله انه اذا ما اكدت الابحاث المقبلة صحة نظرياته ، فلا بد ان يغير الانسان افكاره عن اصل الحضارات والاديان وعن جميع المعتقدات المتعلقة بالمهدي المنتظر . «اذا صح ان زوارا قد اتونا قبل عدة قرون ، فمن الممكن ان نكون اليوم في عشية زيارة ثانية تقوم لنا بها كائنات عاقلة قادمة من الفضاء الكوني» . وفي رأي الدكتور زيتسيف ان يسوع قدم من الفضاء ، وانه كان يمثل حضارة متقدمة للغاية . وعلى هذا الاساس ، يمكن ان نجد تفسيرا جزئيا لقدراته الخارقة للطبيعة وملكاته العجائبية . وليست أفكار الدكتور زيتسيف المذهلة هي وحدها التي رأت النور في اوساط العلماء السوفياتيين . فحتى قبل نشرها ، اكد البروفسور مودست آغرست ، الدكتور في الفيزياء ، في **المجلة الادبية السوفياتية**

(شباط ١٩٦٦) ان الارض قد زارها قبل زهاء مليون من السنين اهل الفضاء . وهو يتحدث عن «التكتيت» ، تلك الصخور الغريبة التي حيرت العلماء الذين اكتشفوها في لبنان . فقد تشكلت تلك الصخور في وسط اشعاعي نووي . ويروي آغرست ان تماثيل قديمة كانت قد اكتشفت في اليابان ويعود تاريخها الى ٢٥٠٠٠ سنة تشبه ملاحي الفضاء وهم في لباسهم الفضائي . وتتضافر هذه النظرية مع الفرضيات التي كان قد افصح عنها كارل ساغان ، الفيزيائي الفلكي الاميركي ، في عام ١٩٦٢ . ويصرح الدكتور شكلوفسكي ، عضو اكاديمية العلوم السوفياتية: «بديهي انه لا يتوفر في الساعة الراهنة لا لفرضية آغرست ولا لفرضية ساغان اساس علمي متين ، غير انهما تستأهلان الدرس لا النبذ» .

التقينا اثناء رحلتنا بعالم سوفياتي له من العمر خمسة واربعون عاما ، شهد بام عينه مرور صحون طائرة . «المرة الاولى كانت في عام ١٩٦٠ على مسافة حوالي ٤٠ كيلومترا من سمرقند. فقد اجتاز صحن طائر بحجم نجمة كبيرة السماء مخلفا وراءه ذيولا مضيئة متماوجة . وفي اليوم التالي اكد لي العديدون من اهالي المنطقة انهم عاينوا الظاهرة نفسها» . يعرف الجميع قصة الانفجار المشهور للنيزك السيبيري في عام ١٩٠٩ الذي اجتاح ودمر آلافا من الكيلومترات المربعة . وقد نشرت «نشرة اكاديمية العلوم السوفياتية» في عام ١٩٦٧ دراسة تؤكد فيها انه لم يسقط في سيبيريا في ذلك الزمن لا نيزك ولا شهاب ، وان جميع الدلائل تشير الى ان الحادثة هي حادثة انفجار نووي .

قبيل زيارتنا لروسيا ، كان الاتجاه الرسمي الجديد يميل الى تحظير الاعتقاد بوجود صحون طائرة . وقد الغيت من برنامج مؤتمر الباراسيكولوجيا جميع المناقشات المتعلقة بالصحون الطائرة والحضارات غير الارضية ووسائل الاتصال معها . وفي شهر آذار ١٩٦٨ صرحت اكاديمية العلوم السوفياتية ان البحث في

هذا المضمار يفتقر الى الطابع العلمي . واعلنت الاكاديمية ان ما من عالم من العلماء شاهد قط صحنا طائرا ، ولا كذلك وحدات الدفاع العسكرية التي ترصد السماء ليل نهار . لكـــن الروس يقولون بشيء من التفلسف الساخر : سوف ترجع الصحـــون الطائرة متى ما حلا ذلك للنظام .

ان البحث عن أجسام غامضة في السماء ينسجم وطبيعـــة الروس الصوفية . فروسيا القديمة لم تمت ، لكنها غـــيرت لهجتها . فقد تلفتت نحو العلم ، بعد ان تخلت بحكم الضرورة عن الدين . وقد سجل السوفياتيون تقدما في البحث التخاطري على الارض، وارسلوا بشرا الى الفضاء . وليس من المستبعد ان تكون قد ساورتهم فكرة الجمع بين المضمارين في المستقبل . يسأل الدكتور زيتسيف : «ما دمنا قد ولدنا ، نحن وغيرنا من الكائنات غير الارضية المحتملة الوجود ، في الكون ذاته ، وما دمنا نخضع للقوانين الطبيعية ذاتها ، فلماذا لا نأمل فـــي امكانية تفاهـــم متبادل ؟» . ولنورد ، ختاما ، ملاحظة ابداها لنا روسي ذكـــي ومثقف ومعجب بالدكتور زيتسيف ومتحمس له : «أما وقد بتنا نملك الان القنبلة النووية القادرة على إفنائنا وعلى الحاق الاذى بالنظام الشمسي ، فان اللاارضيين سيأتون وسيمنعوننا من ان ندمر بأنفسنا انفسنا» .

الفصل التاسع

النوام التخاطري

بدأ عازف البيانو يعزف لحن فالس . وأخذت امرأة في مقتبل العمر ، يطوقها مراقصها بين ذراعيه ، تدور على الارضية الصقيلة لقاعة الاحتفالات في مركز استجمام على البحر الاسود. في غرفة مجاورة ، وضع الدكتور ك.إ. بلاتونوف ، الاختصاصي في علم النفس ، يده امام عينيه وركز فكره . فجأة ، وفيما كانت الفتاة تدور حول نفسها ، راحت في سِنَة عميقة من النوام المغنطيسي Transe . لقد أفلح بلاتونوف في التأثير تخاطريا على الراقصة الشابة ، الآنسة م.

في عام ١٩٢٤ ، اثناء انعقاد المؤتمر الروسي القومي لعلم النفس المصبي ، انام بلاتونوف من جديد الآنسة م بواسطة

التخاطر في قاعة غاصة بالباحثين الملميين . كانت الفتاة جالسة فوق خشبة المسرح ، تثرثر بمرح مع مجموعة من الدكاترة بانتظار تقديم عرض ـ هذا على الاقل ما كانت تعتقده ـ في التنويـم المغنطيسي . كان بلاتونوف مختبئا خلف لوح اسود كبير . رفع يده الى جبينه ، وهي العلامة المتفق عليها مع الجمهور ؛ وتهاوت الآنسة م على مقعدها ، وقد غرقت في نوم عميق . ثم ايقظها بلاتونوف واعاد تنويمها .

لم يكن ما اكتشفه بلاتونوف دواء عجيبا للأرق . فامكانية تنويم الناس وايقاظهم تخاطريا ، عن مسافة امتار او آلاف الكيلومترات ، تمثل اليوم الاسهام الاكيد والمتقدم الذي قدمه السوفياتيون للباراسيكولوجيا . بل تلك هي **التجربة السوفياتية الكبرى** . وتقوم مختبرات موسكو ولينينغراد باجراء فحوص دقيقة على تلك القدرة على السيطرة تخاطريا على وعي فرد من الافراد . بيد ان تجربة تنويم الناس ثم ايقاظهم كان لا بد ان تكرر مرارا ومرارا ، وفي ظروف شتى ، قبل زف نبأها علانية في مطلع الستينات .

قبيل مؤتمر ١٩٢٤ ، وقعت حادثة غريبة لطالبة في التاسعة عشرة من العمر . سألت الفتاة استاذها في الفيزياء : «متى سنبدأ التجربة ؟» . كانت مستهامة فضولا . وبالفعل ، كان قد طلب اليها قبل شهر من الزمن ان تشارك في تجربة مهمة . وقد لاقت هذه الدعوة لديها قبولا شديدا . ولما ذكّرت استاذها ذات يوم بوعده ، اجابها بأن المعدات اللازمة لم تصل بعد ، ثم تابع كلامه عن المحلول الذي كان قد صبه في أنبوبة للتجارب .

بيد ان دزيليشوفسكي دعاها تكرارا الى القدوم الى مختبره . وكان يتصرف كأستاذ خصوصي ، وما كان يضن عليها بالوقت لمحادثتها والثرثرة معها ... لكن من دون ان يشير قط الى التجربة المنتظرة .

افترس الفضول الفتاة وطفقت تتردد على المختبر في مناسبة

وغير مناسبة . سألها دزيليشوفسكي عندئذ : «أتريدين شيئا خاصا ؟» . فعلت الحمرة وجه الفتاة وتمتمت : «كلا ، كلا ... مجرد فكرة خطرت ببالي» .

لكن الطالبة كانت ، من غير علمها ، قد تعرضت لعدة تجارب ذات طابع خاص . ففيما كان الاستاذ يحاول ذات يوم ان يحول انتباهها بكلامه عن انبوبة التجارب التي كان قد مدها اليها ، رأى جفون تلميذته تطرف لهنيهة ثم تنطبق . وتباطأ تنفسها ، وصار عميقا واكثر انتظاما ؛ ونامت الطالبة وقبضتاها مغلقتان .

في الطرف الآخر من المشى ، كان الدكتور ك.د. كولتوف، الاختصاصي في علم النفس ، قد اغمض هو الآخر عينيه . لكنه لم يغرق في النوم ، وان راح يردد بينه وبين نفسه بلا كلل : «نوما ، نوما» . وفي الوقت نفسه ، كان كولتوف يستحضر ، بكل ما أوتي من قوة ، وجه الفتاة . وقد ادرك فيما بعد ان العامل الرئيسي في تلك التجارب التخاطرية السرية هو ان يركز كل فكره على الامر الذي يريد تبليغه . كان يتمنى بكل ارادته ان تنام الفتاة ، حين غمرته موجة من «فرح مظفر» ... ف«علمت عندئذ انها نامت» . وحدد الساعة ، ثم ركز فكره كي يوقظها من جديد .

طرفت الفتاة عينيها ، واستيقظت ، وانبوبة التجارب لا تزال في يدها ، وتابعت حديثها مع دزيليشوفسكي شبه المذهول ، والشديد الاغتباط مع ذلك . فقد نجحت التجربة ! ولم تتنبه الفتاة لشيء .

في خلال الشهرين اللذين دامتهما التجربة ، افلح كولتوف حتى في إنامة الفتاة وهي في الطرف الآخر من المدينة . وهو الذي كان يحضها ايضا على الذهاب لزيارة دزيليشوفسكي . كان كولتوف يوجهها ذهنيا من شقته الى طريق المختبر . واستبعادا لامكانية توجهها اليه من تلقاء نفسها ، او ـ وان كان ذلك بعيد الاحتمال ـ لامكانية غرقها في النوم بصورة عفوية وهي

تتكلم ، كان البروفسوران يعينان ساعة التجارب بدقة بالغة .

حاول كولتوف ان ينوّم الفتاة في ثلاثين مناسبة متباينة . وقد حالفه التوفيق في كل مرة. فقد كانت الفتاة تتخشب وتغرق في النوم وهي ممسكة بالانبوبة . وقد اكتشف الروس فيما بعد انه من الممكن ، الى حد ما ، توجيه الاسئلة الى الاشخاص المنومين تخاطريا وتبادل الحديث معهم كما في حالات التنويم المغنطيسي العادي . فهل يكون التخاطر ، بالفعل ، شكلا من التنويم المغنطيسي عن بعد ؟ يجيب الروس : كلا ، ليس تماما . فالاوالية التي تسمح بتعطيل ارادة شخص من الاشخاص تختلف عن الاوالية التي تستخدم في تنويمه تخاطريا . فالنوم المغنطيسي يتأتى، على ما يقول الروس ، من الكلام وبواسطة ايحاءات لفظية. اما القوة التخاطرية التي تنيم شخصا من الاشخاص فتصدر عن شخص آخر يستحضر ، نظير كولتوف ، صورة الاول بكل قواه.

ثمة امثلة مثيرة للاهتمام على حالات التنويم المغنطيسي بقوة التخاطر في عداد التجارب الكثيرة التي نفذها الدكتور فاسيلييف بصعوبة كبيرة ، لكن من دون ان تتاح له امكانية الاعلان عنها على الملأ في عهد ستالين . ويمثل اكتشاف التنويم والايقاظ التخاطريين ، بالنسبة الى غالبية الناس ، القسم الاغرب والابعث على الدهشة من كتاب الدكتور فاسيلييف **تجارب الايحاء الذهني** المنشور عام ١٩٦٢ .

كانت تعتلج في راس فاسيلييف عدة نظريات حول الذبذبات الفيزيائية التي تنقل المعطيات من مخ الى آخر بطريق التخاطر ، حين كلف في عام ١٩٣٢ بمهمة وجد فيها غاية مناه .

لقد صدر الامر الى المعهد الذي كان يعمل فيه فاسيلييف ، ان يدرس بكل التبحر المطلوب مشكلات التخاطر . وكان ذلك في زمن عزز فيه ستالين هيمنته بقوة . ولا يعرف احد بالضبط من اين صدر ذلك الامر ، باستثناء انه من غير المستبعد ان يكون قد صدر من اعلى سلطة على الاطلاق . المهم ان الباحثين السوفياتيين

كلفوا بتسليط الضوء على لغز قديم . وكان عليهم ان يثبتوا على نحو واضح وقاطع ان ظاهرات التخاطر تتم بواسطة ذبذبـــات فيزيائية معروفة من قبل .

كانت التجارب التي وضع تصميمها فاسيلييف تتطلب اوالية مختبرية تعمل كأشعة مضيئة يكون من الممكن فحصها وتحليلهـا الى موجات متفاوتة الطول من الذبذبات . لكن لم يكن هناك وجود الا لقلة قليلة من المتخاطرين الموهوبين . ناهيك عن ذلك ، كـان فاسيلييف بحاجة الى حالة تخاطرية لا سبيل الى دحضها وقابلة لاستغلال احصائي . وما كان من الممكن ان يكون الحل الــذي سيأخذ به فاسيلييف غير التنويم التخاطري بسبب بساطتـــه الفائقة .

انتهـــى الامر بفاسيلييـــــف وبمعاونَيه ، الدكتـــــور إ. ف. توماشفسكي ، الاختصاصي في الفيزيولوجيا ، والدكتور أ. ف. دوبروفسكي ، الطبيب النفساني ، الى العثور علــــى وسيطتين ممتازتين هما ايفانوفنا وفيدورفا ، البالغتان من العمر خمسا وعشرين سنة واللتان كانتا قيد العلاج لدى الدكتــــور دوبروفسكي . وبخلاف فتاة خاركوف ، جرى اطلاع ايفانوفنا على مختلف التجارب . وقد مددت على سرير ميداني ، ووصلت يدها اليمنى بإلكترودات لتسجل على مستوى البشَرة تيارات كهربائية لا تدركها بوعيها . اما بيدها اليسرى ، فقـــد امسكت بجهاز يشبه الحوقلة . وطلب اليها ان تضغط عليه بلا توقف . وكانت الذبذبات التي يحدثها الجهازان تسجل في الغرفـــة المجاورة على شكل منحنيات . وحين كانت الفتاة تغرق فــــي النوم ، كانت سعة المنحنى تضيق .

على مدى ثلاث سنوات انام الباحثون الفتاتين اكثر مـــن ١٠٠٠ مرة ، اولا من حجرة الى اخرى ، ثم من مبنى الى آخر . بل انهم وصلوا حوقلة ايفانوفنا بجهاز راديو موجود في منزلهـا

حتى يتلقوا الاشارات في مختبرهم . وقد اناموها تخاطريا فيما هي ممددة على فراشها . وكلما كانت فيدورفا وايفانوفنا تغيبان عن وعيهما ثم تستردانه ، كان فاسيلييف يسعى الى ان يلتقط الذبذبات التخاطرية المتأتية عن ذلك . وقد حاول عزل «ذبذبات غزامالي» ، التي سميت هكذا باسم طبيب الاعصاب الايطالي الذي زعم انه التقط ازيز ذبذبة اشعاعية صادرة عن وسيط كان في سبيله الى ان يعيش في مخيلته مشهدا عنيفا (على سبيل المثال : تصور الوسيط نفسه في حالة هجوم شاهرا حربة بندقيته) . لكن على كثرة ما استحدثه فاسيلييف من ذبذبات متفاوتة الطول ، فانه لم يسمع لها اي أزيز .

غير ان اشكال الذبذبات كثيرة لا تحصى . وقد حبس فاسيلييف ايفانوفنا في قفص من نوع فاراداي للحؤول دون مرور ذبذبات كهرطيسية . وجرى التبليغ التخاطري كالمعتاد . وبدأ القلق يساور الباحثين . فلئن اتضح ان التخاطر ليس ظاهرة فيزيائية صرفا ، فسوف يلغى نهائيا من برامج البحث العلمي السوفياتي . وصمم فاسيلييف كبسولة من الرصاص ، قادرة على ايقاف الاشعاعات بالذات . وصعد توماشفسكي ، الذي كان يلعب دور الوصيل التخاطري ، على درجات سلم الى ما يشبه ثلاجة قديمة عظيمة الحجم . وانزل الغطاء المحدب الذي انطبق على ميزابة مليئة بالزئبق بحيث باتت الكبسولة محكمة السد . وما عاد من الممكن ان تدلف اليها او تشع منها اي ذبذبة . وافترض الباحثون ان الظاهرة التخاطرية لن تحدث قطعا هذه المرة . وتصور توماشفسكي ، وهو في داخل قفص فاراداي ، فيدوروفا نائمة . فغابت للحال عن الوعي . بل يبدو ان المفعول التخاطري سهّله وجود الدريئات الرصاصية .

كتب فاسيلييف يقول : «لقد استولى علينا الذهول ! بل ان *تلك النتائج غير المتوقعة كادت ان تنومنا مغنطيسيا نحن انفسنا*». وتصاعدت درجة قلقهم . وبعناد الباحث الذي وقع تحت سلطان

فكرة ثابتة والذي يحاول ان يعزل عنصرا جديدا في كتلة من الركاز (١) الذي لا يؤثر فيه شيء ، عكف الباراسيكولوجيون على هدم استنتاجاتهم الذاتية . وحاولوا ان يثبتوا ان النوم الذي يحدث لدى الوسيط لم يكن في الواقع سوى رد فعل انعكاسي مشروط ، وليس ظاهرة تخاطرية . ولما لم يتوصلوا الى مبتغاهم هذا ، عادوا الى اجراء تجاربهم على استاذ وعلى عامل وعلى طالب وعلى ترجمان . ومجددا لاحظوا ان التخاطر يستطيع ان يسبب لدى هؤلاء الافراد غيابا عن الوعي .

كان فاسيلييف يعلم ان الذبذبات الكهرطيسية تتناقص حدتها طردا مع تزايد المسافة . فارسل توماشفسكي الى سيباستوبول، على البحر الاسود ، على بعد اكثر من ١٥٠٠ كيلومتر . وفي تلك المرة ما كانت ايفانوفنا تعلم انها ستشارك في تجربة . فقد جاءت كالمعتاد الى عيادة الطب النفسي لترى الدكتور دوبروفسكي ؛ فثرثرا لساعة من الزمن من غير ان يحدث شيء ... لكن ليس انحناء الارض هو الذي وقف حائلا دون الذبذبات التخاطرية ، وانما ظاهرة معروفة لدى المسافرين : فقد حال مرض توماشفسكي المفاجىء لدى وصوله بينه وبين ارسال التبليغ التخاطري في الساعة المتفق عليها . غير انه استرد تمام عافيته عندما حان الموعد الثاني . وقف على رصيف الميناء في سيباستوبول وركز فكره . وعلى بعد ١٥٠٠ كيلومتر من هناك ، نامت ايفانوفنا في اللحظة المتوقعة ، فيما كانت تتبادل اطراف الحديث مع الدكتور دوبروفسكي .

ومن غرائب سخرية القدر ان فاسيلييف الذي لا يكل ولا يتعب عثر آنئذ على الدليل الذي لا يدحض على ان الذبذبات

---

١ ـ الركاز Minerai : معدن غير خالص . ـم ـ

الكهرطيسية ، او على الاقل تلك المعروفة لدى العلماء ، لا تفيد في نقل الظاهرات التخاطرية . كتب في عام ١٩٣٧ : «اننا ندرك تمام الادراك المسؤولية التي تترتب على مثل هذا التوكيد» . ولم يطلع الجمهور على تفاصيل ذلك الاكتشاف الا في عام ١٩٦٢ ، حين افلح في ان ينشر ، في اواخر حياته ، **تجارب الايحاء الذهني** . وقد وضع فاسيلييف في صدر كتابه الذي طال انتظاره ، والذي كان لصدوره دوي الانفجار ، الجملة التالية : «فعلت كل ما وسعني فعله . فليفعل خيرا مما فعلت من لهم على ذلك قدرة» .

لقد استأنف اليوم عدد من باراسيكولوجيي موسكو ولينينغراد تلك التجارب التي تتخذ موضوعا لها اناسا في حالة اليقظة والوعي . وقد توصلوا الى بعض النتائج بفضل استخدام اجهزة تخطيط الدماغ كهربائيا . يروي الدكتور إ. كوغان في مجلة **راديو تكنيك** حالة فتاة تدعى اوليا جرى تنويمها مغنطيسيا بالطريقة المعهودة ، ثم وصل دماغها بجهاز للتخطيط الكهربائي . وفي الفرفة المجاورة ، وصل كذلك الدكتور فلاديمير ريكوف ، الذي كان يقوم بدور الوصيل التخاطري ، بجهاز لتخطيط الدماغ كهربائيا . كان المطلوب منه ان يحاول ان يوقظ تخاطريا اوليا حين يشار اليه بذلك في اويقات يتم اختيارها اعتباطا . وتمكن ريكوف من ايقاظ اوليا ذهنيا ٦ مرات من اصل ١١ محاولة . واورد ادوارد ناوموف ذكر تجربة تمخضت عن نتائج مماثلة . فمن اصل ٨ تجارب ، امكن ايقاظ الاشخاص ٦ مرات . ويلاحظ ناوموف انه حينما يصدر الامر باليقظة ، يخف النوم ، ولا يسترد الشخص كامل وعيه الا بعد مرور عشرين او ثلاثين ثانية . وفي مختبر الدكتور غوبائيف ، درّب اصدقاء من يتم اختيارهم كوسطاء على تنويم هؤلاء تخاطريا .

لماذا يهتم السوفياتيون كل هذا الاهتمام بالسيطرة التخاطرية على الاشخاص في حالة اليقظة ؟ يفعل الدكتور كوغان ذلك في

ارجح الظن ، نظير فاسيلييف ، لاسباب نظرية . فقد اقام البرهان تخاطريا على انه لا يجوز **من حيث المبدأ** استبعاد امكانية وجود ركيزة كهرطيسية للتخاطر ، وان مثل هذه الركيزة ـ اذا ما وجدت ـ تتطلب موجات ذبذبة بطول يزيد على ١٥٠٠ متر . اما معرفة الاسباب التي تحفز باحثين آخرين على محاولة التحكم بالوعي عن طريق التخاطر ، فتلك مشكلة اخرى .

يتكهن دكتور بولوني ، هو اسطفان مانكزارسكي ، بأنه اذا ما امكن توسيع الذبذبات التخاطرية وتقويتها مستقبلا ، فسيواجه المهندسون المعماريون معضلة جديدة ، اذ سيتوجب عليهم ان يجدوا وسيلة لعزل الشقق عن الموجات التخاطرية غير المرغوب فيها . ومانكزارسكي ، الذي لم يتخل قط عن النظريات الكهرطيسية ، هو واحد من العلماء النادرين الذين يتكلمون علانية عن التخاطر باعتباره وسيلة ناجعة للغاية من وسائل الدعاية والاعلان . كتب بهذا الخصوص : «ان ذلك يمثل تقدما كبيرا على الصعيد العملي» ، وان يكن قد اضاف قوله ان الجمهور الذي ستحاصره امواج الاعلان التخاطري قد لا تطيب له كل محاسن هذا الابتكار . ومانكزارسكي ، الذي كان على راس الوفد البولوني في السنة الدولية للجيوفيزياء في عام ١٩٥٧ ، هو البولوني الوحيد الذي نشر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ابحاثا في مضمار بسي . وبناء على التجارب التي اجراها بنفسه ، فانه وطيد القناعة بأن التخاطر يتجلى فعليا في شكل ذبذبات قابلة للتوسيع كالذبذبات الاشعاعية ، وكالذبذبات الدارجة الاستعمال مثل الراديو والتلفزيون . وعلى هذا النحو سيغدو التخاطر اداة جديدة مرهفة بين أيدي حكام هذا العالم . وقد يستطيع المرء ان يماري في نظريات مانكزارسكي التموجية ، لكن ما القول في احتمال استخدام التخاطر ذات يوم للتاثير على الراي العام ؟

لا يحدد الباحثون السوفياتيون المعاصرون اي نمط من الافراد

يقبل اكثر من غيره التنويم التخاطري . وبحسب احصائيات الباحثين السابقين لهم ، فان الشخص المهيأ لتجربة التنويم المغنطيسي العميق (وذلك هو شأن حوالي ٢٠ بالمئة منا) مهيأ ايضا للتنويم التخاطري عن بعد . لكن يذهب الدكتور بلاتونوف الى ان ٤ بالمئة فقط من الناس قابلون للتنويم التخاطري **بصورة منتظمة.**

يبدو فعل التنويم التخاطري في اميركا امرا اكثر غرابة واشد امتناعا على التفسير ، بل اكثر تلبسا لطابع شيطاني ، منه في الاتحاد السوفياتي . وفي الواقع ، ان التنويم يصدم الناس ويثيرهم اكثر مما يفعل التخاطر . وقد بدانا لتونا ، ان جاز القول ، نعتاد على علم التنويم المغنطيسي ونألفه . اما الروس فهم يجوّدون ويحسّنون طرائقهم التنويمية ويسبرون امكانياتها منذ اوائل هذا القرن . والتنويم في الاتحاد السوفياتي دارج الاستعمال ، مثله مثل الاشعة السينية ، سواء أفي ميدان الطب ام في ميدان المعالجة النفسية والفيزيولوجيا والسيكولوجيا والتربية التجريبية .

وفيما كان باحثونا الغربيون ، المنطلقون من العقد الفرويدية التي تضارع في طابعها المفجع والمأساوي التراجيديات الاغريقية، يكتشفون تفاصيل مدهشة حول الشخصية الانسانية ، كان زملاؤهم الروس قد اوغلوا بعيدا في طريق مغاير تماما . فبفضل التنويم المغنطيسي ، استكشفوا جميع طاقات الفكر وامكانيات الذهن . لاحظ المنوّمون ، على سبيل المثال ، ان الشخص المنوَّم يستطيع ان يذكر عدد الاشجار واعمدة التلغراف التي مر بها وهو في طريقه الى طبيبه . وادت هذه الملاحظات الى دراسة معقدة لآواليات الذاكرة . وقد كان من الطبيعي ان يحاول الروس حل المعضلات الباراسيكولوجية بواسطة التنويم المغنطيسي ، تماما كما كان من المحتم ان يرتئي الغربيون منذ القرن التاسع عشر ان التنويم المغنطيسي قادر على تحسين الملكات الميتانفسية . والاميركي ستانلي ف. ميتشل، رئيس الجمعية الدولية للمنوّمين

المغنطيسيين يومئذ ، هو الذي اكتشف ، اثناء رحلة له الى روسيا في عام ١٩٦٤ ، أن التنويم المغنطيسي يتسبب في ظهور شكل مرضٍ ومقنع للغاية من إ.ف.ح .

كتب ميتشل في مجلة **فيت** Fate في ايلول ١٩٦٤ يقول ان الدكاترة في عيادة سوفياتية وضعوا تحت تصرفه ممرضة لتكون له وسيطا في عرض سيتولى تقديمه . وقد امكنه ان ينوّم بسهولة الممرضة ؛ وقد انصاعت بلا تردد لاوامره جميعا . وفيما بعد فحسب اكتشف انها لا تنطق بكلمة واحدة من اللغة الانكليزية! والواقع انها شغلت بصورة آلية نوعا من المترجم الذهني مكنها من تنفيذ الاوامر الصادرة اليها بالانكليزية . ويورد ميتشل ذكر حالة اخرى مماثلة تم فيها تخطي حاجز اللغات بفضل إ.ف.ح . حدث ذلك في بولونيا . كانت امرأة عجوز جالسة في غرفة ، تحدق النظر الى قريبة شابة لها قيد التنويم المغنطيسي . وفيما كان ميتشل يصدر اوامره ، سقطت المرأة العجوز ايضا في حالة نوام . وعلى الاثر ، امكن لميتشل ان يتفاهم واياها بالرغم من انها لا تعرف الانكليزية . فثار فضوله ، وطفق يستجوبها . فصرحت المرأة العجوز انها تفهمه بسهولة ما دامت في حالة نوام . «لكن عندما لا تكون تمارس التنويم المغنطيسي ، فان كل ما تنطق به يبقى لغزا» .

لقد اعرب الدكتور فاسيلييف ، الذي كان فخورا بأبحاثه الريادية في مضمار التنويم المغنطيسي التخاطري ، عن اسفه لان الغربيين لم يستغلوا ولم يتابعوا تجربته في التنويم والايقاظ التخاطريين . والحق ان الظنون والاحكام المسبقة التي تحيط بالتنويم المغنطيسي في الغرب هي التي تفسر بصورة جزئية لماذا لم تجر تجارب على التنويم التخاطري في المختبرات الاميركية .

لقد حسّن السوفياتيون طرائق النوام التخاطري ، واظهروا اعجابهم به رسميا ، لكنهم لم يدعوا قط انهم هم الذين اكتشفوه.

فالفضل في ذلك انما يرجع الى الفرنسيين . فبين اوائل رواد هذا المضمار الباراسيكولوجي فلاحة بريتانية تدعى ليوني ب ، كانت في الخمسين من العمر ووسيطة ذات مواهب متنوعة .

من التجارب التي شاركت فيها ليوني في حوالي العام ١٨٨٦ تجربة ذات طابع مرح ، وكأنها مشهد من افلام الاخوة ماركس . المشهد جرى في مدينة الهافر في أمسية بعد العشاء . حول الطاولة كانت تجلس نخبة البحث الباراسيكولوجي الاوروبي: بيير جانيه ، احد مؤسسي الباراسيكولوجيا في فرنسا ، ومعاونه الدكتور م. جلبير ، ويوليوس اوشوروفتش الذي لا يزال يذكره الناس الى اليوم بوصفه واحدا من اشهر الباراسيكولوجيين البولونيين ، والانكليزي فريدريك مايرز ، المؤسس المشارك للجمعية البريطانية للابحاث النفسية ، وبروفسوران مشهوران آخران .

قرر الرجال الستة ان يتحققوا مما اذا كان في وسع الدكتور جلبير ان ينوّم ليوني عن بعد ، وهو ما كان فعله سابقا اكثر من مرة ، ومما اذا كان يستطيع ايضا ان يجعلها تأتي اليه وهي نائمة. ضبطوا معا ساعاتهم ، ثم انسحب جلبير الى مكتبه . وقصد الباقون منزل ليوني ، على بعد حوالي كيلومتر في الجانب الآخر من المدينة . احاطوا بالمنزل ، والظلام يسترهم . يقول اوشوروفتش : «في تلك اللحظة لم يكن في المنزل احد خلا ليوني وطباخة ما كانت تتوقع البتة ان نحاول اجراء تجربة» . وفي الوقت المتوقع خرجت ليوني من المنزل واتجهت نحو بوابة الحديقة . واغتبط اوشوروفتش ، المختبىء خلف زاوية المنزل ، عندما رآها مغمضة العينين . لكن ليوني دارت على عقبيها ودلفت الى المنزل من جديد . وكتب اوشوروفتش فيما بعد ان جلبير «على اثر الجهود التي بذلها ليركز فكره أغمي عليه ... او نام» .

سرعان ما عادت ليوني الى الظهور ، تفذ السير بخطى مسرعة حتى كادت ان تصطدم بالدكتور جانيه الذي كان قد خرج من

مخبئه . «من حسن الحظ أنها ما كانت تمير محيطها انتباها ، أو على كل حال لم تتعرفنا» .

تقدمت ليوني بخطى حثيثة وبلا عوائق لمدة عشر دقائق ، وهي مغمضة العينين ، «متحاشية اعمدة مصابيح الشارع ومركبات السير» . ويذكر مايرز ان المارة الآخرين لم يلاحظوا شيئا غير طبيعي لديها . ولعلهم كانوا مشدودي الانظار الى ذلك الرهط من السادة الوقوري الملبس الذين كانوا يجدّون في اثرها وهم يدونون الملاحظات !

فجأة وقفت ليوني مترددة ، وقد ظهرت عليها الحيرة (لماذا ؟ لان جلبير تصور ان التجربة لن تجدي فتيلا فانصرف يلعب البلياردو) . ثم ما لبثت ليوني أن تابعت مسيرها كما في السابق (فقد بدل جلبير رايه ، وطفق يركز فكره من جديد) .

وصلت ليوني ، تواكبها على مسافة منها حاشيتها ، الى المكان المقرر لها في اللحظة عينها التي خرج فيها جلبير من بيته على عجل وهو يتساءل بينه وبين نفسه عما حل بالآخرين . واصطدم واحدهما بالآخر جبهيا .

وخطت ليوني فوق جسم جلبير المتجمد ذهولا ، ودلفت الى المنزل . سعت من غرفة الى اخرى وهي تقول بلهجة أسيفة : «اين هو ؟ اين هو ؟» . وفتشت البيت من عاليه الى سافله ، يحيط بها العلماء الذين كانوا يتفننون في التحرك بخفة كيلا تنتبه الى وجودهم . وأخيرا تهالك جلبير على كرسي وناداها ذهنيا .

كتب اوشوروفتش يقول : «امسكت به من ذراعه ، وعلائم السرور الشديد بادية عليها !» . واغتبط اوشوروفتش نفسه لانه اقتنع آخيرا بأن من الممكن التاثير على الناس عن بعد .

ان الباحثين السوفياتيين انفسهم قد مروا بمثل تلك اللحظات من الحيرة والارتباك عندما كانوا يحثون الوسطاء المنوّمين على اجتياز شوارع موسكو ، او انهم على كل حال لم

يتباهوا بذلك . بيد انهم تكلموا احيانا عن جهودهم الرامية الى توجيه خطى شخص من الاشخاص تخاطريا عبر ممرات مختبراتهم. أن الباراسيكولوجيين في معهد بوبوف يراقبون شخصا منوما ، وهو بمفرده في واحدة من الغرف ، بواسطة دارة تلفزيونية مغلقة . ترى هل في وسع إ.ف.ح ان يسقط الانسان لا في النوام فحسب ، بل ان يجعله يسقط بالمعنى الحرفي للكلمة؟ هل من الممكن توجيهه تخاطريا في سقوطه ، إما الى الامام او الوراء ، واما الى اليمين او الشمال ؟

قال ناوموف : «افلحنا ، خلال سلسلة من الاستبارات ، في اسقاط الوسيط ١٠ مرات في ١٠ تجارب . وقد سقط ٨ مرات بالوضعية التي حددت له تخاطريا» .

ويذكر ناوموف ان اكثر من ١٠٠٠ شخص شاركوا في تجارب التنويم والاسقاط «الموجه» تلك .

امكن لكارل نيقولائيف ان يفتح مجالا آخر لتقدم تقنيات توجيه الانسان تخاطريا ، مثلما يوجه الصاروخ الكترونيا . هذا ما ازاح النقاب عنه الدكتور كوغان في مجلة **راديو تكنيك** ، وفي محاضرة عن «المشكلات العلمية للمعلوماتية الحيوية» القاها امام اكثر من ٧٠٠ عالم . وقام بدور الوصيل ناوموف نفسه الذي يملك على ما يبدو بعض الملكات الميتاعادية . وحاول نيقولائيف ، وهو في أتم وعيه ، ان يرخي زمام نفسه لناوموف كي يوجهه الى واحدة من العقبات العشر الموضوعة في الغرفة . يشرح الدكتور كوغان فيقول : «لقد عملنا طبقا لنظام ضبطي» ، ويقصد بذلك ان كارل كان يعيّن للدكتور ناوموف الجالس في الغرفة المجاورة الاتجاه الذي يسير فيه بواسطة ميكروفون . وكانت هذه المعلومات تتيح لناوموف ان يصحح ذهنيا اخطاء اتجاه كارل اثناء تقدمه . ومن اصل ١٧ تجربة مختلفة ، نجح ناوموف في توجيه كارل ١٣ مرة نحو العقبة المرغوبة . وقد صرح الدكتور كوغان بان احتمالات الوصول الى مثل هذه النتيجة بالمصادفة ضئيلة للغاية .

يتحكم السوفياتيون في مختبراتهم ، التي يسودها نظام دقيق ، بوعي الانسان ، لكن ما يفعلونه لا يعدو ان يكون شرارة صغيرة بالمقارنة مع الاسهم النارية التي تطلق في الغرب في ميدان الهلوسات النفسية الناجمة عن استعمال المخدرات . يروي فاسيلييف ، في كتابه **ظاهرات الذهن الانساني الغامضة** ، كيف اعطى مقدارا لا بأس به من المسكالين لفتاة لا تتمتع ، في ظاهر الامر ، باي موهبة ميتانفسية . فحين آلت الفتاة الى حالة ذهول عن الوعي بتاثير المخدر ، ناولها عشر علب بلاستيكية سود مغلقة . وما كان لا فاسيلييف ولا تلميذته ، التي أمست في حالة من الغبطة والسعادة البالغة (ارتات ان العالم «رائع») ، يعرفان ما الاشياء الموجودة في داخل العلب والمغلفة بالقطن . سال فاسيلييف الفتاة وهو يضع امامها واحدة من العلب : «قولي لي ما ترينه هنا» . فقهقهت الفتاة وقالت : «كيف أمكنك ان تدس ذلك هنا في الداخل ؟ انه مبنى حجري كبير» . ولما فتح فاسيلييف العلبة فيما بعد وجد فيها طابعا بريديا بقيمة روبل واحد يمثل مبنى البريد المركزي في موسكو . وقد جهلت الفتاة جهلا تاما بما في داخل واحدة من العلب . واصابت نجاحا جزئيا في معرفة فحوى خمس علب من اصل ثمان . فقد صرحت على سبيل المثال امام علبة تحتوي على اغصان دقيقة حمر : «أرى بقعة حمراء» . كان ذلك في عام ١٩٤٦ ، في مستهل السنوات التي ستشهد الجمود الاكبر في العهد الستاليني . غير ان الفتاة عاشت ، في ظاهر الامر ، تجربة ممتعة ومبهجة للغاية . قالت لفاسيلييف : «كان كل شيء يبدو لي في منتهى الروعة ، وكان يخيل الي انني استطيع ان افعل اي شيء من دون ان تترتب علي اي تبعة» .

بخصوص التجارب الحالية عن الباراسيكولوجيا وتأثير المخدرات ، يروي الدكتور ميلان ريزل ان م.س. سميرنوف ، من قسم البصريات في «معهد مشكلات نقل المعلومات» التابع

لاكاديمية العلوم السوفياتية ، كتب اليه بصفة شبه رسمية ليطلعه على نبأ اجراء تجارببواسطة البسيلوسيبين. وقد قال سميرنوف انه توصل، بتبنيه طرائق فاسيلييف، الى تحقيق بعض النجاحات الميتانفسية بواسطة البسيلوسيبين .

لكن الباحثين السوفياتيين ، الذين يريدون اجراء التجارب على الوعي ، لا يتجاوزون بوجه عام اشكال التنويم التخاطري التقليدي . ولقد كان فاسيلييف وزملاؤه يمررون ، كالباحثين عن الذهب ، الذبذبات الكهرطيسية على المدسة المكبرة . وكان معدنهم الثمين هو «اوالية» التخاطر . وقد كان اكتشافهم ذات قيمة ذهبية فعلا بالنظر الى ما يمكن ان يكون للنوام واليقظة التخاطريين من تطبيقات عملية شتى . ولم يكن فاسيلييف يرى في الامر سوى ظاهرة تخاطرية مطلوب تشريحها ، ومثلما كان سيفعل بضفدع في تجربة تشريحية . لكن التجربة التي وضع تصميمها ونفذها يمكن ان تشتق منها تجارب اغنى واكثر اثارة للاهتمام بألف مرة . التحكم بفكر انسان ما ، توجيه خطاه وهو في حالة نوام ... الا ما اسهل ان يتخيل المرء بعض التطبيقات المسرحية لهذه الطريقة . لنتأمل مثال الجاسوسية . انك تركز فكرك بكل قواك على دماغ مرافق الجنرال . وتصدر اليه بالايحاء امرا ينفذه بعد إفاقتهمن نوامه : كأن يضغط على زر من الازرار او يسرق اوراقا معينة . بعد ذلك يستيقظ جاهلا ، نظير طالبة خاركوف ، بكل ما جرى . لقد استغرقت الآنسة م في النوام وهي ترقص الفالس ، لكن تخيلوا انها كانت تقود سيارة او طائرة ، او انها كانت تتولى الحراسة في مكان ما !

صحيح ان ذلك ضرب من التخيل الرخيص عودتنا عليه روايات الجاسوسية الخارقة لجدار الصوت . لكن اليس ضربا من السذاجة ان نجزم بأن ما من باحث من الباحثين خطرت له قط مثل تلك التطبيقات الممكنة للتخاطر ؟ يروي وولف ميسنغ ، المشهور بقدرته التي اقر له بها الكثيرون اكثر من مرة على التأثير

على فكر الآخرين ، يروي في سيرته الذاتية كيف نجح في الخروج من مبنى موضوع تحت مراقبة حراس مكلفين بالقاء القبض عليه . «هذا المثال ، وغيره من الامثلة المشابهة ، يجب ان يرغمنا على اعادة النظر في الفكرة المسلم بها عموما والقائلة ان الانسان المنوَّم مغنطيسيا لا يمكن بحال من الاحوال ان يأتي عملا مخالفا لمبادئه. انني لعلى ثقة بأن الحراس ما كانوا ليسمحوا لي بالمرور لو امرتهم باخراجي بهويتي الحقيقية ، لكنني استخدمت قوتي الذهنية لأصور لهم انني واحد من كبار الموظفين الذين اعتادوا على السماح لهم بالخروج بدون اذن مرور» . كذلك يمكن ، في التنويم المغنطيسي ، ان يمتثل الانسان وينفذ اذا ما اصدر اليه الامر باطلاق النار على ارنب ، مع انه يسدد المسدس في الواقع الى انسان آخر . والسوفياتيون ، حين يستكشفون تأثير إ.ف.ح على الوعي فانما يبحثون عن وسيلة للسيطرة عليه بالمعنى العام واليومي للكلمة . وكثيرا ما يدور الكلام في الاتحاد السوفياتي عن «السيطرة» ، لا كمفهوم سياسي ، وانما بمعناها الشائع نسبيا والعلمي . وكما باح لنا باحث من موسكو : «لقد تعلم العلم كيف يسيطر على الطبيعة الخارجية من اجل نفع البشرية العميم ؛ واليوم نحاول ان نكتشف القوانين التي تحكم طبيعة الانسان الداخلية . وكما اتاحت لنا المعرفة العلمية ، في ما اتاحت لنا ، ان ننتج الكهرباء لإنارة مدينة بكاملها ، كذلك فان امكانية السيطرة على الطاقات غير المستكشفة بعد للذهن الانساني ستعود علينا في ارجح الظن بنفع عظيم» .

ان السيطرة على مرض فصام الشخصية هي بلا ادنى ريب شيء نافع ، لكن السيطرة على الحالة النفسية لشخص من الأشخاص تجاه شخص آخر أو عرق آخر أو أمة أخرى اليست بذلك القدر من النفع ؟

الفصل العاشر

هل التخاطر موهبة او تقنية ؟

يسعى الباراسيكولوجيون السوفياتيون بدأب الى استثارة ظاهرات فوق عادية ، ويتحدثون باستمرار عن التحكم بها . فما العامل الذي يمكنه ان يطلق قوى الفرد الميتانفسية الكامنة من عقالها؟ في عام١٩٥٦ بدأت مجموعة بوبوف تستقصي وتجمع حالات إ.ف.ح العفوية . وقد جرر المرحوم جليرشتاين ، الاختصاصي في علم الأحياء من مجموعة بوبوف ، تقريرا عن حادث ميتانفسي حدث لرجل قانون سوفياتي معروف ، هو الدكتور الكسندر كوناي ، «الرجل ذو الفكر النقدي ،والمراقب الثاقب النظر ، وصاحب الحس السليم الذي لا ميل عنده البتة الى الصوفية» .

كان كوناي يستقل قطارا الى موسكو حين شرع — على

هدهدته ــ يحلم بواحد من قدامى اصدقائه ، لاجشنيكوف . رأى هذا الاخير يمد يده وينظر اليه بتضرع . واستيقظ كوناي . لم يكن قد التقى بلاجشنيكوف منذ عهد بعيد ، ولم يكن يفكر به كثيرا . ونظرا الى سن لاجشنيكوف ، فقد قرر كوناي بينه وبين نفسه انه يفعل حسنا اذا ما ذهب لزيارته بلا تأخر . وعلى هذه الفكرة ، غط في النوم من جديد . ومن جديد ايضا تبدى له لاجشنيكوف في الحلم . في هذه المرة امسك به صديقه من يده، وطلب منه شيئا ، ودعم طلبه بمقتضيات كثيرة . ولم يتمكن كوناي من ان يتذكر بدقة ما كانت طبيعة الطلب ، لكن الإلحاف الشديد الذي اقترن به ترك فيه بالغ الاثر حتى انه عقد العزم على الذهاب ، بمجرد وصوله الى موسكو ، لزيارة صديقه القديم بلا توانٍ .

اتجه للحال الى كشك لبيع الصحف يعلم انه يستطيع الحصول فيه على دليل للعناوين . لكن الكشك كان مغلقا . وتذكر كوناي بغيظ ان اليوم يوم احد . من المستحيل العثور على العنوان الحالي للاجشنيكوف . وكما لو بغير ارادته ، توقف كوناي ونظر الى باب المنزل الذي توقف امامه . وامكنه ان يقرأ على لوحة الباب اسم «إ.إ. لاجشنيكوف» . وقدمت امرأة عجوز لتفتح له الباب ولتقوده الى الطابق الاول .

قالت له : «لقد اتيت بعد فوات الاوان» . كان لاجشنيكوف راقدا في نعشه . واردفت المرأة العجوز تقول : «أتعلم ، لقد فكر بك قبل ان يفارق الحياة . كان يقول : لو كان الكسندر هنا، لأمكنه ان يساعدني» .

كتب مرة مدير معهد بوبوف ، ايبوليت كوغان : «لا يسعنا ان ننكر واقعية تلك الظاهرات . لكن ما علتها ؟» . لقد احرز السوفياتيون ، في تقصيهم لجميع الشروط الممكنة والمتخيلة التي يمكن ان تسهل حدوث إ.ف.ح ، وانطلاقا من ظاهرات من نوع الصدمة الناشئة عن معاناة كائن عزيز لسكرات الموت ،

احرزوا تقدما وتوصلوا الى استنتاجات اقل وضوحا مثل تأثير ادوار القمر وتقلبات الحقول المغنطيسية .

صرح الدكتور ليونيد فاسيلييف قبيل وفاته في عام ١٩٦٦ : «انني ادرس التخاطر العفوي منذ اكثر من اربعين عاما ، وقد جمعت مئات من الشهادات الجديرة بالتصديق بخصوص ذلك النمط من الاتصال العفوي . وقبل بضعة ايام ، اطلعتني معلمة على تجربة غريبة حدثت لها مع ابنها» .

كتبت تلك المرأة : «لست من الطراز المتطير ، لكن التجربة التي حدثت لي قبل احد عشر عاما لا تزال بالنسبة الي لغزا ... كان ابني طالبا في المعهد التقني المتعدد الاختصاصات[1] في كييف حين أصيب بداء السل . ووضع قيد المعالجة في كييف . ولما كنت أعرف أن حالته خطيرة ، فقد قضيت اكثر من ليلة بيضاء واحدة . وحتى أغالب همومي ، اكتسبت عادة المطالعة طوال الليل .

«ذات مساء ، كنت غارقة في مطالعة «القصيدة التربوية» لماكاركنو ، حين شعرت فجأة بتيار كهربائي يخترق جسمي ، ثم ظهر امامي بوضوح وجه ابني المنهك والمعذب ! كان ينظر الي بضراعة ، وكأنه يريد ان يقول لي شيئا ما . ولبثت أشخص النظر اليه بلا حراك ... ثم اختفى فجأة . وادركت للحال ، وانا أرتعد هلعا ، أن ابني لم يعد من الأحياء ، وانه قضى نحبه في تلك الليلة بالذات ، وسجلت ، ودموعي تنسال ، الساعة واليوم والتاريخ .

«كان ما عاينته هو الحقيقة بعينها . وقد علمت فيما بعد ان ابني فارق الحياة في تلك الساعة في كييف ، على بعد ٣٠٠

---

١ ـ البوليتكنيكي . ـم ـ

كيلومتر من هنا» .

ويضيف الدكتور فاسيلييف قوله : «لم تشك تلك السيدة قط من الهلوسة ، لا قبل التجربة ولا بعدها» .

لو كان الباحث غربيا لحاول ان يعين على وجه الدقة ساعة ظهور وجه الابن : قبيل موته ام اثناءه ام بعده . وهذا الاحتمال الاخير لم يفكر به السوفياتيون قط .

ان مثل هذا التبليغ الذي يكتنفه الالتباس قد أثار ايضا لغطا كثيرا حول عازف البيانو والملحن الروسي الشهير انطون روبنشتاين . ففي ليلة ليلاء كانت فيها النوافذ تصطفق من شدة العاصفة ، كان روبنشتاين يتناول طعام العشاء مع تلميذه وليم نيشيا . يروي نيشيا فيقول : كانت ليلة مخيفة ، حتى بالنسبة الى لينينغراد ، عاصمة الطقس العاصف ، وسأل روبنشتاين تلميذه عما توحي اليه به الريح التي لا ينقطع هزيزها . فأجاب نيشيا «بأنين ارواح الهالكين» . وتلت ذلك مناقشة حول امكانية حياة اخرى . فقال نيشيا باندفاع : «انني لموقن بأن هناك حياة اخرى ، واذا سبقتك الى الموت فسأرجع لأراك كي اقنعك !» . نظر روبنشتاين الى تلميذه . ثم اجاب برصانة تامة : «قبلت الرهان . اذا فارقت الحياة قبلك ، فسأحاول ان افعل مثلك» .

بعد انقضاء ستة اعوام ، في ١٩٤٨ ، استيقظ نيشيا فجأة ، وكان يعيش آنئذ في باريس ، على صيحة مرعبة . كان وجه روبنشتاين منحنيا فوقه ، مشوه المعالم بتكشيرة بشعة . نهض نيشيا مرتعد الفرائص ، وأضاء الانوار جميعا ، محاولا اقناع نفسه بأن الكابوس انتهى . وكان قد نسي الاتفاق الذي عقده مع معلمه ، حين طالعته في الغد ، بعد الظهر ، العناوين الكبيرة : **موت روبنشتاين الفجائي** . روت صديقة للاثنين ، كانت قد حضرت في لينينغراد احتضار الموسيقار ، روت ذات يوم لنيشيا ان روبنشتاين فارق الحياة على اثر نوبة قلبية خانقة ، وانه لحظة فارقها أطلق صرخة منكرة حانقة يائسة هي من أرهب ما

سمعته اذناها قط . وعلق نيشيا : «حتى في ساعة الموت وفى بوعده ، مثلما وفى به طول حياته» .

لقد جمع روبنشتاين ، وهو في ذروة الرعب والالم ، طاقة فوق طبيعية وحاول ان يفي بنصيبه من الصفقة . لكن هل كان بيننا ام في عالم آخر ؟ يستحيل تعيين ذلك على ضوء ما باح به نيشيا . فالباحث ينخل الشهادات ويفرزها ، ببرودة وكيل التامين عندما يتفحص بقايا منزل محترق . لكن الناس الذين اشرقت نفوسهم ، ولو لهنيهة خاطفة من الزمن ، بتجربة خارقة للطبيعة كثيرا ما يجعلون من هذه التجربة مفتاح وجودهم وفلسفتهم .

يقف الدكتور برنار ب. كاجنسكي ، الى جانب فاسيلييف، على راس المدافعين عن البحث الباراسيكولوجي ورواده في روسيا منذ السنوات الاولى للعهد الشيوعي . كان فتى يافعا حين قامت الثورة ، وكان يعيش في تبيليسي . ذات ليلة استيقظ مذعورا . فقد سمع صوتا ... صوتا غريبا ، معدني الجرس ، وكأنه صوت رنين . وقد شبهه كاجنسكي بينه وبين نفسه بأنه كالصوت الذي يصدره الانسان عندما يحرك شرابا ويصدم حواف الكأس بالملعقة . في صبيحة اليوم التالي ، لم يتسن الوقت لكاجنسكي للتأمل في سبب قطع نومه : فقد أصيب واحد من اصدقائه بالتيفوس الذي كان يجتاح يومئذ تبيليسي . اجتاز بسرعة الكيلومترين اللذين يفصلانه عن منزل صديقه . وفتحت له الباب والدة هذا الاخير . كانت تبكي . قالت : «اواه يا برنار. كنت اعطيه ادويته في الليلة الماضية ، ولحظة رفعت الملعقة الى شفتيه ، صارت عيناه غريبتين ... كدرتين . ولفظ آخر انفاسه ! لقد مات في تلك اللحظة بالضبط !» .

طلب كاجنسكي ــ وكان منهجي التفكير ــ من الوالدة المكلومة ان تقص عليه تفاصيل حركاتها قبل ان تقترب من السرير .

«دخلت الى الفرفة ، وصببت الدواء في قدح ، وحركته ـ بماذا؟ ـ بملعقة صفيرة . ثم دنوت منه ، وفي تلك اللحظـــة ...» . كان كاجنسكي نصيرا راسخ اليقين للمذهب المادي ، لكنه بقي الى آخر حياته مقتنعا بأنه استيقظ على الصوت الذي كانت تحدثه الملعقة الصفيرة وهي ترتطم بكاس صديقه . واقسم منذ ذلـــك الصباح ، وقد اخذ منه الانفعال كل ماخذ ، بانه سيقف نفسه للدراسة العلمية لتلك التواصلات الفريبة .

ان حالة التخاطر العفوي تحدث ، اكثر ما تحدث ، فـــي المواقف المتأزمة الخطيرة ، والمميتة في غالب الاحيان ، كما يؤكد معظم الباحثين . فعلاوة على الحاجة الآسرة الى الاتصال بكـــل وسيلة ممكنة ، والتي تعلن عن نفسها في اويقات الازمة تلك ، ثمة عامل آخر يمكن ان يفسر لنا لماذا يرد بكثرة وتواتر ذكر تلـــك المواقف في حوليات الباراسيكولوجيا . فالرؤية المباغتة والمؤلمة لصديق يحتضر تنطبع في الذاكرة مثلما ينطبع وميض فـــلاش الكاميرا في شبكية العين . فليس من سبيل الى نسيانها . ويبدأ البحث عن تفسير . بينما يمكن للمرء ان ينسى بسهولة اكبـــر تجربة تخاطرية حدثت في ظروف عادية ، او انه لا تســـاوره الحاجة الماسة الى تحليلها بتمعن اكبر . لقد وضع الباحثون من مجموعة بوبوف ، بغية توسيع ملفاتهم ، اعلانات في الصحافـــة تطلب الى السوفياتيين ان يبعثوا اليهم بقصص التجارب الفريبة التي يمكن أن تكون قد وقعت لهم . ويبدو ان الكثيرين من الناس قراوا تلك الاعلانات في الصحف ؛ فقد التقينا بالمصادفة ، في واحدة من حدائق لينينفراد ، بمهندس في طيران البحرية الح علينا كي يرافقنا في جولة مرتجلة في المدينة . وتوقف امام فتاة. « في الجانب الآخر يوجد المنزل الذي صرع فيه راسبوتين . هوذا المكان الذي ألقيت فيه جثته من خلال الجليد» . ووجدنـــا ان اللحظة مناسبة كي نخبره بالهدف من زيارتنا للاتحاد السوفياتي. لم يكن له اطلاع على الباراسيكولوجيا ، لكنه قال لنا : «يجب ان

تذهبا الى المعهد الفلاني في موسكو . فانا اعلم انه من الممكن ان تبعثا اليه بقصص الاحلام والظاهرات الغريبة التي وقعت لكما».

لقد زعم صحافي اميركي طويل الباع في موضوع الابحاث الباراسيكولوجية ان باحثين سوفياتيين صارحوه بانهم يقدمون بضعة كوبيكات للفلاحين مقابل قصص المنامات او الرؤى الغريبة. ثم يجري بعد ذلك تحليل جميع تلك التقارير بمساعدة الناظمة الآلية . ولم نعثر على اي دليل يسمح بتأكيد صحة ما اعلنه ذلك الصحافي ، لكن الواقعة ليست مما لا يصدق اذا ما علمنا مدى ولع الروس بالسبرنطيقا ونهمهم الى شتى صنوف المعلومات .

الوصيل التخاطري :
وسيط منسي ؟

ليس الاخراج المسرحي لموقف متأزم تقنية مختبرية مثلى ، ولاسيما اذا كان الهدف ـ كما هو الحال مع الروس ـ استحداث ظاهرة إ.ف.ح . لكن اذا تركنا جانبا تلك المواقف المختبرية البالغة الصعوبة ، نجد ان حالات ا.ف.ح. العفوية تنطوي على ميزة اكيدة لعل الروس هم الوحيدون الذين لفتوا الانظار اليها . فالشخص الموجود في حالة خطر ، والذي يغوص في الرمال المتحركة ، يشارك بكل تأكيد في ظاهرة التخاطر التي ستوقظ صديقه النائم بكل طمأنينة في فراشه. وفي الغرب يعتبر الوصيل المرسل منذ زهاء اربعين سنة مجرد رسول يقوم بدور الوساطة ، وهو دور يضرب عنه الصفح تماما . ويسود الاعتقاد بان اي واحد من الاشخاص الموجودين في المختبر قادر على اداء المهمة ، ويتم اختياره بوجه العموم من بين العلماء الذين يتولون اجراء التجربة. وبالمقابل يعتبر السوفياتيون ان الوصيل ، او كما يسمونه ،

المحث ، محبو هو الآخر بملكات ميتانفسية . وعليه ، نراهم يدربون هذا الشخص ويدرسونه بواسطة اجهزة فيزيولوجية ، بمثل العناية التي يدربون ويدرسون بها المتلقي .

ما الاواليات التي تتحكم بارسال تبليغ تخاطري ؟ لقد اقترح وسيط روسي معروف ، هو ميخائيل كوني ، عدة فرضيات على العلماء . كوني رجل طويل القامة ، اشقر الشعر ، وقد تجاوز الستين من العمر . وجبينه المتغضن يضفي عليه سيماء من تركيز الذهن الدائم . وهو يعرض ، نظير وولف ميسنغ ، «تجاربه السيكولوجية» على الجمهور منذ سنوات . وقد صرح لنا ادوارد ناوموف ، وكان قد فحص كوني : «انه يملك مواهب إ.ف.ح مرموقة» . وكان كوني يعرف بالتجربة ، نظير الباحثين الذين يدرسون التخاطر العفوي ، ان الانفعال العميق يمكن ان يتسبب في كثير من الاحوال في حدوث أشباه تلك الظاهرات . فقبل عدة سنوات ، يوم كان طالبا في معهد للفنون الجميلة ، استيقظ ذات صباح فريسة شعور بالحصر والقلق. قال للطالبين اللذين يقاسمانه شقته الصغيرة : «لقد حلمت حلما فظيعا . رأيت في المنام والدتي وقد عضها جرذ ! كان المشهد واضحا للغاية... وكنت أحس بأنني حاضر فعلا . ثم رأيت والدتي ممددة على سرير ، وقد علاها الشحوب ، تتلوى ألما ، وكأنها تحتضر» . وشخص الفتى بناظريه الى النافذة ذات الستائر المخرمة بوجه مكتئب . ولم يفلح صديقاه في طرد قلقه عنه .

في اثناء النهار ، وصلت برقية من مدينة فيتيبسك ، مسقط راس كوني ، الواقعة الى الغرب من موسكو بمسافة ١٥٠ كيلومترا . كانت مؤرخة في ٢١ شباط ومفادها : «أمك مريضة جدا . عد حالا» .

يروي كوني فيقول : «وصلت الى فيتيبسك في اليوم التالي ، ووجدت والدتي في حالة خطيرة للغاية . فقبل عشرة ايام ، في ١١ شباط ، عضها جرذ في ساقها . وفي حينه ارتئي

ان الجرح غير خطر وغير عميق . لكن الفنفرينا ضربت ساقها ، وفي العشرين من الشهر الجاري ارتفعت الحمى ، وتدهورت صحة المريضة . وفي صبيحة ٢١ ، اجتمع الاطباء وقرروا وجوب بتر ساقها ، على الرغم من اخطار مثل هذه العملية على المريضة التي تشكو من داء السكري . واسترقت امي السمع الى مقتطفات من المحادثة وتصور لها انها هالكة لا محالة . كانت الساعة آنذاك العاشرة صباحا ، وهي ساعة كنت مستسلما فيها للرقاد في موسكو . وقد وصلتني الصور والمعلومات التي ضبطتها امي ، وكذلك الصدمة المؤلمة التي سببتها لها ، بطريق التخاطر في اللحظة التي وصلت فيها ازمتها الانفعالية الى ذروة شدتها».

تركت رؤيا الأم المريضة اثرها العميق في كوني ، فهجر حياة الرسم ، ويمم شطر العروض الباراسيكولوجية . واكتشف كوني، من خلال عمله مع مئات من الاشخاص ، ان الانفعال ليس العامل الوحيد الذي يمكن ان يتسبب في حدوث التخاطر .

يقول كوني : «ان الصم ـ البكم هم من احسن من يمكن ان يقع عليهم الاختيار كوصلاء» . وقد تحقق من صحة ملاحظته هذه في مؤسسة للصم ـ البكم في غيلندزيك . «ركبت طائرة الهيلوكوبتر التي تطير من سوشي الى غيلندزيك برفقة ثلاثة من الصم ـ البكم . جلس رجلان امامي ، وجلست بقربي في المؤخرة امرأة . وفي اللحظة التي همّ فيها احد الرجلين بالالتفات الى الوراء نحونا ، رفعت المرأة عينها عن كتابها ونظرت اليه . وحدثت التجربة بالعكس ايضا . اذ ما كادت المرأة تتوقف عن المطالعة لتبلغ الرجلين شيئا ما ، حتى استدار الاصم ـ الابكم الى الخلف بدوره .

«اثبتت التجارب التي قمنا بها في غيلندزيك ، مثلما كنا افترضنا ، ان الصم ـ البكم (وسائر الافراد بدرجة اقل) يدركون ادراكا حسيا واضحا في لحظة معينة ان ثمة شخصا آخر لا يرونه

ينظر اليهم . وبعبارة اخرى ، انهم يتلقون اشارة «تخاطرية» . ومع استبعادنا المصادفات المحتملة ، تكللت جميع التجارب التي اجريناها على الصم ـ البكم بالنجاح» .

يدعي كوني وميسنغ كلاهما ان الصم ـ البكم موهوبون للغاية فيما يتعلق بإسقاط الفكر من دماغ الى آخر . لماذا ؟ لان الصم ـ البكم ، كما يعلن الوسيطان، قد تعلموا ، بدافع الحاجة الى الفهم، ان يفكروا بواسطة صور بصرية واضحة للغاية . وهذه المقدرة على انتاج صور ذهنية واضحة تشكل ، في اعتقاد العلماء السوفياتيين ، العنصر الاساسي في نقل تخاطري جيد . هذا ما اكتشفه بلاتونوف بمحاولته تنويم الناس تخاطريا . فقد فهم انه لا يكفي ان يركز المرء فكره باطنيا على كلمة «ارتخ» او «نم» او اي امر لفظي يهدف ، كما في التنويم المغنطيسي ، الى إحداث حالة نوام . «لقد كنت مرغما ، حتى أحدث المفعول المطلوب تخاطريا ، على استحضار الصورة الذهنية للشخص المنوّم» .

بم يوصي السوفياتيون الوصلاء بعد ان يطلبوا اليهم «استحضار صورة واضحة وحية» في ذهنهم ؟ لقد كان يوري كامنسكي ، الاختصاصي في الفيزياء الحيوية ، الذي اكتسب معرفة اختبارية عميقة استخلصها من تجاربه المديدة ، يسدي النصائح التالية الى اولئك الذين يريدون ارسال تبليغ تخاطري . الجلوس على اريكة مريحة ، والتحرر التدريجي من توتر الجسم العصبي ، تماما كما يفعل المرء حين ينضو عنه الروب دي شامبر . وعلى الصعيد النفسي ، أن يضرب صفحا عن همومه وانفعالاته . ثم ان يضع كامل ثقته في نفسه . «عند البدء بتبليغ صورة ، ينبغي تحاشي الدخول في مونولوج داخلي . ابدأ بلمس الشيء الذي تريد نقل صورته . يجب ان تكوّن عنه صورة لمسية محددة وواضحة. ثم فكر بالشيء ذاته . واخيرا استحضر صورة المتلقي. تخيله وهو ينظر الى الشيء ويلمسه» .

يروي كامنسكي ان ٣٧ شخصا افلحوا ، بعد التقيد بهذه

الشروط ، في تحديد هوية ٧ اشياء من اصل ١٠ على الوجه الصحيح. واذا امكنك ان تنفذ بسهولة جميع الشروط التي عيّنها كامنسكي ، فهذا بذاته دليل على ان لك قدرة استثنائية على السيطرة على نفسك . وهذه السيطرة هي ما يتمرن الروس على اكتسابه .

ان الفكرة الجديدة القائلة ان الحواس لها دورها في وظيفة بسي قمينة بأن تفسر الانجازات التخاطرية للصم ـ البكم الذين ينزعون نزوعا طبيعيا الى تطوير حاستي البصر واللمس عندهم . لقد عمل الوسيط كوني كثيرا في مجال التركيب بين الاحساس البصري والاحساس اللمسي . يقول : «كنت جالسا ، ممسكا بيدي اليمنى قدحا من الشاي الساخن . ورحت احاول ان اسقط هذا الاحساس على مجموعة من ١٧ شخصا اجلسوا في الغرفة المجاورة بعد تنويمهم مغنطيسيا . وقد سئلوا عما يحسون به . فأجابوا جميعا ، بقدر او بآخر من الاقتناع ، بأنهم يحسون بإحساس من الحرارة في يدهم اليمنى.. ثم وخزت نفسي بإبرة . فأطلق الاشخاص المنوَّمون ، حتى قبل ان يتسنى الوقت لسؤالهم ، صيحة الم شبه جماعية . وقد كررنا هذه التجارب بالنجاح ذاته على مجموعات من خمسة عشر الى عشرين شخصا».

يقول كارل نيقولائيف : «اذا كان في مستطاع فرد بعينه ان يفعل ذلك ، فليس ثمة من سبب يحول دون ان يفلح الآخرون ايضا في ذلك» . ويؤيد السوفياتيون هذه النظرية بحرارة . انهم لا يكتفون بتدريس المتخاطرين المفترضين ... بل يعتقدون ايضا انه من المفروض ان يكون في مستطاع اشخاص آخرين تحريك عيدان الثقاب عن بعد مثلما تفعل الوسيطة السيكوكينيزية نليا ميخائيلوفا .

يزعم الدكتور جنادي سيرغييف انه سجل فارقا غير مألوف في الطاقة في دماغ نليا . ويصرح الروس اليوم انهم اكتشفوا

اشخاصا آخرين لديهم فارق مماثل في الطاقة بنسبة ٥٠ الى ١ بين مقدمة المخ ومؤخرته . ويتدرب الان فريق من اولئك الاشخاص ، الذين وقع الاختيار عليهم ايضا لمدوانيتهم وحاجتهم الى المنافسة ، خلال جلسات مشتركة ، وهم يحاولون ان يحركوا سهما معلقا بسلك في داخل علبة من الزجاج ، وذلك بتحديق النظر اليه . وقد تحدث ناوموف عن بعض نجاحات امكن احرازها . ويرى السوفياتيون ان ذلك السهم هو اسهل الاشياء قابلية للتحريك بفعل السيكوكينيزيا .

اذا ما اعتبر التخاطر هبة او ملكة فطرية ، فلماذا لا تكون البداية بتجارب بسيطة ، تماما كما يبدأ بتعليم القراءة والكتابة بالالفباء لا بدراسة كتب تيلار دي شاردان(٢) .. ان للسوفياتيين تصورهم الخاص عن مفهومي «البسيط» و«المعقد» في حال تطبيقهما على التخاطر . فالدكتورة لوتسيا بافلوفا ، التي عزلت «مخططات» تخاطرية من بين الذبذبات التي يحدثها الدماغ ، قد لاحظت واقعة سيقف امامها اكثر من باراسيكولوجي واحد محتارا اذا اتضح انها صحيحة . اذ يبدو ان الاستبار الذي يطلب فيه الى المتلقي ان يحزر ورقة من اوراق اللعب ـ وهو الاستبار الذي يقوم على اساسه البحث الغربي بكامله ـ هو في الارجح اسوأ وسيلة للحصول على تظاهرة إ.ف.ح .

تقول الدكتورة بافلوفا :

«لقد اكتشفنا انه من الافضل عدم ارسال اشارات تخاطرية فائقة السرعة . فلئن تتالت التبليغات التخاطرية على نحو سريع ومتلاحق ، تضاءل وضوح التعديلات التي تطرأ في داخل الدماغ والتي ترتبط بظاهرات التخاطر ، ثم لا تلبث ان تتوقف بصورة

---

٢ ـ بيير تيلار دي شاردان : يسوعي وعالم احاثة ومفكر فرنسي (١٨٨١ ـ ١٩٥٥) . ـم ـ

نهائية . واستبار اوراق اللعب ينطلق من فكرة ضرورة تبليغ عدد كبير من المعلومات في أمد محدود من الزمن كيما تتاح امكانية تجميع ادلة احصائية . انا لا اقول بوجوب التخلي عن التجارب الكمية ، لكن ينبغي ان تؤخذ بعين الاعتبار الشروط المثلى **الحنتة** التي تسمح بتواصل فكري جيد» .

بيد ان الدكتور فلاديمير فيدلمان قد نفخ ، على ما تشير الدلائل ، حياة جديدة في النظريات الاحصائية . فهو ينفذ في موسكو تجربة تشبه غاية الشبه مشهدا من مشاهد الهلوسة النفسية الناجمة عن تعاطي المخدرات . فقد قرر ذات يوم الفريق الذي يعمل معه ان يبلّغ بواسطة التخاطر ارقاما . ولو كان الباحث عاديا ، لكان طلب من الوصيل ان يحدق النظر في ورقة لعب تحمل الرقم ٦ ، على سبيل المثال . ولكان الوصيل حاول ان يتصور الرقم ٦ بمنتهى الوضوح .

اما فيدلمان فقد لجأ الى الالكترونيات . قصف وصيله بسلسلة ارقام ٦ مضيئة ، تومض بانتظام . وكان الوصيل يردد بلا انقطاع على ايقاع الضوء : «ستة ، ستة» . وأفلح فيدلمان في خلق نوع من سحر سمعي ـ بصري .

فيما كان الوصيل هدفا لهذا القصف ، تشكل العدد الصحيح و«استقر» في فكر المتلقي الموجود على مسافة معينة . يقول منظمو التجربة انه كان يحدث احيانا ان يتصحح رقم من الارقام تم ادراكه بصورة مغلوطة في بداية التجربة ، ليحل محله الرقم المضبوط في ذهن المتلقي .

صرح فيدلمان امام جمهور يتألف من سوفياتيين اثناء مؤتمر الباراسيكولوجيا الذي انعقد في شباط ١٩٦٨ : «في مستطاع اي شخص كان ان يبلّغ رقما بتلك الطريقة . وقد قبلنا كوصلاء كل من عرض نفسه . لكننا لاحظنا ان التبليغ يتطلب ، بحسب الاشخاص المرسلين ، فترة من الزمن تتراوح بين عشر ثوانٍ واكثر

من دقيقة ونصف دقيقة بعد اول اشارة مضيئة . وفي تجربة لتبليغ ١٣٥ رقما عن بعد ثلاثة كيلومترات ، تم تلقي زهاء مئة رقم بوضوح تام» .

«ازاء النجاح الذي أحرزه فيدلمان بفضل القصف المضيء ، لا يمكن للمرء ان يمنع نفسه من التفكير بالانواع الحديثة من السيرك بأضوائها المتعددة الاشكال والالوان وموجاتها الصوتية والوضاءة ووعودها التي تقول لك فيها : «الحد الاقصى من الوسائل المسموح بها لجعل راسك يدور») .

قبل تجارب فيدلمان بزمن ، كان ميخائيل كوني قد اكتشف علاقة وثيقة بين الذهن والارقام . فذات يوم (وكان له من العمر اثنا عشر عاما) ، أسقط زميل له في المدرسة علبة ثقاب على الارض ، فتناثرت عيدانها . قال كوني بسرعة : «يوجد واحد وثلاثون عودا» . وبدأ رفاقه يضحكون ، لكن حين عدوا العيدان، وجدوها بمثل ذلك الرقم بالضبط . ولاحظ كوني بذهول انه لا حاجة به الى إعمال فكره كيما يتمكن من اعطاء الرقم الصحيح للاشياء التي يراها : كومة من عيدان الثقاب ، اسنان مشط ، او اعمدة طويلة من الارقام . فالجواب الصحيح كان يأتيه عفو الخاطر .

اثناء رحلة له في الصين ، توقف كوني ـ فيما هو يتنزه ـ ليأخذ صورة فوتوغرافية لحوض أسماك حمر ، ونسي آلة التصوير وراءه . قال : «أذكر انني وضعت آلة التصوير في عين اللحظة التي كانت تمر فيها السمكة السابعة والتسعون !» . وتحتل هذه التجليات الحسابية مكانها اليوم في برنامج عروض كوني المسرحية .

قبل بضع سنوات قام بجولة في دوبنا ، على مقربة من موسكو . ويطلق السوفياتيون على تلك البلدة اسم «آتومفراد»، لانه فيها يوجد معهد الابحاث النووية التابع لاكاديمية العلوم . وهناك جرت مواجهة بين كوني وبين عشرات من ألمع الباحثين

العلميين في الاتحاد السوفياتي . وكان من بين التجارب الهادفة الى قياس مقدرة مخه على القيام بدور الناظمة الآلية ، تجربة الدوائر . طلب كوني متطوعا من بين الفيزيائيين، ورجاه ان يرسم على لوح اسود عددا كبيرا من الدوائر . «من الممكن ان تكون متداخلة او متحدة المركز . ارسمها كما تشاء !» .

وغادر كوني خشبة المسرح ، وعصبت عيناه . وأدار العلماء اللوح الاسود باتجاه الجمهور . وبموجب اشارة ، استدار كوني ــ وكان متجمعا على نفسه وكأنه فهد يتحفز للوثب ــ ورفع العصابة عن عينيه . كان اللوح الاسود قد استحال ابيض من كثرة الدوائر المرسومة عليه بالحكك . «١٦٧ !» . واستغرقت نخبة العلماء خمس دقائق ونيفا لتجري الحساب ولتتحقق من صحة جواب كوني الفوري .

بعد هذا العرض الذي يمكن وصفه بأنه ضرب من السحر العددي ، تلقى كوني رسالة من الباحثين في معهد دوبنا : «لو لم نكن من الماديين ، لكان من الصعوبة بمكان ان نتحقق من ان الدماغ البشري قادر على اجتراح مثل هذه المعجزات» (**دوبنا** ، ١٢ نيسان ١٩٥٩) .

لعل حسابات كوني لا تندرج ، في نظر بعضهم ، في مضمار الباراسيكولوجيا بالمعنى الضيق للكلمة ، لكنها تثبت وجود صلة وثيقة بتلك المناطق العميقة من النفس الانسانية التي يحاول السوفياتيون ان يحفزوها . وقد قرر الباراسيكولوجيون الموسكوفيون ان يدرسوا ، من زاوية إ.ف.ح تخصيصا ، علاقات كوني بالارقام . فوضعوا لوحين أسودين في غرفتين بعيدتين ، وأقاموا دارة تلفزيونية مغلقة في الغرفة التي فيها كوني . يروي ناوموف : «اخذت أكتب أرقاما شتى على اللوح . وبعد فترة من الزمن ، اجرينا مقارنة مع لوح كوني . لقد سجل عليه الارقام ذاتها ! لقد تعاون كوني على الدوام ــ فضلا عن موهبته المرموقة ــ

تعاونا صادقا ومخلصا مع الباحثين العلميين بهدف مساعدتنا على فهم اوالية التخاطر» .

تنمية المواهب الميتانفسية

يسعى السوفياتيون ، بمحاولتهم استثارة تظاهرات تخاطرية لدى أفراد لا يتمتعون بمواهب كوني الخارقة للمألوف ، يسعون الى خلق **علاقة** ممتازة بين المرسل والمتلقي . ولفظة **علاقة** هذه تتضمن ، في المعاجم السوفياتية ، وفرة من معاني الانسجام والتآلف ، سواء اجسمانيا ام عقليا . وكثيرا ما يتمرن المرسل والمتلقي على التخاطر في غرفة واحدة ، كيما يتمكن المرسل من تصحيح اخطاء المتلقي عقليا .

قال لنا واحد من الفيزيائيين الشبان :

«نعتقد ان الشخص الذي يمتلك مواهب ميتانفسية يضبط ذبذباته العقلية تلقائيا وعفويا ، وعن لاوعي في أرجح الظن ، مع ذبذبات الآخر ؛ وهذه «العلاقة» تتيح له ان يقرأ افكار الغير ، أو، كما في حالة المبرئين ، ان يؤثر على الشخص بشكل او بآخر . اننا لعلى اقتناع بأن في وسع الكثيرين من الناس ان يتعلموا كيف يدخلون في علاقة متبادلة بعد تدريب لا تزيد مدته على الثلاثة أشهر » .

الا انه لم يكشف لنا عن سر الطريقة .

يغتبط السوفياتيون للغاية حين يعثرون على دليل يثبت وجود تآلف جسماني بين الوصيل والمتلقي : قلبان يخفقان بايقاع واحد ، تماثل في نشاطات التخطيط الكهربائي للمخ اثناء الاتصال التخاطري ، الخ . قال لنا ناوموف وهو يبتسم بملء فيه : «حين يدخل كامنسكي ونيقولائيف في اتصال تخاطري ، يخفق قلباهما وكأنهما قلب رجل واحد !» . وقد اكتشف ، مع الدكتور

سيرغييف ، ان ضربات قلب كل من الوصيل والمتلقي تتزامن حينما يتم الاتصال بينهما اثناء تناقل انفعال من الانفعالات . وقد لوحظت زيادة موازية في عدم انتظام نبض القلب وتسارع في النبض ، وتضخم في صوت حركة القلب . ويتحدث الباحثون كذلك عن تغيرات متواقتة في توتر وطيف المنحني الذي يسجل الهزة لحظة حدوث «التماس البيولوجي» للظاهرة التخاطرية .

يرى السوفياتيون ان هذا التآلف الجسماني الفريب بليغ الدلالة ، ويساورهم الاعتقاد بانه ني ارجح الظن عامل ميسر للتخاطر . ومن جملة اهدافهم النجاح في خلق تآلف بيولوجي . وهم ، في ابحاثهم لتحرير القدرات التخاطرية ولاحداث نوع من «الترجيع» بين المتخاطرين ، لم يلجؤوا الى حقول الخشخاش والقنب الهندي (٣) ، وانما الى حقول اكثر اصطناعية .

قالوا لنا :

«قبل تجارب إ.ف.ح وبعدها على حد سواء ، نضع الوصيل والمتلقي في وسط حقل مغنطيسي اصطناعي . فذلك يعود عليهما بطاقة اضافية . وهذه الحقول المغنطيسية ليست بالضرورة قوية ؛ فحتى الحقول الضعيفة تكفي . وقد طرأ تحسن ملموس على التخاطر بفعل تلك الحقول المغنطيسية» .

سألناهم :

— هل ترسلون ايونات سالبة باتجاه المتخاطرين ؟ (الايونات (٤) السالبة هي جزيئات ذات شحنة كهربائية سالبة) .

لقد فاز الدكتور فاسيلييف بجائزة لينين على اعماله في مضمار الفيزيولوجيا ، وعادت عليه ابحاثه بخصوص تأثير

---

٣ — هو القنب الذي تستخرج منه الحشيشة . —م—

٤ — او الدوالف . —م—

الايونات على الجسم الحي بشهرة عالميـــــة . وقد أجابنـــــا السوفياتيون :

«ان معداتنا على درجة كبيرة من التعقيد . ونحن نستخدم حقولا ايونية ، بل لقد ذهبنا الى أبعد من ذلك . لكن هذه التجارب لا تزال سرية للغاية» .

هكذا وجدنا انفسنا وقد عدنا الى المشكلة التي تحيِّر الباب غير المطلعين منذ قرون وقرون . هل الامر مزحة ، أم ان الروس اكتشفوا بالفعل شيئا ما جديدا ؟

لقد صرح مؤخرا فيزيائي فرنسي ، وهو الدكتور جـــاك برجيبه : «لقد قام معهد بافلوف بموسكو طيلـــة عهد ستالين بأبحاث سرية بصدد تأثير الحقول المغنطيسية ذات التوتر العالي على تظاهرات الادراك فوق الحسي ، وهذا بالرغم من أن فكرة التخاطر لم يكن مرضيا عنها كل الرضى عهدئذ» . وكان الدكتور ف. أ. كوزاك من معهد بافلوف قد صرح قبل ذلك ببضـــع سنوات : «ان ظاهرات الاستبصار والادراك فوق الحسي هـــي نتيجة لحقل من القوى ليس هو بالضرورة من طبيعة كهرطيسية» .

في الولايات المتحدة ، كتب مهندس الكتروني من واشنطن الى معهد الباراسيكولوجيا : «لقد اتضح لنا ، انا وزملائـــي ، ان التعامل مع اجهزة ومعدات ذات توتر عال يحدث بيننا احيانـــا تظاهرات تخاطرية» . وقد تم تشكيل رابطة خاصة لدراسة تلك الوقائع .

يظهر ان الروس يعتقدون ان بعض القوى الطبيعية ، التي نخضع لها نحن جميعا ، تستطيع ان تحفز او ان تلغي مفعـــول بسي . فميخائيل كوني لا يزال يتذكر الامسية الشاقة التـــي امضاها فوق خشبة المسرح يوم ٨ تموز ١٩٦٦ . «في ذلك المساء، ارتكبت من الاخطاء ما لا ارتكبه على مدار عدة شهور من العروض المسرحية العادية . وقد وجدت نفسي مكرها على تكرار بعـــض الحركات مثنى وثلاث ورباع قبل ان أتمكن من ادائها على الوجه

الصحيح . كنت أحس اني في احسن حالة ، ولكن كنت أجدني عاجزا عن التصرف وفق ارادتي او عن تركيز افكاري . وانا أعلم لماذا : فقد كانت تهب على موسكو في تلك الليلة عاصفة مرهبة . لقد صعب عليّ على الدوام ان أعمل فيما الرعد يقصف والبروق تخدد السماء ، ولكن ما العمل ؟ فمواقيت جولاتنا لا تحدد وفقا للطقس ، وانا ، شأني شأن لاعبي كرة القدم ـ قال ذلك مازحا ـ مكره على ان ألعب في كل وقت» .

ان الاحوال المناخية لا تؤثر فقط على المفعول التخاطري . صرح الدكتور سيرغييف : «ان العواصف تنقص على الدوام من قدرات نليا ميخائيلوفا» . وخلافا لما يفعله مدراء المسارح ومدراء الفنانين ، يتحاشى الباراسيكولوجيون السوفياتيون الان تشغيل المتخاطرين في ظروف سيئة .

علم التنجيم ... او
البيولوجيا على الصعيد الكوني ؟

تبزغ رويداً رويدا من تضاعيف الابحاث الباراسيكولوجية السوفياتية صورة معينة ؛ صورة تمثل الانسان وكانه حقل قوى فاعلة يؤثر تأثيرا ديناميا على حقول قوى اخرى ، مثله في ذلك مثل النغمة الموسيقية المتساوقة في الاهتزاز مع نغمات اخرى في سمفونية واحدة . وهذه الفرضية عن تفاعل دينامي كوني تفسر الاهتمام شبهالتنجيمي الذي يبديه الروس حيال البقع الشمسية. قال ناوموف مفسرا : «اننا نهتم بالنشاط الشمسي المتواقت مع ولادة الاشخاص الذين نجري عليهم التجارب» .

ولكن أي تأثير يمكن ان يكون لذلك على القدرات الميتانفسية لفرد من الافراد ؟

«من السابق لاوانه بعد استخلاص استنتاج نهائي ، لكن بمقتضى المعلومات الاحصائية التي راكمناها قد يصح ان نقول ان المتلقين الجيدين يولدون في فترات الهدوء الشمسي ، بينما يولد الوصلاء الجيدون في فترات النشاط الشمسي الشديد». وقد اكتشف باحثون شيوعيون آخرون ان ا.ف.ح يحدث بسهولة اكبر في الاوقات التي يكون فيها القمر بدرا .

لا تخصص الصحف السوفياتية زاوية لأبراج الولادة ، وليس في الاتحاد السوفياتي كله مجلة شعبية واحدة متخصصة في الموضوع ، لكن شرع العديد من الباحثين بدراسة علم التنجيم . وقد علق الفيزيائي كونستانتان كوبيزيف ، من جامعة موسكو ، على هذا الاهتمام المستجد بعلم التنجيم في عدد من المحاضرات والمقالات . فالتاثير الدوري لإشعاع الطاقة الشمسية على الارض واقعة ثابتة علميا . ولو قراتم التقارير التي تنشرها مجلة **بارتي لايف** ، لتبينتم ان رائد البيولوجيا الكونية ، الدكتور ا.ل. شيفسكي ، استاذ الشرف في عدد من الجامعات الشرقية والاوروبية ، قد اكتشف ارتباطات بين اطوار النشاط الشمسي والاوبئة الارضية الكبرى ، بما فيها غزوات الجراد والقواضم . ومما هو ابلغ دلالة ايضا ان نلحظ وجود ارتباط بين تلك الاطوار الشمسية وبين الهجرات البشرية الكبرى والحملات الصليبية والحروب والثورات .

يقول الدكتور كوبيزيف : «تتوافق منحنيات النشاط الشمسي مع الجداول الزمنية لجميع الحركات الجماهيرية منذ عام ١٩١٧ . وقد اكدت صحة هذه النظرية في الاتحاد السوفياتي لجنة غير عادية تراسها الدكتور لوناشارسكي والدكتور سيماشكو .

«يمر نشاط الشمس بادوار يدوم الواحد منها سبع سنوات، او احدى عشرة سنة ، او خمس وثلاثين سنة ، او ثمانين سنة. وفي كل دور يحدث طفح من غاز مؤيّن حارق ، وقد يرافقه شكل

آخر من الطاقة . وفي الحقبة ذاتها يمكن ان نجد على الارض ، على سبيل المثال ، ظروفا اجتماعية مجحفة ومناخات ثورية الخ ومما يزيد من حدة الظروف وتفاقمها دفق اقصى من الاشعاعات الشمسية التي تعجّل بالأحداث وتحفز قرارات الحكومات .

«في سنوات النشاط الشمسي الشديد ، تحدث عواصف مغنطيسية تقطع احيانا جميع المواصلات الكهربائية وتفسر ارتفاع عدد حوادث الانتحار والاضطرابات النفسية وحوادث الطرق والنوبات القلبية القاتلة . اما سنوات خمول النشاط الشمسي ، فيقابلها ظهور نوع آخر من الاوبئة كالخناق او الهزات الارضية. ولو امكن صوغ قانون علمي يعلل تلك التظاهرات ، لصار في المستطاع توقعها واتخاذ التدابير اللازمة» .

لقد حمل العديد من الباحثين الغربيين الماء لطاحون السوفياتيين ؛ منهم البروفسور سيسيل مابي الذي اوضح ان للدور الشمسي الذي يدوم احد عشر عاما ونصف عام تأثيرا اساسيا في ظاهرات التغيرات الجوية ، وفي نمو النباتات ، بل حتى في الانتاجية الصناعية . ويشير الباحث الفرنسي ميشيل غوكلان الى اكتشافات مشابهة في كتابه **الساعات الكونية** .

كيف تؤثر هذه الاشعاعات على الافراد ؟ يزعم الدكتور ليونارد رافتش ان أوجه القمر وموقع الشمس والاشعاعات الكونية واشعة غاما والبقع الشمسية ، وكذلك سائر التبدلات التي تطرأ على الحقل المغنطيسي الارضي ، تؤثر على حقول القوى التي تغلف الجسم الانساني . وقد كانت اكتشافاته بصدد الطبيعة الدورية لتلك التأثيرات حافزا لتنشيط دراسة الوتائر البيولوجية في الغرب ـ هذه الدراسة التي لا تزال في مراحلها الاولى .

لقد كشف الدكتور روبرت بيكر ، من ادارة مستشفى الطب البيطري في سيراقوزة (في ولاية نيويورك) ، كشف النقاب اثناء

ندوة عقدت في عام ١٩٦٢ عن مشكلات الفضاء ، عن ان تلك التغيرات الطفيفة في الحقل المغنطيسي الارضي (التي يعود سببها الى الشمس والقمر والكواكب) تعدّل حقل القوى المحيط بالكائنات الحية . ومن اثر ذلك تعديل طريقة اشتغال الجهاز العصبي . فهل تفعل تلك التاثيرات الآتية من الفضاء فعلها ايضا في مفعول السيكوكينيزيا والادراك فوق الحسي ؟

شرح الدكتور سيرغييف في محاضرة له قائلا : «ان انسب الاوقات لتظاهر مفعول السيكوكينيزيا هو وقت التأثير المغنطيسي للنشاط الشمسي في الحقل الارضي» .

يدرس الروس في الوقت الراهن الملاقات التي يمكن ان تكون قائمة بين الحقول المغنطيسية والادراك فوق الحسي . وهم يتلقون بانتظام تقارير الارصاد الجوية التي يضعها مرصد بولكوفو، ويدرسونها بمزيد من العناية قبل أن يجروا تجارب تخاطرية . (تتغير الحقول المغنطيسية ، مثلها مثل الحرارة ، من يوم الى آخر، وتهب العواصف المغنطيسية بقدر او بآخر من العنف على غرار العواصف العادية) . وينتظر السوفياتيون احيانا انتصاف الليل حتى يقوموا بتجربة من التجارب ، اذا كانت الشروط المثلى لنجاحها لا تجتمع الا في تلك الساعة . اما الغربيون فلم يأخذوا قط في اعتبارهم التبدلات المناخية ، ولعل ذلك ما يفسر الصعوبات الكأداء التي تصطدم بها بعض تجاربهم .

لقد استكشف السوفياتيون ، في اطار جهودهم الرامية الى استثارة تظاهرات إ.ف.ح ، ميادين لم تخطر قط في بال اي باحث من الباحثين . علما بأن بعض المعطيات المتوفرة لهم لا يرجع تاريخها الا الى بدايات غزو الفضاء والسنة الجيوفيزيائية الدولية (١٩٥٨) .

هل الجاسوسية التخاطرية ممكنة ؟

يرى الروس ان المفاعيل الكونية السكونية تؤثر على إ.ف.ح . فهل يصح ذلك ايضا بالنسبة الى المفاعيل السكونية الصادرة عن دماغ الغير ؟ للاجابة على هذا السؤال ، سعى الروس الى اصطناع تداخلات اثناء الاتصالات التخاطرية . وقد خلقوا ممثلا ثالثا : «الملتقط» .

روى لنا ناوموف فقال :

ـ ذهب كامنسكي الى لينينغراد ليحاول من جديد ان ينقل صورا تخاطرية الى نيقولائيف الذي بقي في موسكو . لكن تقرر ان يشارك في التجربة ايضا ، ومن دون علمهما ، «ملتقط» . وقد مكث هذا الاخير في موسكو ، ولكن في مبنى آخر . وكما ستتبينان، سيفلح فكتور ميلودان في التقاط الاتصال التخاطري. كنت الوحيد الذي يعلم بما سيجري .

واخرج ناوموف رقعة كبيرة من الورق ، رسمت عليها التجربة في شكل جدول . ومنها كان يتضح ان نيقولائيف تلقى على نحو صحيح ثلاث صور من اصل الصور الخمس التي حاول كامنسكي ان يبلغه اياها . اما الملتقط ، الذي كان نيقولائيف يجهل بوجوده، فقد افلح في التقاط صورتين ، صورة بوصلة وصورة فرشاة معدنية . بصدد الفرشاة لاحظ : «انها قذرة ، ضاربة الى الصفرة ، طولها التقريبي تسعة سنتيمترات وعرضها اربعة سنتيمترات ونصف سنتيمتر» . كان هذا الوصف صحيحا . وقد امكننا ان نفهم ان ذلك الشخص الغامض هو واحد من مجموعة اشخاص ثبت تمتعهم بقدرات ميتانفسية ولكنهم أُبقوا بمنأى عن اضواء الاعلان والدعاية .

وقال ناوموف وهو يشير باصبعه الى اعمدة « الساعة والدقائق والثواني» المرسومة على جدوله : «لقد استشعر

الملتقط حالا باللحظة التيبدا فيها كامنسكي ونيقولائيف بالاتصال. وقد امكنه ان يعين بدقة الساعة التي تم فيها تبليغ الرسائل الخمس ، بينما كنا نحن قد اكتفينا بأن نخبره بأن التجربة ستجري في وقت ما من المساء» (بالفعل ، انه لمن الاهمية بمكان تعيين الثانية التي يتم فيها الاستشعار ببدء التبليغ ، والثانية التي يتوقف فيها . ومثل هذه التفاصيل تلعب دورا بالغ الاهمية في التجارب السوفياتية) .

وقد اقر لنا الدكتور فيدلمان بدوره في معرض حديثه عن تجاربه لتبليغ الارقام تخاطريا : «لقد امكننا ان نلاحظ انه في المستطاع التقاط تبليغ تخاطري» .

واضاف ناوموف تفصيلا آخر : «اذا كان الملتقط محبوا بقدرات تخاطرية كافية النمو ، امكنه كذلك ان يدخل تعديلا على الاتصال» . وفي هذه الحال ، يستقبل المتلقي الصور التي يرسلها اليه الملتقط ، لا تلك التي يرسلها اليه الوصيل .

اذا صدق الروس في ما يقولونه ـ ومن المحتمل ان يكونوا قد درسوا الموضوع بتبحر ـ فليس يسع الجاسوس المصري، المسلح بقدرات تخاطرية ، ان يحول دون التقاط رسائله . لكن يبقى في امكانه ان يلتقط بدوره اتصالات تخاطرية اخرى . وبما ان الهدف الذي يرمي اليه السوفياتيون هو التطبيق العملي لمفعول **بسي** ، فمن المهم معرفة ما اذا كانت الاتصالات التخاطرية قابلة للالتقاط او للتحريف . يقول اميركي اتيحت له فرصة التحادث مع فريق من الباراسيكولوجيين السوفياتيين انهم يفكرون باستخدام قدرات خيرة متخاطريهم لاغراض سياسية ، تماما مثلما كان الاغريق وقدامى المصريين يستطلعون راي العرافين . والحق ان الحكومات جميعا بحاجة الى اكبر قدر يمكن الحصول عليه من المعلومات .

لقد اخذ يتضح في الآونة الاخيرة ان الصين تقف ـ بين دواع

اخرى كثيرة ـ وراء اهتمام السوفياتيين بأبحاث **بسي** . ويقال في الغرب ان الخوف من الصينيين كان واحدا من العوامل التي حفزت البحث الباراسيكولوجي في الاتحاد السوفياتي . ويقال ايضا ، ولكن في الاتحاد السوفياتي هذه المرة ، ان الرئيس ماو قد اصدر اوامره الى الباحثين عنده بتحقيق «قفزة الى الامام» في المضمار الباراسيكولوجي . وانه لما يسترعي الانتباه ان قسما من تجارب **بسي** يجري في مدينتين شرقيتين هما فلاديفوستوك وخاباروفسك الواقعتان على مقربة من الحدود الصينية .

ان ظاهرات إ.ف.ح كثيرة التواتر الى حد ملحوظ في زمن الحرب . وقد روى لنا ، اثناء المؤتمر ، البيولوجي فاسيلي ايفيموف ، وهو من زملاء فاسيلييف ، ان كثرة ملاحظته للظاهرات الميتانفسية في ساحة القتال هي التي حملته على نذر نفسه للبحث في هذا المضمار . «ان الاوقات العصيبة والمؤلمة كثيرا ما توقظ المواهب التخاطرية والسيكوكينيزية . وقد بدات أؤمن بوجود إ.ف.ح حين اطلعني الجنود الجرحى على تجاربهم . ففي ابان الحرب الاخيرة ، وضعت جميع طاقاتهم الميتانفسية في حالة استنفار بنتيجة الاخطار التي كانوا يتعرضون اليها» .

لقد كان بطل واحدة من حالات إ.ف.ح العفوية ، التي تختلط فيها صورة الموت وصورة الحرب ، الكاتب السوفياتي نيقولاي اوستروفسكي ، المشهور بروايته **والفولاذ سقيناه** . فقد تركت الحرب العالمية الاولى اوستروفسكي ـ ولم يكن قد بلغ العشرين من العمر بعد ـ نصف اعمى وشبه مشلول . لكن اوستروفسكي كتب ، مستخدما بصعوبة الطريقة التي تتيح له ان يحس بالاحرف من خلال صحيفة من الورق ، روايتين حظيتا برواج كبير وتتغنيان بقدرةالانسان على ان يفعل ما يريد اذا اراد . في عام ١٩٣٦ ، استيقظت والدة اوستروفسكي على هاجس

مزدوج . وقد روت لمحرري مجلة **اوجونيك** : «ما انا الا فلاحة بسيطة ، فلا تغضبوا اذا ما قصصت عليكم منامي . كنت بمفردي في بيتي في سوشي ، وقد اخذتني سنئة من نوم . في المنام ، رايت طائرات تطير فوق البحر ، طائرات كثيرة احدثت ضجة شديدة توجعت منها اذناي . فهمت ان الحرب قد اندلعت . ورايتني في الحلم وانا اخرج من البيت ركضا . شاهدت ابني كوليا (اي نيقولاي) ؛ كان قد شفي تماما ، وكان يرتدي معطفا عسكريا وخوذة ويمسك في يده ببندقية . رأيت حوله خنادق ، وحفر الغام ، واسلاكا شائكة . اردت ان يشرح لي ما علة تلك الحرب ، لكن لم يكن من الممكن طرح اسئلة عليه . رغبت عندئذ في العودة الى البيت ، لكن الحفر اتسعت ، والتفت الاسلاك الشائكة حول قدمي ...» .

افاقت السيدة اوستروفسكي وقد داخلها اليقين بأن الحرب على وشك أن تندلع ، وكذلك ــ وهذا هو الادهى في نظرها ــ بأن «شيئا ما قد وقع بكل تأكيد ، بكل تأكيد ، لكوليا في موسكو» . وقرّ قرارها على شراء تذكرة سفر بالسكة الحديدية وعلى اللحاق به . ثم ما عتمت ان تلقت رسالة من ابنها يبلغها فيها أن صحته تتقدم باطراد . «قرأت الرسالة ، لكن الحزن ظل مقيما في قلبي . قلت بيني وبين نفسي : الا الى اين ستذهبين ايتها العجوز المسكينة ! وما الداعي الى سفرك ما دام يقول ان كل شيء على ما يرام ؟» . وقرّ قرارها على البقاء .

بعيد ذلك ، وفي الليلة ذاتها ، وبعد ان تمددت في فراشها من جديد ، استيقظت فزعة على طرق بابها . كانت صديقة لها تصيح بها من خارج الدار أن كوليا مريض جدا ، وان عليها ان تنهض حالا وتسافر الى موسكو . «توقف قلبي عن الخفقان ، لكني اجبت فقط : لقد رحل القطار» . فألحت عليها صديقتها بالقول : «من الممكن ان تسافري بطريقة اخرى !» . ثم التصقت

بالباب وطفقت تبكي . «كوليا مات ! كوليا لم يعد من الاحياء !» .
غب ذلك بخمس سنوات ، وبعد انقضاء شهر على وجود الالمان في روسيا ، ذاعت بين الناس في جميع ارجاء الاتحاد السوفياتي قصة حلم السيدة اوستروفسكي التنبؤي .
في ابان الحرب العالمية الثانية ، واثناء معركة خاركوف ، مر شخص يدعى كوليا زفانتسخوف بتجربة اهم علميا بكثير . وقد تحدثت عنه هو الآخر الصحافة السوفياتية . ففي ذات مساء من شهر ايار ١٩٤٢ الدامي ، كان كوليا زفانتسخوف ، الجندي العادي ، راقدا عند ابواب مدينة خاركوف المحاصرة . كان قد امضى نهاره في رصد الريف الربيعي ، بانتظار وصول النازيين المخيفين . وبقيت الحقول الوديعة الهادئة ، المترامية على مد البصر من حوله ، متسلطة عليه في منامه . وفجأة رأى في حلمه مصفحات المانية ، كانت تتقدم كالقدر المحتوم ، تدك دكا النقاط الضعيفة في الخطوط السوفياتية . اما في السماء ، فقد قضى هجوم جوي مفاجىء قضاء مبرما على جهود المدافعين عن خاركوف . عند مطلع الفجر ، ذهب كوليا لملاقاة القائد الروسي الاعلى وسرد حلمه عليه . كان القائد محتارا في ما ينبغي ان يفعله ، اذ كانت القوات الموضوعة تحت إمرته ضعيفة بالمقارنة مع القوى النازية . ولم يجد بأسا في الاستماع الى كوليا . ثم ما عتم ان هيأ الدفاعات الضرورية لصد الهجوم الالماني ، وفق التعليمات التي استقاها كوليا من منامه . وفي تلك الاثناء ، ظهرت من بعيد اولى المصفحات العدوة المتقدمة . ودارت المركة تماما على النحو الذي توقعه كوليا ، فيما عدا ان الهجوم الالماني امكن صده بفضل حلم الجندي .
في وسع المرء اذن أن يتساءل عما اذا لم يكن من مصلحة شتى الحكومات ان ترعى وتنمي القدرات الميتانفسية لرعاياها . أوَليس من الحكمة، في عصر كعصرنا لا ينقطع فيه للكوارث سيل،

ان يتحث الافراد على استخدام طاقاتهم ومواهبهم في حـــالات الخطر الداهم ؟ ولعلنا سنجني فائدة ما لو استمعنا الى نصائح المستبصرين واجرينا مقارنة بين انطباعاتهم وبين التوقمات التي يمكن الوصول اليها بالطرق المعتادة . على كل حال ، يبدو ان السوفياتيين مقتنعون بأن التجربة تستأهل ان تجرى .

الفصل الحادي عشر

من الحيوانات الى السيبرنطيقا : البحث عن نظرية

توجهنا بالسؤال التالي الى مجموعة من الباحثين السوفياتيين: «ما مفعول بسي ، في خاتمة المطاف ؟» . فاجابنا على البديهة ، وبالمثل ، واحد منهم : «وما الكهرباء ؟» .

والحق انه لا وجود لجواب مرض عن اي من هذين السؤالين . كل ما هنالك انهم نادرون غاية الندرة الاشخاص الذين يستطيعون ، على غرار وولف ميسنغ ، ان يستخدموا إ.ف.ح ، بينما في مستطاع الناس جميعا استخدام الكهرباء .

الفارق الوحيد يكمن على صميد النظرية . فلدينا عن الكهرباء نظرية ، لهذا يسمنا ان ننير المدن وان نسخن المياه وان نجلّد اللحوم . وبالمقابل ، يبذل الباحثون من الاقطار كافة ، وفي طليعتهم باحثو الاتحاد السوفياتي بما عرف عنهم من روح عملية ، قصارى جهودهم كي يضعوا للادراك فوق الحسي نظرية يمكن معها للناس جميعا أن يستخدموا مفعوله ، من غير ان ينتظروا تظاهره في لحظات خاطفة .

في غمرة البحث عن نظرية للتخاطر اكتشف الدكتور فاسيلييف ، بطريق الصدفة ، انه من الممكن وضع الحيوانات في حالة نوام تخاطري . فمنذ الثورة والسوفياتيون يبحثون عن نظرية تقشع الطابع الخرافي عن ظاهرات **بسي** . وقد اجرى بعض الباحثين تجارب على «ذوات الاربع» ، مستخدمين فيها مجموعة كلاب تتمتع بمواهب مرموقة . وقد حدثنا السوفياتيون عن هذه التجارب ببحة توق وحنين في الصوت . فهي تندرج في عداد اكمل التجارب وانجحها بلا ريب من وجهة النظر العلمية الخالصة في مضمار التخاطر الحيواني . ويبقى صحيحا ان الروس لم يستخدموا اية كلاب كانت لتعميق نظريتهم ، بل وقع اختيارهم على ممثلين شهيرين للجنس الكلبي .

كان مارس كلبا الزاسيا عظيما ومن المع نجوم السيرك الذي يعمل فيه . وكان الروس ، بما عرف عنهم من ميل فطري الى السيرك ، متداهين بمارس ، الكلب العالم الذي يستطيع ان يرقص وان يحسب وان ينطق ــ وهذه نمرة الختام ــ باسم «ماما !» . وقد طاف مارس بأرجاء روسيا برفقة فلاديمير دوروف ، الجخّاف (١) المتألق النجم ، الطويل الشاربين ، الذي كثيرا ما

---

١ ــ الجخاف : شخصية هزلية من المسرح الاسباني ، نموذج للمهرج المتبجح . ــم ــ

يلقب بـ «مهرج الشعب» . وكان دوروف مشهورا بلوذعياته القارصة التي يوجهها الى الحمقى من شاغلي المناصب العليا ، قدر شهرته التي بناها على رفضه استعمال السوط مع الحيوانات .

ذات مساء ، قدم مارس عرضا خارقا للمألوف امام جمهور هو من خير ما أتيح له قط ان يمثل امامه : الاكاديميين فلاديمير بختيريف والكسندر ليونتوفتش . ولم يكن على مارس ان يكتفي بلفظ اسم ماما ، اذا كان يحرص حقا على اثارة اهتمام العالمين . فقد كان هدف التجربة اثبات قدرة الكلاب ـ هي الاخرى ـ على التخاطر . حين اخذت الأهبة لكل شيء ، اعطى بختيريف ديروف ورقة تحتوي على التعليمات التي يفترض فيه ان يبلغها تخاطريا للحيوان . واخذ دوروف براس مارس بين يديه بحنو ونعومة . وحدق في عيني الكلب بصمت وبلا حركة ، ثم أسبل يديه . لم يحدث شيء . حدق ديروف من جديد في ناظري الكلب بإلحاح . فعطف مارس راسه ، وعدا الى الغرفة المجاورة الواقعة خلف المختبر والتي لم يسبق له قط ان زارها حتى ذلك اليوم . كان في الغرفة ثلاث طاولات عليها ركام من الكتب والاوراق . وانتصب على قائمتيه الخلفيتين امام الطاولة الاولى ، ووضع قائمتيه الاماميتين على حافتها ، وبدا عليه وكأنه يفتشها . ثم عاد فوقف على قوائمه الاربع ، وتقدم باتجاه الطاولة الثانية ، وعاود عملية «التفتيش» . وأخيرا اتجه نحو الطاولة الثالثة ، وهناك اكتشف في ظاهر الامر الفرض الذي كان يبحث عنه . امسك بدليل للهاتف بين شدقيه ورجع أدراجه الى المختبر ليسلمه الى دوروف . لقد تلقى مارس التبليغ ... تخاطريا . اذ كان بختيريف قد طلب دليل الهاتف . وقدم مارس ، كلب السيرك ، الدليل الحي على صحة نظرية دوروف القائلة ان مختلف انواع الحيوان تعرف في كثير من الاحيان فكر اصحابها بالتخاطر .

كان لدى دوروف ، اللاامتثالي ، كثير من الافكار الثورية .

فقد أفلح بمفرده في ان يقلب رأسا على عقب طرائق الترويض الروسية القديمة التقليدية القائمة على الترهيب والعقاب الجسدي . فلا حاجة الى دفع الدببة فوق شبكة معدنية محمئاة لتعليمها كيفية الرقص . فالدببة ، كما بيّن دوروف ، تتعلم رقص الفالس وركوب الدراجة بسهولة اكبر اذا ما عوملت بلطف واذا ما قدم لها نزر يسير من العسل تشجيعا لها . وقد روض دوروف اكثر من الف وخمسمئة حيوان ، ومنها حيوانات ، نظير التابير (٢) ، لم يسبق قط ان جرى ترويضها في الماضي . وأدت الديكة والجمال والثعالب والجرذان والقطط والراتونات الفاسلة (٣) أدوار البطولة في تمثيليات قصيرة كتبت خصيصا لها في **مسرح الحيوانات** التابع لدوروف .

ان هذه الألفة العميقة مع الحيوانات هي التي جعلت دوروف يدرك ، ولا ريب ، ان نوعا من الحوار الصامت الذي لا ترافقه حركات او ايماءات يقوم احيانا بين الانسان والحيوان ، وهذا ما يؤكده ، بدورهم ، اصدقاء الحيوان منذ زمن بعيد . وقد اندفع دوروف يجري سلسلة من تجارب التخاطر الحيواني . حاول ان يستخدم مفعول **بسي** ، بدلا من الايماءات او الصافرة ، لحمل كلابه على «النباح» بالجواب الصحيح لمعادلة حسابية بسيطة .

قرر دوروف ، وهو عالم حيوان بقدر ما هو رجل سيرك ، ان يتحقق تجريبيا من نظرياته في الحيوانات . وقد تعرّف ذات مساء ، وهو يقدم واحدا من عروضه في لينينغراد ، شخص فلاديمير بختيريف بين جمهور الحضور . ومعلوم ان اسم عالم الاعصاب الشهير بختيريف يأتي ترتيبه مباشرة في مضمار العلوم الطبيعية بعد اسم بافلوف . ولكن دوروف ما كان من الذين

---

٢ ـ التابير : حيوان اميركي استيوائي شبيه بالخنزير . ـم ـ

٣ ـ الراتون الغاسل : حيوان اميركي لا يأكل شيئا الا بعد غسله بالماء . ـم ـ

يقفون متهيبين امام مثل هذه الاعتبارات .

كان قد صدر ، قبل الثورة ، امر بمنع دوروف وخنزيره الراقض ، فنتفلوشكا ، من الاقامة في سان بطرسبورغ ، لانهما قلدا تقليدا ساخرا وزير المالية ، على مرأى منه ومسمع ، امام جمهور ما كان ليتمالك نفسه من شدة الضحك . وكانا قد طردا ايضا من يالطا واوديسا لتهجمهما الساخر على الحكام العسكريين . وفي المانيا ، صدر امر باعتبار دوروف وفنتفلوشكا شخصا (وخنزيرا) غير مرغوب فيهما لاهانتهما الامبراطور . وقد استمد دوروف من جميع هذه السوابق المجيدة قوة وشجاعة ليقف امام عالم الاعصاب الشهير وليشرح له انه تحدث في اذهان الافراد والحيوانات بعض ظاهرات لا يملك العلم بعد ان يفسرها . وجزم له قائلا : «في الامكان ترويض الحيوانات تخاطريا» .

دعا بختيريف دوروف ومارس ووجّاراً (٤) اسكتلنديا باسم تيكي الى القدوم الى منزله لاجراء بعض تجارب . وكان اول من صمم روائز خاصة للكلاب ، مستبعدا جميع الاشارات التي يمكن ان تتبادل ، بصورة واعية او لاواعية ، بين الانسان والحيوان .

في المرحلة التالية ، وحين بدات التجارب تجرى في مختبرات موسكو ، صار دوروف يأخذ مكانه عادة في غرفة مغايرة لتلك التي يكون موجودا فيها مارس وتيكي . بل كثيرا ما كان يستنكف عن القيام بدور الوصيل التخاطري . وقد لاحظ بختيريف ان الوجّار الصغير يقدر على تنفيذ اوامر لا تخلو من بعض تعقيد . فما ان يصدر اليه أمر ذهني ، حتى يثب تيكي الى وسط الغرفة ، ويقفز فوق كرسي ، ثم فوق طاولة ، ويأتي بقطعة الورق التي يكون قد طلب اليه احضارها . ذات مرة ، وثب الكلب

---

٤ ــ الوجار : كلب يصطاد الحيوانات في وجرها اي جحورها . ــم ــ

الصفير فوق قطعة اثاث ، ومسّ بقائمته لوحة معلقة على الحائط، تماما كما طلب اليه ان يفعل . وكان بختيريف هو الوحيد العارف بمجرى التجربة ، والمصدر الوحيد للامر الذهني المناسب . واذا ما صدقنا الباحثين السوفياتيين ، فان الكلاب تفلح في احيان كثيرة في التقاط الاوامر الذهنية حتى قبل صياغتها صياغة كاملة في المخ الانساني . فقد فكر بختيريف ذات يوم باجراء تجربة ، ثم ما عتم ان استبعدها من ذهنه ، لانه راى الكلب ينفذها من تلقاء نفسه .

في موسكو ، اعتاد بختيريف على ربط عيني الوصيل بمصابة، وعلى وضعه خلف ستار ، او على اخراجه من الغرفة بمجرد اصداره امرا ذهنيا ، وذلك تحاشيا لامكانية اعطائه تعليمات للكلب اثناء التجربة . اما المراقب الذي يبقى مع الكلب فلا يعرف تفاصيل التجربة الا عند انتهائها .

كانت التجارب التخاطرية التي اجريت على مارس وتيكي ترمي الى حملهما على احضار اشياء ، او على النباح بقدر محدد من المرات . وكان مارس ، بوجه خاص ، يحتل مكانه على الاعلانات الجدارية بوصفه «الكلب الذي يعرف الحساب» . والتجربة التالية بليغة الدلالة . وقف مارس عند قدمي الاكاديمي ليونتوفتش . وفي غرفة بعيدة ، سلم بختيريف دوروف رقعة ورق مطوية . فبسطها هذا الاخير وقطب حاجبيه . وسجل على الورقة ملحوظة واعادها الى بختيريف ، ثم ركز افكاره . في الغرفة الاخرى انتصب مارس على قوائمه فجأة ، ورفع رأسه ، ونبح ٧ مرات . ثم تمدد على الارض من جديد . ولكنه ما كاد يفعل حتى نهض ثانية وثبا ، على دهشة من ليونتوفتش ، ونبح من جديد سبع مرات .

اوضح دوروف فيما بعد ان حيواناته لا تستطيع ان تعد الى اكثر من ٩ . ولهذا قسم على اثنين العدد ١٤ الذي ابلغه اياه الباحث ، فكانت النتيجة ان نبح الكلب ٧ مرات على دفعتين .

ان الكلاب ، شانها شان المتخاطرين من البشر ، تفضـــل التجارب التي تنطوي على حافز عاطفي . فمارس وتيكي ينبحان بطواعية اكبر اذا ما وضعا امام حيوان محنط .

كتب بختيريف في عام ١٩٢٠ في تقرير له عن تجاربه علـى مارس وتيكي وعلى كلب من نوع سنبرنار يسمى لورد ، يقول : «ان الايحاء الذهني يمكن ان يعدل مباشرة مسلك الحيـــوان المروض» . ومع ان بختيريف كان معلّم الباراسيكولوجي ليونيـد فاسيلييف ، الا انه كان من التواضع بحيث لم يتاب ّ ان يتعلـم الشيء الكثير من تلك النجوم ذوات الاربع . وتجارب التخاطر الحيواني المشار اليها مثيرة للاهتمام بحد ذاتها ، لكنها تبين على الاخص الاهتمام المبكر الذي أولاه الروس لمسألة توجيه الافعال بطريق التخاطر او إ.ف.ح الكينيزي ، وهي المسألة التي تجاهلها الغرب كل التجاهل .

لقد اهتم بختيريف بانواع عدة من الظاهرات غير العادية ، وانشأ لجنة علمية مكلفة تخصيصا بدراسة العلاقات التخاطرية بين الفرد والفرد (بموجب تقرير صادر عن تلك اللجنة ، أجريت اكثر من ٩٠٠ تجربة امكن خلالها تأويل نصف الصور المبلغة بطريق التخاطر تأويلا صحيحا) .

وفيما وقف بختيريف نفسه كلية على دراسة التخاطـــر الانساني ، والى دوروف اجـراء الملاحظات والتجارب علـــى الحيوانات . وبين ١٩٢٢ و١٩٢٤ نفذ ١٠٠٠٠ تجربة ونيفا في مضمار امر الكلاب تخاطريا بإحضار اشياء متنوعة . ولقد حسب الباحثون ، بعد التحقق من نتائجه ، ان حظها في ان يكون مردها الى المصادفة لا يعدو أن يكون بنسبة ١٦ من اصل عشرة ملايين .

على اثر ذلك ، شكل الدكتور برنارد كاجنسكـــي ، المهندس الالكتروني ورائد الباراسيكولوجيا السوفياتية ، فريق عمل مع دوروف . وقد اتخذ الكاتب السوفياتي الكسندر بيلائيف ، الذي

كثيرا ما تشبه موهبته بموهبة جول فيرن (٥) ، من كاجنسكي ، بطلا لروايته العلمية الخيالية التي احدثت ضجة كبيرة في الاتحاد السوفياتي : **سيد العالم** ، واعطاه فيها دور باحث ميتانفسي . كما جعل من دوروف بطلها الثاني . وهذه الرواية اشبه بملحمة كونية تروي قصة صراع الخير ضد الشر . وفي خاتمتها يتمكن البطلان كاشنسكي (اي كاجنسكي) ودوغوف (اي دوروف) من احباط خطط الشرير في اللحظة التي كان يهم فيها ، بفضل حيازته سر التخاطر ، بأن يفرض سيطرته على العالم . وانه لما يثير الفضول ان نلاحظ كيف كان خيال ابناء المستكشفين الاميركيين للبحار والفضاء يتغذى من روايات جول فيرن ، بينما كانت الشبيبة السوفياتية تحلم بأن تقوم برحلاتها الاستكشافية عبر مجاهل الذهن البشري ...

يروي كاجنسكي في كتابه المعنون **الاتصالات الاشعاعية الحيوية** قصة لقائه الاول مع دوروف :

«كنت راغبا في ان أختبر بنفسي ما يمكن ان يكونه إ.ف.ح، حين تعرفت في عام ١٩١٩ الى دوروف . قلت له : بودي او اعرف ما الشعور الذي يخالج المرء حين يتلقى رسالة تخاطرية وتعتوره حالة جسمانية مادية من حالات إ.ف.ح . فأجابني دوروف : الامر في منتهى البساطة . اجلس هنا ولا تتحرك .

«ادار لي ظهره وكتب بسرعة شيئا ما على رقعة من الورق . ووضع الورقة على الطاولة على نحو لا يمكن معه لاحد ان يقرأها، ثم غطاها بيده .

«لم اشعر بشيء غير عادي ، ولكني لمست، بحركة لاشعورية، خلف اذني بيدي اليمنى . وما كدت أسبل ذراعي حتى اراني دوروف رقعة الورق . كان قد كتب فيها «حك خلف أذنك» .

---

٥ ـ جول فيرن : كاتب فرنسي (١٨٢٨ ـ ١٩٠٥) : مبدع رواية الخيال العلمي . ـم ـ

«سألته وأنا غير مصدق : كيف فعلت ذلك ؟

«اجابني : اكتفيت بتخيل وجود حكة خلف الاذن ، وبالتفكير بوجوب رفع اليد اليمنى لتهدئتها . وأنت بمَ احسست ؟

«بديهي انني لم احس بوجود تبليغ فكري . كل ما هنالك ان الرغبة اخذتني في ان احك خلف اذني .

«ظهرت علائم الظفر على وجه دوروف وقال : «الشيء غير العادي هو انك نفذت الحركة التي تصورتها في ذهني كما لو انها نتيجة تسلسل افكارك بالذات وكما لو انك تنصاع لمجموعتين من الاوامر : فقد احسست بأكلان في الجلد في ذلك الموضع المحدد ، ونفذت يدك الحركة اللازمة باتجاه الاذن من الناحية التي اخترتها بنفسي» .

«قلت : لقد التقط دماغي لاشعوريا الصورة المسقطة عن دماغك .

«فختم دوروف مازحا : اننا كلانا جهازان اشعاعيان قيد العمل » .

كان كاجنسكي عاقد العزم على معرفة الكيفية التي تنتقل بها التبليغات من دماغ دوروف الى دماغه ، او من دماغ دوروف الى دماغ كلب .

وبعد عدة سنوات من البحث المتواصل ، اعلن انه من الممكن تسجيل ذبذبات كهرطيسية عالية التوتر بطول ١٫٨ مم يصدرها مخ دوروف حين يكون قيد التركيز الذهني . ويعلن الباحثون السوفياتيون اليوم ان معدات كاجنسكي كانت من البدائية بحيث لا يمكن اعتبار تجاربه مقنعة في نتائجها حقا .

لم يحجم دوروف وكاجنسكي عن الكلام ، اثناء تجاربهما ، عن مقدرة تنويمية مغنطيسية للعين وعن قوة النظر . وقد اقتنع دوروف ، وهو الذي وقف حياته على رصد هذه الظاهرات ، بأن النظر الانساني يملك قوة تكفي لتسمّر اشرس الحيوانات في مكانه . وقد نجح على كل حال ، امام قاعة غاصة بالسوفياتيين

المدعورين ، في ان يثبت ان نظره هو على الاقل يملك قوة خارقة للمألوف . فقد جاء في سيرة حياة هذا المروض السوفياتي الشهير ان دباً أسمر ضخما اخذته سورة مفاجئة من الاستشراس وهو في وسط الحلبة بعد ان هيجه عن عمد مستخدم مغتاظ . فانشب مخالبه في ذراع دوروف ، ورماه ارضا ، وتسلق الحواجز التي تفصله عن الجمهور ، وانقض على المشاهدين ، وبث في صفوفهم ذعرا لا يوصف . وركض دوروف خلف الدب. فاستدار الحيوان الضخم وواجهه بنظرة تطفح بالوعيد . لم يتحرك دوروف قيد انملة . وتوقف الدب . «ثبّت دوروف نظره في عيني الدب ، وزجره زجرا شديدا، وتقدم بتؤدة نحو المخرج، والدب يقفو خطاه» .

تساءل كاجنسكي عما اذا لم يكن وراء هذه الظاهرة شيء آخر غير قوة النظر النفسية . فقد حدث لك ولا بد ، كما يحدث للجميع ، ان ادرت رأسك من دون ان تعرف لماذا ، ورأيت شخصا ينظر اليك من قفاك . اهي مجرد مصادفة ؟ لكن من عادة السوفياتيين ان يدرسوا المصادفات . لقد حاول دوروف ان يثبت نظره على رقبة عدة اشخاص موجودين في المختبر . وجزم بأن جميعهم ، او جميعهم تقريبا ، قادرون على تحديد الوقت الذي كان ينظر فيه تلك النظرة الى رقابهم ، بل في منستطاعهم ان يحددوا الاتجاه الذي تأتي منه نظرة دوروف . من الممكن اذن ان تكون القوة المجهولة ، المسؤولة عن ظاهرات التخاطر ، عبارة عن ذبذبة قوية لامرئية ترسلها العين . هذا ما تبادر الى الاذهان آنئذ . لكن التجارب الاولى التي اريد منها تعيين نوع الذبذبات التي يصدرها نظر دوروف باءت بالفشل الذريع .

قضى فلاديمير دوروف ، اول لاعب سيرك حاز على لقب «فنان الاتحاد السوفياتي» ، نحبه في السنوات ١٩٣٠ . ولا يزال مركزه للدراسات الحيوانية يعج بالنشاط ذاته . والاهتمام الذي اولاه لقوة النظر العجيبة لم يتلاش كلية في الدوائر العلمية

السوفياتية . يروي مقال ، ظهر في العدد ٨ من مجلة **بلانيت** (١٩٦٣) ، ان فريقا من الباحثين يتزعمه البروفسور ب.ب. لازاروف اجرى تجارب في الموضوع ، وقد اتضح منها ان الافراد لا يعود يخالجهم ذلك الاحساس اذا ما فُصل بينهم وبين الشخص الذي يحدق في رقابهم بشبكة معدنية رقيقة . وقد استخدم فريق الباحثين المذكور المسكالين ومخدرات اخرى سعيا وراء تقوية تيار طاقة النظر . وفي السنوات ١٩٦٠ اعلن باحث فرنسي شهير ان السوفياتيين يعتقدون انهم وضعوا اليد على البرهان الذي يثبت ان العين تصدر اشعاعات . فما العضو الذي يلتقط هذه الاشعاعات ؟ الغدة الصنوبرية ، على ما يزعم السوفياتيون . فهذه الغدة ، الموجودة داخل المخ ، كثيرا ما تشبه ب «عين ثالثة» ... تلك العين الخرافية التي كان القدامى يزعمون انها تستطيع ان ترى كل شيء . وكما يلاحظ الدكتور كاجنسكي ، يشير اليوغيون الهنود الى تلك العين الثالثة بوصفها واحدة من الاعضاء ذات الصلة بظاهرات إ.ف.ح . ويقول السوفياتيون ان الغدة الصنوبرية اعظم اهمية لدى الاطفال منها لدى البالغين ، ولدى النساء منها لدى الرجال . ويضيفون قولهم انه من الممكن ان تكون قد حافظت على مقدرة كامنة ، مماثلة لمقدرة «العين الثالثة» ، على «رؤية» واصدار ذبذبات مغنطيسية مشابهة لذبذبات الرؤية العادية . وقد اصطدم السوفياتيون هذه المرة ايضا ، في محاولتهم تفسير ما لا يعدو ان يكون مجرد مصادفة (نقصد الاحساس الغريب الذي ينتابك اذا ما حدق احدهم فيك) ، بلغز أشد عوصا ايضا . فكان ان عادوا الى دراسة موضوع العلوم الباطنية القديمة ومعتقداتها ، من زاوية علمية .

في عام ١٩٦٢ امكن اخيرا لكاجنسكي ان يطبع مؤلفه **الاتصالات الاشعاعية الحيوية** الذي يتحدث عن تجاربه في مضمار

إ.ف.ح . وقد تكلم ، في ما تكلم فيه ، عن عملـه مع دوروف وعرض واحدة من افكاره الرئيسية ومؤداها : ان خلايا شبكية العين التي على شكل عصيّات تقوم مقوم هوائيات ارسـال لامتناهية الصغر تبعث باشارات تخاطرية . وهو يقر بأن هذا التفسير لا يفسر حالة التخاطر عن مسافة بعيدة ، لكن من المؤكد انه «لو اراد العلماء دراسة الافعال التي تحدث عن مسافة ، لما وجدوا بدا من استكشاف ذلك الميدان الاساسي» . لقد كـان كاجنسكي راسخ اليقين ، مثله مثل تسيولكوفسكي ، رائـد الفضاء ، بأن المواهب الميتانفسية تمثل النتيجة المحتومة لتطور بيولوجي ، وبأن الاستفادة منها لا يجوز ان تقتصر على رحـلات استكشاف الفضاء . فتطور العلوم الدائم ، الذي يزيح لنـا النقاب باستمرار عن مظاهر جديدة للاشياء ، يحتم ضرورة تطوير قدراتنا الباراسيكولوجية اذا كنا لا نريد ان يتجاوزنا ركب التقدم.

لقد شاء كاجنسكي ، نظير سوفياتيين آخرين درسوا بدورهم الامكانيات التي تتيحها الباراسيكولوجيا ، ان يطلق تحذيرا ضد الاستخدام الاجرامي الممكن للتخاطر (كالتأثير على الناس بلا علمهم او بلا ارادتهم) . ومع انه كتب ما كتبه في عهد ستالين ، فانه الح على فكرة ان الاستخدام الاجرامي للتخاطر قمين بأن ينـزل الاذى بالبشرية قاطبة .

كان برنارد كاجنسكي واحدا من معلمي ناوموف الذين اخذوا بيده الى الباراسيكولوجيا ، وهذا الاخير هو الذي افلح في اقناع اكاديمية العلوم في كييف بنشر كتابات كاجنسكي بعد تحظـير نشرها في موسكو (اذا كانت المسالة شائكة ، وموضع اخذ ورد شديدين ، امكن لمكتب من مكاتب الرقابة ان يقبل ما رفضه مكتب آخـر احتج بالطابع الجريء اكثر من اللازم للكتاب) . وقد اخذ ناوموف على عاتقه ان يطلع مجمـوع السوفياتيين علـى الباراسيكولوجيا . وقد ارانا رسما بيانيا مسننا على شكل منشار يمثل تقلب عدد المقالات التي نشرت حول الباراسيكولوجيا . ففي

عام ١٩٥٧ نشرت ثلاثة مقالات تدينها ، ولم ينشر نص واحد في تأييدها . وفي عام ١٩٦٦ نشر حول البحث الباراسيكولوجي ١٥٢ مقالا ، لم يستهدف نقده سوى ١٥ منها .

قال لنا ناوموف : «حين بدأت أعمل مع كاجنسكي ، حملني على دراسة قوة النظر ، وبخاصة قوة نظر الثعابين والنمور» . ولا يزال ناوموف يهتم الى يومنا هذا بالمواجهات بين نظر ونظر . وقد سرد علينا في عصر احد الايام مجموعة تفاصيل حديثة عهد للغاية عن الابحاث الاميركية في مضمار البلورات السائلة . «هذه البلورات السائلة صناعية . اذا غلفتم بها الجسم الانساني ، اتخذت الوانا مختلفة . واذا قستم الاشعاعات عن بعد ، أمكنكم ان تقيسوا انفعالات الشخص وان تكتشفوا ـ وهذا اهم ـ امراضا . لهذا الفرض تستخدم تلك البلورات اليوم . والمستقبل لها ...» . واضاف ناوموف قوله : «أن بعض الاشخاص يعتقدون ـ اتعلمون ! ـ بأن المخ والعيون تتألف من شكل من البلورات السائلة» .

يقال أن معهد دوروف ومعهد بافلوف بموسكو يجريان سلسلة متصلة من الابحاث ، السرية بقدر او بآخر ، حول الباراسيكولوجيا. وقد سألنا ناوموف عما اذا كانت تجارب مماثلة لتجارب دوروف لا تزال تجرى الى اليوم ، فأجاب : «لا شك في انه من الاهمية بمكان دراسة القدرات التخاطرية لدى الحيوانات، لكن المشكلة الكبرى هي العثور على شخص يتمتع بمواهب دوروف وذكائه» .

لقد حاول السوفياتيون ان يعرفوا مصدر حس التوجه الذي تمتلكه حشرات وطيور وحيوانات اخرى شتى ، وهذه ظاهرة معروفة بدورها لكن لا يزال الغموض يكتنفها الى اليوم . وتصور الكتب ، وحتى الافلام ، كلابا تقطع آلاف الكيلومترات عبر مناطق مجهولة لتلحق بصاحبها . والدكتور ج.ب. رينيه وابنته

والدكتورة سارة فيذر هم من الباحثين الاميركيين النادرين الذين نفذوا تجارب في مضمار التخاطر الحيواني . وهم يتحدثون عن حالة حيوانات افلحت في العثور على صاحبها بفضل ما اسموه بـ «التعقب **بسي**» .

يجري الباحثون الميتانفسيون السوفياتيون كذلك تجارب ذات طابع اكثر تقليدية وجدية حول الحيوانات التي يستخدمونها في مختبراتهم . وقد وضعوا تحت المراقبة ارنبة والدة ، فيما كان صغارها يعدمون على بعد كيلومترات منها ، في داخل غواصة . وكان المقصود ان يتبينوا ما اذا كانت الارنبة ستعرف حدسا بما حدث . وكان قد اخذهم الفضول والعجب الشديد حين قرأوا التقارير الاولى التي وصلتهم عن تجربة فرنسية أريد منها معرفة ما اذا كانت الجرذان قادرة على الحدس بالمستقبل . هل يمكن للجرذ ان يتوقع كارثة ؟ هل يعرف مقدما انه سيلقى حتفه ؟ لقد بدأ الباحثون الفرنسيون برصد سلوك عدد من الجرذان . ثم تولت آلة اختيار الجرذان التي ستقتل . وبحسب ما جاء في التقارير، فان الجرذان التي نفذ فيها حكم الاعدام دللت على سلوك غريب **قبل** ان تختارها الآلة ، كما لو انها استشعرت بما سيحدث ، وكما لو انها علمت بما كان لا يعلمه البشر بعد .

لقد أثار قسم كبير من الابحاث السوفياتية الاساسية في الحيوانات ضجة ولغطا في اوساط الاختصاصيين في إ.ف.ح . ففي احد المختبرات السوفياتية كانت مجموعة صغيرة من الاسماك تسبح جيئة وذهابا في ماء الحوض الصافي . وكان الباحث العلمي الروسي ي.أ. هولودوف يراقبها بانتباه . ثم اصطنع تيارا مغنطيسيا ضعيف الشدة في الحوض . فظهرت على الاسماك علامات رد فعل . وتبين هولودوف ان الاسماك تصدر عنها ردود أفعال شرطية استجابة للمغنطة . لكن لماذا ؟ فلا الاسماك ولا الحيوانات الاخرى تملك اجهزة استقبال مغنطيسية. ترى هل «التقطت» الاسماك بمنحها مباشرة التيار المغنطيسي

الذي لا يزال هو الآخر سرا من الاسرار في طبيعته ؟ ان الحقل المغنطيسي ، على ما تشير الدلائل ، يفعل فعله على منوال التخاطر ، فهل ثمة من علاقة ، من تشابه بين الاثنين ؟

ان تجربة الاسماك التي كانت تغير اتجاهها في داخل حقل مغنطيسي ليست على نفس الدرجة من الاثارة وتجربة كلب دوروف الذي يمتثل للامر التخاطري ويلعق بلسانه لوحة معلقة على الحائط . لكن هذا النوع من ابحاث المقاربة هو الذي يؤلف ، مع تجارب اخرى ذات طابع مثير ، اساس الباراسيكولوجيا السوفياتية . فالغاية التي ترمي اليها جميع الجهود المبذولة هي معرفة كيفية عمل إ.ف.ح .

لا يتفق الباحثون السوفياتيون على الدوام بصدد الطرائق الواجب انتهاجها لانشاء نظرية في إ.ف.ح . يرى الدكتور ايبوليت كوغان ، رئيس قسم المعلوماتية الحيوية في مجموعة بوبوف ، أن الابحاث يجب ان تتركز بصورة خاصة على التخاطر. ويصرح بما مؤداه : «اننا قادرون على اصطناع ظاهرات تخاطر ايضا ، فلمَ لا نركز جهودنا كلها على هذا المضمار ؟» . والدكتور كوغان ، بحاجبيه الكثين الاسودين وشعره الرمادي المموج ، يدلل على نزعة محافظة لم نجد مثيلا لها لدى غالبية الباحثين الذين التقيناهم . فهو ينتمي الى جيل متقدم في السن نسبيا ، جيل شهد ما شهد من فظائع ارتكبت في الاتحاد السوفياتي ، وبخاصة في ميدان البحث العلمي الرسمي . لكن كوغان ، على الرغم من انه قصر ابحاثه وابحاث مجموعة بوبوف على التخاطر ، يقف وراء عدد كبير من التجارب التي تنم عن اصالة وروح ابتكار كبيرتين . وهو المسؤول شخصيا عن القسم الاكبر من التجارب التخاطرية السوفياتية التي تقدم عنها الكلام في هذا الكتاب . وقد كان اول من صمم تقنية استكشاف تسمح بعزل تظاهرات إ.ف.ح عن سائر الذبذبات المخية . وقد بيَّن كوغان ـ وهو ايضا عالم

رياضيات ـ انه من الممكن من حيث المبدأ ان تتم الاتصالات التخاطرية بين شخصين تفصل بينهما مسافة ما يسيرة بواسطة الذبذبات الكهرطيسية . وهو يمارض في ذلك بعضا من زملائه . وكما يوضح الدكتور الكسي غوبكو، من معهد علم النفس بأوكرانيا، وهو من المخضرمين في هذا الميدان : «ان معظم الباحثين على اقتناع اليوم بأن المخ ينتج نمطا خاصا من الذبذبة ، من طبيعة لا تزال مجهولة ، وهو الركيزة التي يقوم عليها التخاطر» .

لكن كوغان لم يكتف بالعودة الى النظريات الاهتزازية التقليدية . فبصفته اختصاصيا في السيبرنطيقا ، تراه يحاول تفسير التخاطر بنظرية الإعلام . فكوغان لا يعتقد ان «فكرة» الوصيل تشق طريقها اثناء فعل التخاطر الى خارج مخه لتصل الى مخ المتلقي . وانما المسألة بالاحرى مسألة «معلومات» حول تلك الفكزة يقوم المتلقي بالتقاطها . ومن الممكن ان تنقل هذه المعلومات بواسطة حقل من نوع **بسي** الى مخ المتلقي حيث تتوضح معالم الفكرة رويدا رويدا . لذا نجد ان جميع الرسائل التخاطرية تقريبا تقسم في التجارب السوفياتية الى «عناصر إعلام يتم ادراكها ثانية فثانية» .

ان المزاوجة بين السيبرنطيقا والتخاطر ضرب من التجديد . فالفكرة القائلة ان المتخاطرين هم بمثابة اجهزة ارسال واستقبال اشعاعية تخلي مكانها لتصور مغاير يفترض وجود نوع من نظام سيبرنطيقي . ويتحدث السوفياتيون عن آلات سيبرنطيقية تستطيع ان تحفز التخاطر الانساني ، وقد ألحقت عدة فرق من الباراسيكولوجيين بمختبرات للسيبرنطيقا .

تساءل البيولوجي ادوارد ناوموف : «لماذا لا نستكشف جميع الظاهرات الميتانفسية اذا كنا نريد حقا ان نجد جوابا للاسئلة الاساسية التي يطرحها إ.ف.ح ؟» . فبدلا من مقاربة ميدان **بسي** من الزاوية الرياضية او زاوية النماذج السيبرنطيقية، يرى ناوموف انه من الواجب مقاربته وفهمه من خلال مختلف

وجوه التجربة اليومية . وفي اعتقاده ان الباراسيكولوجيا يجب ان تعتبر نقطة تلاقي جميع فروع المعرفة وجميع فروع العلم ، بوصفها تركيبا للمعارف جميعا ، بدءا من الفلسفة والفن ومرورا بالدين ووصولا الى العلوم . وكما ان السلك الدبلوماسي يكوّن نظرة اجمالية عن مشكلات العالم بتركيبه بين برقيات السفراء من الاقطار قاطبة ، كذلك تقدم الباراسيكولوجيا تعريفا جديدا للانسان انطلاقا من ابحاث تجرى في ميادين البيولوجيا والطب والمغنطيسية الحيوية والملوماتية والفيزيولوجيا ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر . يقول ناوموف : «ان السيكولوجيا مدعوة الى تفسير طبيعة الانسان في ذاتها ، اي ما يشمل نشاطات الانسان **كافة**» . ويذهب ناوموف الى ان انانا الميتانفسي يتدخل في نشاطاتنا جميعا .

لذا كان الايمان راسخا لدى ناوموف بانه لا يجوز حذ الابحاث الباراسيكولوجية بالتخاطر وحده . بل ينبغي ان تشمل هذه الابحاث ، علاوة على التخاطر ، السيكوكينيزيا ، والتصوير الفوتوغرافي الميتانفسي (كما يمارسه تيد سيريوس في الولايات المتحدة) ، واللمس الاشعاعي ، والرؤية فوق الشبكية ، وسبق العلم ، و«العلاقات الحيوية» (تاثير الفرد على المجموعة التي اليها ينتمي) ، ومظاهر **بسي** السيكولوجية التي كثيرا ما يهملها السوفياتيون .

حتى يتمكن ناوموف من العمل على اساس هذا التصور الموسع لميادين **بسي** ، ترك مجموعة بوبوف ، التي كانت تحصر اهتمامها بالتخاطر وحده ، واسس قسما خاصا به للباراسيكولوجيا ، ورُبط فيما بعد بالجمعية العلمية والتقنية للتصميم الهندسي .

يعكف ناوموف ، في الوقت الراهن ، على دراسة مشكلات محددة مثل حالة فرد يحرك عموديا بقوة السيكوكينيزيا سيجارة موضوعة في كاس ، ولكن فقط متى ما كان ثملا ... ؛ ومسالة الرؤية فوق الشبكية ؛ وتصوير افلام حول المتخاطر كارل

نيقولائيف ، الخ . ويدرس السوفياتيون كذلك التصوير الفوتوغرافي الميتانفسي . وقد قال لنا ناوموف : «نعتقد انه في مستطاع اي انسان كان ان يتعلم ذلك التصوير ، لكن القدرة التي يمتلكها الناس على صنع «صور» على نحو ما يفعل تيد سيريوس ضعيفة للغاية . وفي نيتنا ان نستخدم ادوات خاصة وحقول قوة اصطناعية لتنمية بذور المواهب التي سنكتشفها» .

وتطرق ناوموف مستطردا الى مشكلة اخرى : «ان من اهم المساهمات في الباراسيكولوجيا ما تم اكتشافه مؤخرا من وجود تيارات تخترق الجسم ولا تمت بصلة الى جريان الدم او الكهرباء» (اشار ناوموف بذلك الى اكتشاف حديث العهد توصلت اليه الباراسيكولوجيا والفيزيولوجيا ويعرف باسم مفعول كيرليان) . «اننا نراقب ايدي المتخاطرين بواسطة اجهزة صممها كيرليان ، وندرس كذلك تأثير التخاطر واللمس الاشماعي على النباتات» .

واردف ناوموف يقول :

«لقد نظمنا مؤخرا ندوة لمناقشة ابحاثنا بصدد تأثير التخاطر على مجموعات الافراد . وفي وسعنا الان ان نحدد السيماء الكهرطيسية لكل مجموعة . فاذا ما حددناها ، ادخلنا على المجموعة شخصا غريبا . فاذا بالمنحنى البياني الكهرطيسي للمجموعة يتعدل . ان شخصا واحدا يكفي ليؤثر تخاطريا على المجموع» .

وختم الباحث الشاب متنبئا :

«ان المشكلات الاساسية التي يطرحها علم النفس البشري على نفسه اليوم سيعود امر الفصل فيها في الغد الى الباراسيكولوجيا وسيظهر إ.ف.ح يومئذ على انه المفتاح الاساسي للاوعي وللشخصية وللانفعالات» .

لكن يبقى هناك درب طويل ينبغي ان يقطع قبل تخطي مرحلة التجارب المماثلة لتلك التي أجريت على مارس وتيكي ، ولا تزال

الشقة بعيدة بيننا وبين الكلام عن **بسي** بوصفها واحدة من المركبات الاساسية للحياة . لكن اذا صح ما يقوله ناوموف ، واذا تأكد أن ما نسميه **بسي** يشكل بالفصل قوة ديناميه وكلية الحضور ، فلا بد ان تتجلى هذه القوة لدى الحيوانات كما لدى الانسان . وعندئذ ستصبح **بسي** رباطا دقيقا للغاية يربطنا بسائر أشكال الحياة .

الفصل الثاني عشر

التقمص الاصطناعي

منذ وقت غير بعيد ، وفي أستديو كبير مشمس بموسكو ، وقفت مجموعة من طلبة الفنون الجميلة ترقب بانتباه موديلا . كان كل واحد منهم مستغرقا في رؤيته الخاصة للفتاة ، وكانوا يرفعون رؤوسهم بين الفينة والفينة بإيقاع منتظم ليقارنوا بين هيئة الموديل وبين الرسوم التي كانت معالمها آخذة بالتوضح على اوراقهم . ولم يلتفت احد منهم حين دلف الاستاذ ، فلاديمير ل. ريكوف ، الى الاستديو ومر بين صفوفهم وهو يتبادل اطراف الحديث مع زائر .

قال ريكوف : «اسمح لي بأن اقدم اليك واحدة من خير تلميذاتي» . ونهضت فتاة في العشرين من العمر ، على مضض

على ما بدا . لكنها ما لبثت ان استدارت بسرعة نحو الزائر ، وكانها تمالكت نفسها ، ومدت اليه يدها قائلة : «انا رافائيل سانزيو» .

لم يكن الاسم هو الذي ادهش الزائر ، وانما الطريقة المادية ورباطة الجأش اللتان قدمت بهما نفسها على انها رسام عصر النهضة الكبير .

ـ هل بوسعك ان تعيني لي السنة التي نحن فيها ؟

ـ سنة ١٥٠٥ ، بالطبع !

تراجع الزائر ـ وكان بحاجة الى هنيهة من التوقف ليفيق من دهشته ـ خطوة الى الوراء وضبط آلة تصويره باتجاه الطالبة الشابة والمرحة . وسأل الدكتور ريكوف «رافائيل» :

ـ اتعرفين ما يمسك بين يديه ؟

ـ كلا !

ـ هل سبق ان رايت شيئا مشابها ؟

ـ كلا ، لم ار شيئا كهذا في حياتي قط !

بعد ان التقط الزائر بضع صور فوتوغرافية ، طفق يتكلم عن آلات تصوير وطائرات نفاثة واقمار صناعية ؛ ولما أصرت الفتاة على نفي العلم بها ، ذكر لها مجموعة اخرى من الاشياء التي لاسمها صلة بالتاريخ الحقيقي : ١٩٦٨ ، فكان ان ردت الفتاة غاضبة : «هذا هراء بهراء ، وانت تضيع وقتي بهذه السفاسف !» .

قال لها عندئذ استاذها : «حسنا ، شكرا على سماحك لنا بهذه المقابلة ، ايها المعلم رافائيل . بوسعك ان تعود الى العمل الان . ارسم ، ارسم احسن ما تستطيع الرسم» .

ثم اعلن الدكتور ريكوف لمدعوه ، مراسل «البرافدا» :

ـ ذاك مثال على ما نسميه بـ «التماهي» .

حين زعمت إيرا انها رافائيل المتقمّص ، لم يهرع الطبيب النفساني الى المقابر الخربة ليتحقق من اقوال طالبة العلوم الشابة . فريكوف ، الذي يعمل مع الباراسيكولوجيين من معهد

بوبوف ، كان يعلم حق العلم الكيفية التي عاود بها الفنان الكبير ظهوره ... «متقمصا» في اشخاص خمسة تلاميذ في صفه . فقد تم هذا التقمص بمبادرة منه بالذات . ذلك ان ريكوف هو ، في واقع الامر ، منوم مغنطيسي .

يسمى ريكوف ، من وراء عمليات التقمص النشيطة هذه ، الى حفز ظهور موهبة ، بله عبقرية ، لدى طلابه . يقول السوفياتيون: اننا لا نحاول ان نفرض على الناس شيئا لا يمتلكونه بطبيعتهم . ولكن القليل من الناس يدركون في الواقع غنى المواهب التي يملكونها .

يشرح ريكوف فيقول : «لا استطيع ان اصطنع ظاهرة التماهي تلك الا اذا دخل الشخص الذي تجرى عليه التجربة في حالة نوام عميق . ان التماهي شكل جديد من النوام النشيط» . وريكوف يشدد اللهجة كثيرا على هذا الجانب «النشيط» في تجارب التماهي . كانت آلا ، على سبيل المثال ، تتابع دروسها على نحو باهر في كلية الفيزياء بجامعة موسكو . وما كان الفن يثير اهتمامها كثيرا . وكانت تقول انها لا تعرف ان ترسم . وفي مستهل التجربة ، التي تطوعت باجرائها بملء ارادتها ، بدا من الرسوم التي امكنها ان تقدمها وكأنها على حق في ما كانت تدعيه. اذ لم تستطع رسومها ان تتجاوز مرحلة التكوينات الخطية .

قال الدكتور ريكوف للفتاة بعد ان ادخلها في حالة نوام عميق : «انت ايليا ريبين» . وريبين ، فنان روسيا الكبير في مطلع القرن العشرين ، لا يزال يندرس على نطاق واسع في الاتحاد السوفياتي اليوم . «انك تفكرين مثل ريبين . **وترين** مثل ريبين ، ولديك موهبة ريبين ، **وأنت** ريبين . لديك اذن عبقرية ريبين » .

بعد بضع جلسات تماه مماثلة ، بات واضحا ان تحسنا ملحوظا قد طرأ على رسم آلا . وبعد حوالي عشر امسيات امضتها الفتاة وهي متقمصة شخصية ريبين ، اخذتها الرغبة في

الرسم لذاتها ، وصارت لا تخرج الا وحاملة معها دفتر الرسم . وفي مدى ثلاثة اشهر ، وبعد دورة دراسية من خمسة وعشرين درسا ، صارت آلا ترسم كمحترفة . ولا ريب في انه لم تكن لها موهبة ريبين او رافائيل ، الذي تقمصت شخصيته مرتين ، لكنها استطاعت ان تصل الى مستوى رسام مجلة جيد . وقد تفتقت موهبة الرسم هذه بقوة لدى آلا حتى انها فكرت بأن تهجر الفيزياء لتكرس نفسها للرسم .

يقول الدكتور ريكوف : «ما كانت آلا لتتعلم كل ذلك في حالة التنويم المغنطيسي العادي ، اي السلبي الخالص» . وفي الواقع، ان ذلك العالم السوفياتي الشاب ، الذي ينتمي الى الجيل الجديد من مستكشفي النفس الانسانية ، قد اعتاد على ممارسة التنويم السلبي الذي يخضع فيه النائم تمام الخضوع لارادة المنوِّم . وقد حقق ريكوف بنجاح معظم تجارب التنويم والايقاظ التخاطريين التي صممتها مجموعة بوبوف ، ونشر عدة مقالات في توضيح سر الظاهرات الميتاعادية بواسطة التنويم المغنطيسي . وقد افلح بسهولة في وضع آلا في حالة نوام سلبي . ثم سالها ذات يوم ان تقوم بعرض ، وهي في تلك الحالة ، امام زائر . وبناء على أمر تنويمي من ريكوف ، طافت آلا بأنحاء الفرفة مغمضة العينين ، بحركة سرنمة (١) مبهمة . وتظاهر ريكوف بأنه يناولها كأسا من عصير التفاح . فجرعته دفعة واحدة وشكرته قائلة : «أحس بتحسن كبير ، شكرا لك !» .

تحتفظ آلا ، اثناء التجربة ، بشخصيتها الخاصة ، حتى عندما تتماهى مع رافائيل . وتحتفظ كذلك بحيويتها كاملة ، وتبدو وكانها في اتم يقظة : فهي ترى الموديل وقلمها وورقة

---

١ ــ السرنمة Somnambulisme : السير اثناء النوم ، اشتقاقا من «سار» و«نام» . ــم ــ

الرسم . وترسم بنفسها التصميم الاولي للصورة التي تريد رسمها ، وتشحن الرسم بانفعالاتها الخاصة . ولا يتدخل ريكوف ولا يحاول التاثير عليها ، بل يكتفي بأداء دور المراقب ... بعد ان يضع الفتاة على اول طريق سيرورة التماهي .

يصرح ريكوف :

«يضع التماهي الفتاة في حالة تخضع فيها لقوانين جديدة لما تدرس بعد . وهدفي تحديد هذه القوانين المجهولة . ان التماهي مهم بحد ذاته ، ويشق لنا الطريق الى فهم مظهر لا يزال مجهولا من النفس البشرية» .

لقد كان الدكتور فاسيلييف ، رائد الباراسيكولوجيا ، يدعو بدوره الى حفر الجوانب غير المستكشفة من النفس البشرية . وقد كتب قبيل وفاته في **افكار حول الفن والإلهام الخلاق** يقول: «ان تقدم الباراسيكولوجيا يقرّبنا يوما بعد يوم من حل اللغز الذي يكتنف الابداع الفني . ونحن نعلم ان المناطق البعيدة الفور من العقل البشري مرتبطة وثيق الارتباط بالملكات الابداعية» .

يتفق الباراسيكولوجيون والنقاد على التسليم بأن الابداعية والالهام ينتقلان بواسطة تلك الطاقة عينها التي اطلق عليها العلماء فيما بعد اسم ا.ف.ح .

لكن كيف ينبغي ان نفهم عبارة : «انت ايضا قادرة على تعلم الرسم بعشرين درسا فقط !» . ان ولادة الفنان عند آلا تبدو في الواقع مبسطة اكثر مما ينبغي . ويعترف السوفييت ان هذا النقد كان سيكون مبررا فيما لو كنا بصدد مفاهيم تعليم تقليدية. غير ان التقمص هنا ، كما يبينون ، يمنح العقل ابداعية خارقة لانه يسمح له بالعمل وفق قوانين جديدة يمكن الذهاب الى حد وصفها بكلمة «سحرية» . ولهذه القوانين نتائج ثابتة . اذ يبدو ان آلا لم تفقد مواهبها الفنية بعد انتهاء التجربة ، وكذلك كان الامر بالنسبة لغيرها من الاشخاص الذين اخضعوا لتجارب مماثلة .

لقد أخضع الدكتور ريكوف ومعاونوه لبلسلة من الروائز

التمهيدية ما يقرب من عشرين شابا وشابة ، تتراوح اعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين ، ويتمتعون بسوية عالية نسبيا من الذكاء مع افتقارهم الى المواهب الفنية . وقد اثار ريكوف لدى كل واحد من بينهم سلسلة من التماهيات ، من خمسة الى عشرين تقريبا . وبعد هذه التجارب حقق الجميع تقدما اكيدا في ميدان الرسم ، وان كان بعضهم قد تفوق على بعضهم الآخر ، وقد احتفظ الدكتور ريكوف بالاعمال الفنية التي تثبت ذلك . وقد خرج كل طالب من هذه التجارب وهو مقتنع بانه قد اكتسب موهبة جديدة .

ولم يتذكر هؤلاء الطلبة اي شيء عن نشاطهم في فترات التماهي . لذا ليس من المستغرب ان رفضوا في البداية التصديق بأنهم فعلا صانعو تلك اللوحات المنسوبة اليهم ... وانهم قد اقدموا ، برباطة الجاش تلك ، على توقيع هذه اللوحات باسم «رافائيل» او »ريبين« .

ان ريكوف ، بصفته عالما نفسيا وسوفييتيا في آن واحد ، اهتم بشكل خاص بالجانب الفيزيولوجي للتماهي الذي سمح لاشخاص ، كطالبة العلوم التي لم يكن الفن حتى ليثير اهتمامها، باكتساب مواهب تصويرية وبسرعة فائقة . وبعد دراسة اجهزة التحليل العادي ، تأكد ريكوف من صحة نظريته القائلة : ان نوام التماهي ظاهرة جديدة تماما ، وانه لا علاقة له بالنوام السلبي الناجم عن التنويم المغناطيسي ؛ ففي النوام السلبي يشير جهاز التخطيط الكهربائي للدماغ الى ايقاع الفا لحالة الراحة والسكينة. اما في نوام التماهي بالمقابل فان ايقاع الفا يختفي تماما ويرسم جهاز تخطيط الدماغ الكهربائي خطا منحنيا شبيها بذلك الذي يمكن تسجيله على شخص في حالة يقظة تامة . ففيما كان الطالب يؤدي شخصية رافائيل ، كان ، على الصعيد الفيزيولوجي على الاقل ، في حالة من اليقظة التامة . فالدماغ يشير الى تركيز حاد وكل اثر للشرود يزول . ويبدو الشخص وكأنه قد شحذ سائر

طاقاته واستنفرها من اجل هدف واحد . ان التماهي يتجلى ، من اكثر من زاوية ، وكأنه نقيض النوم تماما . بيد انه لا يخلو من نقاط تشابه مع حالات النوام العادي . فلقد كان الطلبة يغطون في سبات عميق قبل ان يعودوا الى انفسهم . ومع ان ريكوف لم يكن ليوحي اليهم قط بنسيان تجربتهم ، فقد كانوا يعجزون عن تذكر اي شيء عن حياتهم الثانية . وفي راي السوفييت ان المنوم المغنطيسي المحنك هو وحده القادر على ان يفتح امام الشخص الخاضع لتجربة النوام ابواب ميدان التماهي اللامحدود . وليس بالامكان الوصول بأي فرد كان الى المرحلة الاولى ، مرحلة النوام العميق . وقد عجز ريكوف نفسه عن الانتقال ببعض الافراد من حالة النوام هذه الى حالة «التقمص» .

بالاضافة الى تعلم الرسم والتصوير يمكن الاستفادة من التماهي ، بحسب راي ريكوف ، في التأهيل العلمي . وهذا الانتقال السريع من الاكتشاف الى التطبيق يعكس اهتمام السوفييت باكتشاف اساليب تعليم جذرية جديدة . فالكاتب ورجل الاعمال الشهير ف. كليمنت ستون يشير في كتابه **الجانب الآخر من الدماغ** (كتبه بالتعاون مع الصحفية نورما لي براون) الى التجديد في البحث الباراسيكولوجي السوفييتي في مطلع الستينات . فستون ، الذي ادرك خطورة المنافسة الاميركية ـ السوفييتية في هذا المضمار ، واهمية تلك المادة الاولية الدولية المتمثلة بطاقة العقل البشري الكامنة ، توجه الى واشنطن وحصل على مقابلة مع اوليفر كالدويل الذي كان يشغل آنذاك منصب مفوض الدولة لشؤون التربية الدولية لدى وزارة الصحة والتربية والشؤون الاجتماعية . وكالدويل الوثيق الاطلاع على كل ما يتعلق بالشؤون السوفييتية قال لستون وبراون : «طالما اعتراني الذهول امام الريبة بل والعداء اللذين القاهما عند الاميركيين عندما أحاول ان اقنعهم بخطورة التجارب التي تجرى حاليا في الاتحاد السوفييتي في ميدان الباراسيكولوجيا او في ميادين

مشابهة اخرى . ولا ادري في الواقع اسباب ذلـــك الموقف ، ولاسيما بعد ان توفرت ترجمة لبعض التقارير التي تتطابق كليا مع ما لاحظته شخصيا في الاتحاد السوفييتي . ولن اخفـــي عليكما قلقي ؛ فان رفضت الولايات المتحدة بذل جهود جديـــة لتحقيق تقدم في هذا المضمار فان الاوان سيفوتها بعد عشرة أعوام» .

واشار كالدويل الى عدد من الاتجاهات السائدة في عالـــم الابحاث السوفييتية والهادفة الى توسيع طاقات الفرد الذهنية. وقد روى حديثا كان قد دار بينه وبين الطبيب الراحل لاندو الذي يعتبر واحدا من ابرز علماء الفيزياء في الاتحاد السوفييتي. وكان موضوع هذا الحديث متعلقا بثورة جديدة في عالم الفيزياء: بالبحوث الجارية في الاتحاد السوفييتي لضبط موجات دمـــاغ فرد من الافراد على موجات دماغ فرد آخر ، وذلك عن طريـــق التخاطر . وقال لاندو لكالدويل بهذا الصدد : «عندما سنتوصل الى تحقيق ذلك فان الاساتذة سيعلّمون بطرق أسهل بكثير من الاساليب التقليدية لانهم سيتمكنون من تخطي اواليات الدفـــاع التي تمنع الوصول الى تسعين بالمئة من الدماغ» .

سعيا وراء تنشيط ابداعية وعمل ذلك الجزء من الدمـــاغ المتقاعس عن كل نشاط عادة ، اوحى ريكوف ومعاونـــوه لطالب شاب في العلوم بأن يتقمص شخصية واحد من ابرز العلمـــاء الرياضيين في اوروبا . فان اقتنع الانسان بأنه عبقري ، حسب ادعاء ريكوف ، فانه يضاعف من قدرته على التركيز . وقد شعر الطالب الشاب بالفعل بثقة كبيرة بنفسه ، ولم يعد ثمة ما يحول دون انطلاقة نشاطه الابداعي . وقد راح ينهل من «احتياطيه» الذهني الذي ما كان ليستطيع الافادة منه ابدا في الاوقـــات العادية . وقد بدات خلاصة التجارب التي اكتسبها في فترات التماهي تنعكس ايجابيا في حياته العادية . فقد ارتفعت علامات الطالب على نحو ملحوظ . غير اننا نرجو من الطلاب الذين يودون

اتباع هذا الاسلوب للحصول على معلومات سريعة ومكثفة ان يضربوا صفحا عن هذه الفكرة . فقد اشار ريكوف بلا اي مواربة الى الاخطار التي قد تترتب على تجربة كهذه . ولا يجوز لاحد ان يحاول التماهي مع احد او ان يحمل احدا على التماهي مع غيره ما لم يكن يملك تأهيلا متينا كطبيب نفساني وكمنوم مغناطيسي . اما بالنسبة الى طلبة ريكوف فكانوا يخرجون من هذه التجارب في وضع صحي ممتاز . كانوا يؤكدون بأنهم يشعرون ب «الاسترخاء» و«الارتياح» بعد كل جلسة . وقد انتهوا على كل حال الى اكتساب خبرة في التنويم المغناطيسي الذاتي ، الامر الذي سمح لهم بتقوية ارادتهم وتحسين ذاكرتهم .

وقد طبق ريكوف ذات يوم تجربة مثيرة للاهتمام على مهندس في الطيران . فقد امر المهندس بأن يسقط نفسه في المستقبل بالتماهي ، محققا ما يتفق الغربيون في معظمهم على تسميته ب «تجربة سبق المعرفة» .

قال ريكوف للمهندس : «انت من كبار مخترعي المستقبل ، وبفضل معلوماتك عن العلم في عصرك تستطيع ان تضع طريقة لالتقاط صور للصواريخ العابرة للفضاء» . وقد وافق «رجل المستقبل» على ذلك وانكب فورا على العمل . ويقول ريكوف بصدده : «لقد احتفظنا برسومه في مكان امين للتأكد من صحتها في المستقبل» .

لقد اثار نشر كتابات ريكوف حول «**التماهي الاصطناعي**» اهتماما عظيما لدى الاخصائيين في عدد من الفروع العلمية . وقد قال بصددها الدكتور ك.ك. بلاتونوف وهو واحد من اشهر السيكولوجيين السوفييت : «ان تنمية موهبة الرسم ليست الا مثالا» جزئيا على مجموعة من القوانين اكثر عمومية . وقد اثيرت بالحاح في روسيا مسألة دراسة القدرات الكامنة للنفسية البشرية ، وهي قدرات كشف العلم منذ الان عن اهميتها الفائقة » .

سيرغي راخمانينوف ، وهو واحد من ألمع الموسيقيين الذين اعطتهم روسيا ، خلق ذات يوم سابقة لتجارب ريكوف . فقد عزفت اولى سمفونياته في سان بطرسبورغ فاستقبلت بالهزء والنقد اللاذع . وقد تأثر الموسيقار الى ابعد الحدود من ذلك اللقاء السلبي ، وانهارت اعصابه ، وقرر هجر الموسيقى . وقد نضب معين وحيه بالفعل خلال السنوات التي تلت تلك المحنة . وكان راخمانينوف يتوهم بانه يعاني من نوع من الصمم الداخلي . الا ان رفاقه ، الذين خشوا الا يعود ابدا الى التأليف الموسيقي ، تمكنوا من اقناعه باستشارة منوم مغناطيسي هو الدكتور داهل.

«انت تملك موهبة اكيدة ولديك كل ما ينبغي للتعبير عنها» ؛ هذا ما راح يؤكده الدكتور داهل للموسيقار الخاضع للتنويم المغناطيسي . وكان داهل يضيف : «الوحي يزورك بحرية تامة ، وما من شيء يستطيع ان يتصدى له» . وبعد سلسلة من تمارين الايحاء الذاتي شعر راخمانينوف بالالهام الموسيقي يعود اليه من جديد . فألف تلك القطعة الموسيقية الشهيرة والقوية ، والتي تتفجر كالربيع عبر سهوب روسيا المتجمدة ، والتي تعتبر اليوم من روائع الفن الموسيقي : الكونشرتو رقم ٢ . وقد اهدى راخمانينوف هذا الكونشرتو للدكتور داهل .

الفصل الثالث عشر

الرؤية بغير العين

في مطلع الستينات كان ثمة ٣٠٠ الف شخص يعيشون في مدينة نيزهني تاجيل في جبال الاورال . وكانت روزا كوليشوفا تعيش في تلك المدينة حياة عادية ورتيبة . لم تكن فاتنة الجمال ولم تكن لتعير ذلك اهمية تذكر . ففي تلك المنطقة الصناعيــــة والمنجمية كانت المراة الشابة التي لا تزال في الثانية والعشرين تعيش وسط احلامها . فمنذ السادســــة عشرة كانت روزا ، القصيرة والسمينة ، والمرتدية ابدا اثوابا رخيصة ، تشرف على ادارة فرقة مسرحية للعميان في مدينتها . فقد اصيب عدد من افراد اسرتها بالعمى ، وقد تعلمت روزا معهم القراءة وفق طريقة برايل .

وذات يوم لاحظت روزا امرا غريبا . وفيما بعد طفى حلم

حلمته على سائر احلامها : فلسوف تعلّم الآخرين ان يروا ، ان يروا النور ، والالوان ، والصور . سوف تعلمهم ان يقرؤوا من دون الاستمانة بكتابة برايل .

في ربيع ١٩٦٢ اعلنت روزا لطبيبها ايوزيف م. غولدبرغ ان في وسعها ان «ترى بأصابعها» ، فلم يأخذ الطبيب كلامها على محمل من الجد . فما كان منها الا ان قدمت له الدليل على صحة ادعائها . عصب الطبيب عينيها ، فمررت روزا بنصر وخنصر يدها اليمنى فوق صورة ملونة وراحت تسمي الالوان الواحد تلو الآخر : «أخضر ، احمر ، ازرق فاتح ، برتقالي» . ولجأ غولدبرغ الى وضع جرائد ومجلات تحت اصبعي روزا العجيبين ، فاذا بها تطالعها بيدها بطلاقة من يقرأ بعينيه . كانت يدا المرأة لا تتميزان عن أي زوج آخر من اليدين ، ومع ذلك فقد بدتا وكأنهما قد زودتا بعينين ثاقبتين .

اعترفت روزا بأن اول شيء فكرت به عندما اكتشفت قدرتها على المطالعة بواسطة اصابعها هو : «ان أخفي بعض الملاحظات المدونة في جيبي وأن أطالعها اثناء الامتحان في المدرسة» .

وقد اقدم الدكتور غولدبرغ ، الاخصائي في الاعصاب ، على سلسلة من التجارب للتأكد من هذه الظاهرة العجيبة والتحقق منها . ذهب بصحبة روزا الى المؤتمر الاقليمي لرابطة السيكولوجيين الذي انعقد في تاجيل في خريف ١٩٦٢ . وللمرة الاولى في حياتها وجدت روزا نفسها قبلة للانظار . غير انها لم تتمتع بذلك لان علماء النفس المجتمعين في قاعة المؤتمر كانوا قد احاطوا راسها بعصابة كثيفة . بيد ان اصبعيها تمكنا من تحديد لون الثياب التي ارتداها المؤتمرون ، وكذلك لون الاشياء التي كانوا يخرجونها من جيوبهم ويعرضونها عليها . وقد «نظرت» بيدها الى صورة شخص . فوصفت بدقة وضعه وشكله . بأي معجزة ؟ تساءل علماء النفس . «بفضل التمرس» أجابتهم روزا . «فمنذ ست سنوات وأنا اتدرب على ذلك لبضع ساعات يوميا» .

هذا التدريب اذاع شهرة روزا كوليشوفا . فروسيا برمتها، والعالم بأسره من بعدها ، سمعا عنها . لقد اصبحت «لغــــز تاجيل» و«معجزة تاجيل» ، واثارت شغف الباحثين ، وكذلك جدلا محتدما في مطبوعات متباينة تماما كجريدة الحزب الرسمية و**مجلة الفلسفة** . اقتيدت روزا الى موسكو ، الى مختبـــرات جامعة العلوم ، وخرجت منها حاملة شهادة تؤكد بأنها «معجــزة حقيقية» . فقد اتضح ان روزا تستطيع فعلا ان «ترى» بيدها .

وقد اثارت روزا موجة من الحماسة الفائقـــة في بلادها . واضحى شغل الروس الشاغل عصب أعينهم وتمرير اصابعهم فوق المجلات او الاوراق الملونة . ان ظاهرة روزا باتت حديث الناس اجمع . وكادت روزا ان تفقد صوابها من جراء شهرتها المنقطعة النظير ، الامر الذي اضطرها للخضوع للمعالجة لدى الاطبـــاء النفسانيين . لكن بغض النظر عن هذا الجانب المسرحي والمثير ، فان العلماء السوفييت ، المعروفين بنزعتهم الذرائعية ، قـــد اكتشفوا طائفة من المعلومات الاخاذة بصدد هذه القدرة علـــى الرؤية غير البصرية ، والغنية بالامكانات والوعود ، وحددوا أسلوبا جديدا لرؤية العالم .

هل تملك روزا ، بمظهرها العادي تماما ، موهبة خارقة ، حاسة سادسة حقيقية ومحددة ؟ هل تتمتع بحاسة بيولوجيــة جديدة تولدت لديها بطريق الصدفة ؟ اقتيدت روزا الى عيادة للطب النفسي في سفردلوفسك حيث اخضعها فريق من البحاثة يعملون تحت اشراف الدكتور شافر ، الاخصائـــي بالامراض العصبية ، لسلسلة من التجارب استمرت زهاء ستة اسابيع . كان البحاثة يعتقدون ان روزا لا تملك سوى حساسية خاصــة تسمح لها بالتمييز بين مختلف حبيبات الاصبغة الكيمياوية . لذا وضعوها خلف حاجز سميك وعصبوا عينيها باتقان . لكن على الرغم من هذه الاحتياطات استطاعت المرأة ان تميز اللون الاحمر،

والاصفر ، والاخضر على اوراق غطيت مرة بلوح من الزجاج وأخرى بورق السلوفان. كذلك استطاعت ان تقرأ نصوصا مكتوبة ونوطات موسيقية من خلال الواح فاصلة من الزجاج . لم تكن المسألة اذن مسألة حبيبات الصبغات . ترى هل تتأثر روزا بتباينات الحرارة الطفيفة للغاية ؟ فألوان الطيف الشمسي تمتص وتعكس كميات مختلفة من الحرارة . لذا عمد الدكتور شافر الى تسخين لوحات الالوان الباردة ، كالازرق والبنفسجي الفاتح ، والى تبريد لوحات الالوان الساخنة كالاحمر . لكن هذا التعديل في الحرارة لم يؤثر قط على روزا . فقد تعرفت بسرعة الالوان التي كانت تعرض عليها على لوحات سبق اخضاعها لتغييرات حرارية .

لدى عودتها الى تاجيل اصبحت روزا ، التي تعاظمت شهرتها باطراد ، محط اهتمام الدكتور نوفومسكي . كان هذا الاخير يعمل في مختبرات علم النفس في معهد تاجيل التربوي . وقد طلب من روزا التعرف الى لون وشكل منحن مرسوم على مرسام الذبذبة . ففعلت دونما جهد . ثم دعاها الى قراءة نص مسألة حسابية عرض على الجانب الخلفي لشاشة تشبه شاشة التلفزيون . ولم ينقض ربع ساعة من الزمن حتى كانت قد تمكنت من قراءة جميع المعادلات الحسابية بواسطة اصبعيها . وقد تعلمت كذلك كيف تميز لون ومستوى سائل موضوع داخل انبوب زجاجي . الامر الذي جعل الدكتور نوفومسكي يسلم ، شأن الدكتور شافر من قبله ، بأن روزا تستطيع فعلا أن ترى بأصابعها . بيد انه لم يعز هذه القدرة الى حساسية خاصة لحاسة اللمس ولا الى تباين حرارة الالوان . فربما كان لغز هاتين اليدين الناظرتين يكمن في احد عناصر البشرة التي لا تزال مجهولة ، والمتمتعة بحساسية خارقة تجاه النور . ووصلت الى روزا دعوة من معهد البيوفيزياء لاكاديمية العلوم في موسكو للحضور الى العاصمة على نفقة المعهد الذائع الصيت

وللمشاركة في سلسلة من التجارب في مختبراته . وفي المعهد تولى طبيبان هما الدكتور سميرنوف والدكتور بونفراد مهمة ارشاد روزا والاشراف عليها . وقد عرضت روزا على علماء موسكو الموهبة العجيبة التي تسمح لها بأن ترى بأصابعها . وفي نهاية المطاف اعلن سميرنوف ، باسم المعهد : «ان روزا لقادرة على قراءة نص بمجرد لمسه بأطراف اصابعها ، وعلى التعرف الى الالوان والنور بيديها» .

منذ ذلك الحين كانت روزا تستطيع ان ترى بيديها الاثنتين، وان تحدد لون مختلف الاشياء دونما تمييز ، بدءا من ربطات العنق والانعكاسات الضوئية وانتهاء بتويجات الزهور والشعر . وكانت تستطيع ان ترى الصور الظاهرة على الطوابع البريدية ، وقد تمكنت حتى من تمييز حلقات قرط كانت تضعه امراة في احدى الصور .

وامام هذه الشهادات التي لا تدحض راح العلماء يتساءلون حولما اذا كانوا بصدد حالة من التحول التطوري . وقد جرت العودة بالمناسبة الى اكداس من التقارير كانت قد دفنت تحت تلال من الوثائق . ف «الجريدة السوفييتية للطب العصبي النفسي» كانت قد نشرت في مطلع القرن تقريرا عن سلسلة من التجارب اجريت على امراة شابة تتمتع بمواهب مشابهة تماما لمواهب روزا .

وفي الخمسينات كان الطبيب النفسي ا.ن. ليونتييف قد درّب مجموعة من الناس على التعرف الى اللون الاخضر والى اللون الاحمر عن طريق اسقاطهما على راحات ايديهم بعد ازالة فروقهما الحرارية بواسطة الترشيح .

ويروي العالم الباراسيكولوجي ليونيد فاسيلييف ان سكيرا كان يقيم في مستشفى الطب النفسي في بولوتسك في اواخر الستينات ، اكتسب القدرة على الرؤية غير البصرية عن طريق الايحاء اثناء التنويم المغناطيسي . فقد نوّم السكير وطلب منه ان

يقرأ بيديه صحيفة **البرافدا** . وفي نهاية التجربة اصبح قادرا على قراءة العناوين الكبيرة والاحرف الصغيرة من خلال ورقة نسخ .

بعد رحيل روزا الى مختبرات موسكو ، حاول علماء النفس في مدينة تاجيل العثور على اشخاص آخرين قادرين على ان يروا بأيديهم ، وذلك انطلاقا من المبدأ السوفييتي القائل «ما يستطيع ان يفعله فرد يستطيع ان يفعله الجميع» . وكان الهدف من هذه التجربة تنمية ملكة الرؤية غير البصرية لدى بعض المتطوعين ، ثم البحث في مرحلة ثانية عن اسباب هذه الظاهرة وابعادها .

وقد بدأ الدكتور نوفومسكي التجربة مع ثمانين رساما شابا من المعهد التربوي في تاجيل . ولاحظ ان كل رسام من اساس ستة يصبح قادرا على التمييز بين لونين بعد ثلاثين دقيقة من التمارين .

لكن ما الشعور الذي تولده الرؤية غير البصرية ؟

ان رسامي المعهد التربوي الذين عصبت عيونهم ، واختفت رؤوسهم واكتافهم خلف حاجز واق ، راحوا يمررون اصابعهم على صفحات من الاوراق الملونة . بوريس م. الذي دلل بسرعة على موهبة اكيدة ، قال : «اني اشعر بشيء يعلق باصابعي ، يجتذبها ، شيء لاصق» . فقال له نوفومسكي عندها : «ان الورقة حمراء اللون» .

وقد اتفق تلامذة نوفومسكي مع اشخاص آخرين اخضعوا لتجربة مماثلة في مراكز سوفييتية عدة ، اتفقوا على القول ان الالوان تنقسم الى فئات اساسية ثلاث : فئة صقيلة ، واخرى لزجة ، وثالثة خشنة . فالازرق الفاتح يبدو اكثر الالوان صقلا. اما الاحمر والاخضر والكحلي فهي الوان لزجة الى حد ما. الاخضر يعطي شعورا اقوى باللزوجة ، لكنه يبدو اقل خشونة من الاحمر. الكحلي يبدو لزجا تماما واقسى بكثير من الاحمر والاخضر . اللون البرتقالي بالمقابل ، المتميز بخشونته الشديدة ، يولد شعورا بالشلل . والبنفسجي يعطي شعورا بالشلل اقوى الى حد تتباطأ

معه حركة اليد .

ويتفق السوفييت على القول ان اللون الاسود يخلف اشد احساس بالخشونة والشلل واللزوجة معا . اما الابيض فصقيل، وان اشد خشونة من الاصفر .

ومن نافل القول انه لا وجود لخشونة او للزوجة فعلية ، او لاي اختلاف حراري . كل ما في الامر ان الطلبة لجاوا الى التشبيه للتعبير عن الاحاسيس الجلدية ـ البصرية الجديدة . فقد وضع نوفومسكي اوراقا من الالومينيوم وصفيحات من النحاس الاحمر والاصفر على اوراق ملونة ، مضاءة من الاسفل. وعلى الرغم من الحواجز المعدنية ظل التلامذة ، المعصوبو العيون، يقولون : «شيء ما يلصق بيدي ؛ اشعر باللزوجة» عندما كانوا يضعون اصابعهم على ورقة حمراء ، و«اشعر بشيء مصقول» عندما كانوا يمررون أيديهم فوق ورقة زرقاء فاتحة .

ان الدكتور نوفومسكي ، الذي ربط بين ظواهر الرؤية غير البصرية وبين الحقول الكهرطيسية ، لجا الى وضع صفحات من الورق الملون فوق صفيحة عازلة . وقد شعر التلامذة فجاة ب «شيء ما» **فوق** الورقة . اتصلت أيديهم ب «شيء ما» في الهواء . تولد لديهم شعور بأن الالوان تصدر ضربا من الاشعاع الى علو محدد ، لكأنها تمتد في بعد ثالث .

في البداية كان الطلبة يشعرون بوجود الالوان وكانه حاجز في الفضاء . ومع اكتسابهم المزيد من التمرس والخبرة راحوا يعلنون : «اشعر باحتراق وكان يدي فوق لهب» ، «هذا اللون بارد للغاية فهو ينشر نفحة صقيعية» .

وقد اتفق الطلبة السوفييت على سلم «حراري» بصدد الالوان . ونستطيع ان نلخص تجاربهم قائلين ان الاحمر كاوٍ ، والبرتقالي دافىء ، والاصفر فاتر ، والاخضر لا ساخن ولا بارد، والازرق الفاتح بارد ، والكحلي صقيعي ، والبنفسجي بارد ولاذع.

الى جانب الاحساس بالحرارة والبرودة اتى الطلبة بذكر

احاسيس بالوكز ، والعض ، والضغط ، والقرص ؛ وقد ذهبوا الى حد الزعم بأن بعض الالوان كان ينفخ على اصابعهم .

ان الاهمية الفعلية للرؤية غير البصرية تكمن في امكانية افادة العميان منها . وبهؤلاء المحرومين كانت روزا تفكر طوال سنوات تمرسها .

الدكتور جاكوب فيشليف ، الذي لاحظ ان معظم طلابه يستطيعون اكتساب ملكات غير بصرية ، قصد معهد الأضرار في بيشما ، وطلب من فتاة في الصف الثاني ، ناديا لوبانوفا ، ان تفتح له يدها . وعندما فعلت اسقط الدكتور فيشليف على يد الفتاة شعاعا من النور وقال لها : «هذا احمر» ثم «هذا اخضر» . وبعد بضعة ايام كانت ناديا قد اصبحت قادرة على معرفة لون الشعاع المسقط على كفها . ولم تمض اسابيع حتى كانت قد تمكنت من التعرف الى سائر الوان الطيف الشمسي . وقد اعطاها فيشليف بعد ذلك اوراقا ملونة . فتعلمت من جديد كيف تتعرف الى الوانها . ثم قدم لها فيشليف أوراقا ملونة مغطاة بألواح من الزجاج . ومع ذلك ظلت ناديا تتعرف بسهولة الى الالوان . هنا تدخل الدكتور نوفومسكي وغطى الاوراق الملونة بصفيحة من النحاس . وعندما انتهت ناديا من تسمية الالوان المختلفة ، اعترف لها بانه لا هو ولا استاذها فيشليف كانا سيستطيعان رؤية الالوان من خلف الصفيحة النحاسية .

وعمد فيشليف ، يساعده خمسة اساتذة آخرون ، الى تعليم ثمانية عشر طفلا من المعهد كيفية تمييز النور وتعرف ألوان الاصفر ، والاحمر ، والاخضر ، والازرق . وفي ايار ١٩٦٣ باشر فيشليف بتعليم ناديا احرف الطباعة . وقد بذلت الفتاة جهودا جبارة خلال اسابيع ، لكنها لم تحقق اي نتيجة . الا انها رفضت الاستسلام ، وكذلك فيشليف . وفي الخامس عشر من تشرين الاول تمكنت ناديا من قراءة كلمة اولى . وكانت هذه الكلمة «مير» حسب ادعاء السوفييت ، اي السلم والعالم . وهذه القصة اجمل

في الواقع من ان تكون حقيقية .

ان اكتشاف هذه القناة الجديدة ، التي تستطيع الانوار والالوان العبور من خلالها ، فتح امام الاضرار منفذا الى عالم طالما جهلوا كل شيء عنه . وخلال السنوات العشر الماضية كان غالبية الرواد في هذا الميدان من السوفييت .

اما في الولايات المتحدة فقد تولى الدكتور غريفوري رازران، رئيس قسم علم النفس في «كوينز كوليج» في نيويورك ، والخبير في شؤون علم النفس السوفييتي لدى معاهد الصحة الوطنية ، تولى تعريف مجلة **لايف** الاميركية على حالة روزا الخارقة . فقد أتيح لرازران فحص الفتاة في اثناء رحلة قام بها الى روسيا ، والتداول في ظاهرة الرؤية غير البصرية مع الطبيبين غولدبرغ ونوفومسكي .

وفي مقال حول الرؤية غير البصرية نشرته مجلة **لايف** كتب الدكتور رازران يقول : «هذا نموذج عن الظواهر التي يرفض الانسان ، غريزيا ، تصديقها . غير اني توصلت الى راي قاطع بصدد الرؤية غير البصرية : انها اكتشاف حقيقي» .

خلال مؤتمر دعا الى عقده في مدينة برم في عام ١٩٦٥ فرع الاورال لجمعية علماء النفس، اعلن الدكتور س.ن. دوبرونرافوف ان ٧٢ بالمئة من الاطفال يملكون ملكات غير بصرية قابلة للتطوير والتنمية . و«هذه الملكات تلاحظ بشكل خاص لدى الاطفال الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة والثانية عشرة» . وقد اتفق البحاثة السوفييت في ذلك المؤتمر على القول : «ان اجواء الكرنفال والاثارة» التي احاطت باكتشاف الرؤية غير البصرية لا يمكن الا ان تلحق الضرر بدراسة هذه الظاهرة والاساءة الى الاشخاص الذين يملكون هذه الرؤية . وانه لمن الافضل متابعة التجارب والابحاث على اشخاص مجهولين من الجمهور الواسع .

أما بالنسبة الى الدكتور نوفومسكي فقد اهتم بجمع المعلومات والمعطيات التي يمكن ان توظف لمساعدة العميان . وقد لاحظ ان

الراشدين هم أقل استعدادا من الاطفال لاكتساب ملكات غير بصرية . فالكبار يرفضون تقبل فكرة «الرؤية بواسطة اليدين» لانهم سجناء آرائهم المسبقة .

ويبدو ان الكهرباء والنور يلعبان دورا هاما في ظواهر الرؤية غير البصرية . فالرؤية غير البصرية ، شأن الرؤية البصرية تماما ، تضعف في الظل وتتعطل نهائيا في الظلمة الدامسة .

وبفضل جهود الدكتور نوفومسكي استطاع عامل في صناعة التعدين ، يدعى فاسيلي . ب ، التعرف من جديد الى الالوان على الرغم من انقضاء سبعة أعوام على فقدانه حاسة البصر من جراء حادث وقع له . فعندما عرض على فاسيلي ورقة معدنية قال : «ان اونها يميل الى البياض ... لكأنها رمادية ... او بالاحرى لكأن لونها معدني ، ازرق فولاذي» . وبعد ان وضع اصابعه على ورقة لونها احمر كرزي قال : «هذا يشبه اللون الاحمر ... احمر كرزي ... انه بلون الكرز قبل ان ينضج تماما» .

واطفئت الانوار . فاذا بفاسيلي يقول : «ان الاحاسيس تبدو وكأنها تهرب من اصابعي وتنحسر ببطء باتجاه العدم» . فأشعلت الانوار من جديد واذا بفاسيلي يصرخ بصوت منفعل : «النور ! لقد عاد النور ! لقد شعرت به» ...

ويؤكد نوفومسكي بهذا الصدد : «ينبغي ان يعيش الاضرار في غرف قوية الانارة . فعندما استبدلنا مصباح المئة واط الذي كان يضيء المختبر بمصباح آخر قوته ثلاثمئة واط اضحى في وسع فاسيلي ان يميز الالوان من على بعد تسعين سنتيمترا» . ويلعب لون النور ايضا دوره في عملية اعادة التأهيل . فاذا كانت الاضاءة زرقاء مثلا ، تيسرت عملية تحديد الاشياء التي هي زرقاء اللون بدورها .

واذا ما استمر السوفييت في هذا الاتجاه فان الملاحظات البسيطة للغاية التي سيستخلصونها ستكون دون ادنى ريب اكثر فائدة بالنسبة الى اضرار العالم من مشاريع روزا الخارقة

والهادفة الى احلال القراءة غير البصرية مكان طريقـــة برايل . فليس اسهل من اختيار لون سائر الاشياء المتداولة ، كقبضات الابواب ، والصنابير ، والتلفون ، والصحون ، بحيث يكـــون منسجما مع لون الاضاءة ؛ وهذا ما سيسمح للاضرار بالعثـــور عليها بسهولة .

الدكتور غولدبرغ ، اي الدكتور الذي اكتشف روزا ، خلص الى هذه الملاحظة الهامة بعد عمل طويل مع الاضرار : فالاشخاص الذين يكون مرد عاهتهم الى جرح فـــي العين او في العصب البصري يبدون استعدادا واضحا لاكتساب ملكات غير بصرية . وبالمقابل فان الاشخاص المصابين بتشويه في مناطق الدمـــاغ المرتبطة بمركز الرؤية يعجزون عن اكتساب هذه الملكات .

وقد اكتشف نوفومسكي ان قراءة الاحرف المطبعية تصبح اكثر سهولة في خال فرش هذه الاحرف على صفيحة يجتازهـا تيار كهربائي موجب . وقد تساءل بعض العلماء : هل بالامكان اختراع نوع من المكاتب الكهربائية تسمح للاضرار بالمطالعة ، او على الاقل بتمييز الرسوم ؟

لقد استقبل معظم الباحثين الاميركيين التقارير الموضوعـة حول روزا بذلك الازدراء الذي هو عادة من نصيب الاكتشافات التي تخرج عن حقل المألوف . لكن ثمة شخصا لم يقو علـــى استقبال موجة الانفعال التي خلّفها هذا الاكتشاف في الاوساط العلمية السوفييتية بهزة كتف على الطريقة الفرنسية . انه جول رومان ، الاديب الذي لاقى نحبه اليوم ، والذي كان قد نشر في عام ١٩٢٠ بحثا حول رؤية البشرة .

فجول رومان الاديب ، الذي كان يملك اطلاعا واسعا فـــي الفيزيولوجيا وعلم الانسجة ، يشرح الاسباب التي دفعته الـــى الاهتمام بشكل خاص بمسألة الرؤية غير البصرية : «كنت اترقب ساعة ولادة سيكولوجيا اكتشافية لا تهتم بزيادة عـــدد الخطب البليغة حول وقائع معروفة منذ زمن بعيد بقدر ما تهتم باكتشاف

معطيات جديدة . وكان اكتشاف حاسة مجهولة ياتي في راس هذا البرنامج من اجل سيكولوجيا جديدة» .

وكان رومان قد لاحظ قبل السوفييتبزمان ان البشرة قادرة على التقاط أحاسيس بصرية ، اي انها تملك ، حسب تعبيره ، ملكات «ميتابصرية» . وقد اتضح له ان بشرة الوجه واليدين اكثر حساسية على هذا الصعيد . وقد تعلم الاشخاص الذين اختارهم رومان قراءة أحرف طباعية ، والتعرف الى الالوان المختلفة ، والرؤية عن مسافة بعيدة عن طريق الرؤية الميتابصرية. وقد اشرفت لجنة خاصة من اطباء العيون على هذه التجارب وتأكدت من صحتها . كما أجرى رومان بعض التجارب امام برغسون واناتول فرانس .

لقد نشر بحث جول رومان قبل سنوات خلت في فرنسا والولايات المتحدة . وقد علّق رومان على نظريته حول ملكات الرؤية غير البصرية قائلا : «كنت اتوقع إقدام غيري من البحّاثة على مناقشتها ودراستها . لكن على الرغم من انقضاء اربعين عاما على نشرها ، فان شيئا من هذا القبيل لم يحصل ؛ صحيح ان الروس والاميركيين لا يشعرون بالحاجة الى استعجال الامور . لكننا كنا نتوقع منهم قدرا من الحياء يحول دون ان يصوروا النتائج المتواضعة التي وصلوا اليها على انها اكتشاف فذ» .

الفصل الرابع عشر

الباراسيكولوجيا بين الغرب والشرق

عندما غادرنا الاتحاد السوفييتي كنا لا نزال تحت تأثير «القصف المستمر للمعطيات العلمية» الذي استهدفنا طوال شهر. فقد اجتمعنا بالمئات من الاشخاص ، وجمعنا فيضا من المعلومات ، وكدسنا في متاعنا المنشورات المختصة والتقارير التقنية .

يوم وصلنا الى روسيا كنا لا نزال نتساءل عما اذا كان الروس قد تمكنوا فعلا من احراز تقدم في ميدان البحث الميتانفسي . وقد تأكدنا من ذلك تماما بعد اقامتنا في روسيا . والسؤال الذي كان يطرح نفسه علينا ونحن نغادرها هو : اي نتائج ستترتب على هذا التقدم بالنسبة الى الاتحاد السوفييتي ، وايضا بالنسبة الى اميركا ؟ فهل دخلت الدولتان العظميان ، على صعيد الادراك

فوق الحواسي ، في سباق شبيه بسباق الفضاء الذي خاضتا غمارة في مطلع الخمسينات ؟

كي ندرك تماما النتائج التي قد تترتب على هذا الوضع بالنسبة الى البحث العلمي في الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، يبدو لنا من الاهمية بمكان ان نبدأ بدراسة الميتاسيكولوجيا الروسية كظاهرة ثقافية داخلية اولا ، ومن زاوية سياسة الاتحاد السوفييتي الخارجية ثانيا .

جاسوسية او سلاح استراتيجي

يقول الدكتور ميلان ريزل ، وهو من مواليد براغ ، ان «روسيا تكرس الجزء الاكبر من ابحاثها السرية لاعمال ميتانفسية تهدف الى خدمة شؤون امن الدولة والدفاع الوطني» .

ويضيف الدكتور ريزل : «قبل بضعة أعوام طرح السوفييت برنامجا يقضي بتسخير التخاطر لاعادة تثقيف عناصر معادية للمجتمع . اي لجعلها تتبنى ، عن طريق الايحاء ، آراء سياسية واجتماعية محددة . ولدينا دليل على ان جزءا من الاموال التي اعطيت للدكتور فاسيلييف لتغطية نفقات اعماله كان مخصصا لابحاثه السرية» . ويخلص الدكتور ريزل الى القول : «يجب الا ننسى ان الباراسيكولوجيا قابلة لان تسخر لاغراض اجرامية» .

يحمل أشهر علماء الاتحاد السوفييتي الباراسيكولوجيا على محمل من الجد ولا يعتبرونها ضربا من المزاح . وثمة تقارير حول تجارب باراسيكولوجية اجريت داخل غواصات سوفييتية تأتي لتؤكد صحة ما يقال عن التوجه العسكري للابحاث الباراسيكولوجية . وقد اجري كذلك العديد من التجارب الباراسيكولوجية في المعاهد الحربية . وقد تسنى لنا الاطلاع على بعض التقارير السرية الغربية التي جاءت بذكر محاولات

سوفييتية ترمي الى استخدام الاستبصار في التجسس . ان قسما من الباحثين في معهد بافلوف للنشاط العصبي الاعلى يهتمون ، حسب ادعاء كليمنت. ف. ستون ، بأبحاث سرية حول بسي ، وثمة خمسون باحثا على الاقل في معهد دوروف لا يهتمون الا بالتخاطر .

شخصية غربية واسعة الاطلاع اكدت بدورها «ان معظم الباحثين السوفييت مخلصون وشجعان ، غير انهم واقعون في قبضة السياسيين» . وفي سائر احاديثنا في الاتحاد السوفييتي حول ا.ف.ح كنا نسمع هذا النغم المكرر الواحد : «يجب الا يسخر ا.ف.ح لاغراض اجرامية . املنا الا يقع بين ايدي اناس يتطلعون الى استخدامه كسلاح بيولوجي» . وقد طلب الينا ان نؤكد على هذه النقطة بالذات لدى عودتنا الى اميركا .

لو كلف الغربيون انفسهم مشقة الاطلاع على المجلات السوفييتية في الخمسينات لتبين لهم ان الجزء الاكبر من المعلومات الخاصة بسبوتنيك كانت قد نشرت في تقارير عامة قبل اطلاق هذا القمر الصناعي بفترة . وها نحن اليوم ايضا نهمل دراسة المعلومات المتوفرة لدينا فيالمجلات والصحف السوفييتية، ولاسيما المتعلق منها بالباراسيكولوجيا . جون غونتر مؤلف **روسيا اليوم** يقول بهذا الصدد : «ان العلماء الاميركيين يدللون على جهل مؤسف بكل ما يتعلق بأعمال زملائهم السوفييت . وقد تترتب على هذا الموقف ذات يوم عواقب مادية خطيرة للغاية» .

الباراسيكولوجيا والدين في الاتحاد السوفييتي

كان البلاشفة الاوائل يحلمون ببناء عالم جديد . وكان لحنينهم الى عالم افضل طابع مثالي ، طوباوي ، بل شبه ديني حسب تعبير الاستاذ نيقولاي خوخلوف الذي هرب من الاتحاد السوفييتي والذياصبح استاذا لعلم النفس في الولايات المتحدة.

هذه الاحلام المثالية قد تلاشت اليوم كما يبين ذلك خوخلوف . لكن تبقى لدى الشباب السوفييت رغبة عميقة في تحقيق ولو جزء من البرنامج الشيوعي الاولي . بالمقابل ، شهدت الآونة الاخيرة نمو ضرب من الحركة «الدينية» في الاتحاد السوفييتي . فالروس ، كما تقول سفيتلانا اليلويفا ، «متدينون بالفطرة . والشعور الديني لا يأتيهم عن طريق مطالعاتهم وانما عن طريق عواطفهم واحاسيسهم» .

وفي مجلة **الحياة السوفييتية** علق شاب بهذه العبارات على استقصاء اجتماعي كان قد أجري في الاتحاد السوفييتي : «ان الجيل الصاعد سيتمتع بشروط حياة مادية افضل بكثير من الماضي ، لكنه سيعاني من مشكلات اكثر تعقيدا واصعب حلا . انها ضرورة تاريخية . فقد عانى اهالينا من مشكلات مادية صعبة، اما مشكلاتنا نحن فسوف تكون روحية» .

هل سينجح العلماء الباراسيكولوجيون في خلق تيار روحي جديد انطلاقا من الاكتشافات التي حققوها حول طبيعة الانسان؟ ان كان المقصود ب «التيار الروحي» العودة الى ديانة او عبادة منظمة فلا ريب في ان اهداف الباراسيكولوجيا السوفييتية براء من ذلك . اما اذا كان المقصود بكلمة «روحي» تحديد البحث عن فهم افضل للانسان ولمكانه في المجتمع ، فان الاعمال السوفييتية تستحق عندئذ ان توصف بأنها تعبير عن بحث روحي .

المداخلات السياسية

في الستينات الماضية واجهت السلطات السوفييتية ظواهر جديدة لم يسبق ان شهدتها روسيا : فقد برزت معارضة عنيدة لبعض الاجراءات الحكومية في تظاهرات علمية وفي مجلات كانت فيما مضى توزع سرا واصبحت تتداول بحرية تامة ، منها **الهرطقة** و **العنقاء** و **النحو** .

وكان المفكرون الاكثر جراة وتحررا ياتون من صفوف الكتّاب والعلماء . فهؤلاء يشكلون طبقة نخبوية تتمتع بامتيازات مادية وبحرية الاطلاع . ففي بيانه الشهير **تقرير ضد النظام** هاجم الدكتور اندريه سخاروف ، صانع القنبلة الهيدروجينية والحائز على جائزة لينين ، النظام السوفييتي بحدة غير معهودة ، وقد انتقد سخاروف الاكراهات والضغوط التي تمارسها الدولة على المثقفين ، وطالب بتعاون اكبر بين الشرق والغرب كما دعا الى مصالحة الراسمالية والشيوعية . وقد تلقى سخاروف الدعم والتأييد من عدد من كبار العلماء السوفييت كالدكتور كابيتسا والدكتور ايفور تام . والواقع ان البحاثة السوفييت ، من شباب وشيوخ ، قد تضامنوا ووحدوا صفوفهم داخل حركة واحدة . وقد تجنب النظام السوفييتي الدخول في نزاع معلن مع علماء ذاع صيتهم عالميا ، وفضل اللجوء الى الاساليب الملتوية للقضاء على معارضتهم . وقد انعقدت جمعية سرية لمناقشة الاوضاع المتفجرة السائدة في عالم البحث العلمي . واعيد بعث الوزارة «الستالينية» المعروفة باسم وزارة الدفاع عن النظام العام . وفي عام ١٩٦٨ اخضع الحكم ثمانمئة الف باحث لمراقبة شديدة . كما اضطرهم الى الخضوع كل ثلاثة أعوام لفحص «تثبيت» سياسي مقابل الاحتفاظ بمناصبهم . وفي لينينغراد نحي ما يقرب من مئة عالم عن مناصبهم بحجة انحرافهم .

وقد شنت الصحف السوفييتية حملة ضد سائر البحاثة وهاجمت «حلقاتهم المقيتة» و«نظرياتهم المضللة» و«افتقارهم الى خط سياسي واضح» . ولم توفر هذه الحملة الصحفية الباراسيكولوجيا . وقد هاجمت **البرافدا** ، صحيفة الحزب الرسمية ، سائر البحاثة الذين انكبوا على دراسة حالة نليا ميخائيلوفا .

هل يعني هذا أن عمر الباراسيكولوجيا قد انتهى في الستينات ؟ لا بكل تأكيد ! فمن المستبعد ان يكون الستالينيون

الجدد في الاتحاد السوفييتي قد تمكنوا من كبح تطور البحث الباراسيكولوجي وتقدمه . فهم اولا لا ينفردون في ممارسة السلطة ، كما ان معارضتهم ثانيا ليست موجهة ضد الباراسيكولوجيا بحد ذاتها وانما ضد مبدأ نشرها وتعريف الجمهور الواسع عليها ، وكذلك ضد العلماء الذين يحبذون حرية التبادل الثقافي بين مختلف اقطار العالم . وما نستطيع قوله هو ان الستالينيين الجدد لن يجنوا ، على المدى البعيد ، من سياستهم المناهضة لحرية التبادل العلمي سوى كبح تطور بلادهم كما سبق لهم ان عرقلوا تقدم برنامجهم الفضائي .

البحث الميتاطبيعي في الاتحاد السوفييتي وأميركا

ماذا يمكننا ان نستخلص من المقارنة بين الباراسيكولوجيا الغربية والباراسيكولوجيا السوفييتية ؟ بعض البحاثة الغربيين يؤكدون قائلين : «لقد بتنا متخلفين زهاء ثلاثين عاما عن الاتحاد السوفييتي» . لكن بعضهم الآخر ينفي ذلك قائلا : «ان اساليبنا العلمية متفوقة على الاساليب السوفييتية ، والتجربة التي اكتسبناها اهم بكثير» .

والواقع ان الحكومة السوفييتية تنفق سنويا عشرين مليون روبل على البحث الباراسيكولوجي ، في حين ان الميزانية الاميركية لم تلحظ اي باب خاص لهذا البحث . ونستطيع ان نلخص نقاط اختلاف البحث الباراسيكولوجي بين الاتحاد السوفييتي واميركا على النحو التالي :

١ ـ ان نقطة الاختلاف الجوهرية بين الابحاث الاميركية والسوفييتية تكمن في توجه هذه الاخيرة الى التطبيقات العملية للادراك فوق الحواسي ، في حين ان العلماء في اميركا لم ينتهوا الا مؤخرا فحسب من اثبات وجود ظاهرة **بسي** .

٢ ـ ان البحث الباراسيكولوجي في الاتحاد السوفييتي يعتبر

فرعا من الفروع العلمية . ففي الاقطار الشرقيــة ثمة مختبرات للباراسيكولوجيا في الجامعات ، والمعاهد التقنية ، والمؤسسات العلمية . ويتولى اخصائيون مرموقون اجراء الابحاث والتجارب فيها . فالتخاطر مثلا يثير اهتمام العديد من رجال العلم ، بدءا من التقني العادي وحتى الاستاذ في اكاديمية العلوم . في حين ان الباراسيكولوجيا في اميركا لا تزال القريب الفقير لعلم النفس الذي لا يتقبل معشر اهل العلم وجوده الا على مضــض . وليس للباراسيكولوجيا اي مكان في جامعاتنا .

٣ ــ ان الروس يعملون جماعيا ، ويجمعون اخصائيين من عدة فروع علمية للحصول على رؤية شاملة للمشكــــلات المثارة . وهنالك ، علاوة على ذلك ، نوع من التعاون بين سائر العلماء في الكتلة الشيوعية . اما في الغرب فان البحاثة يعملون بمفردهم بشكل عام ، او بصحبة مساعد او اثنين من داخل اختصاصهم .

٤ ــ ان السوفييت على اطلاع دائم على آخر تطورات البحث العلمي في الغرب . فقد سمعوا مثلا بالاشخاص الذين يتمتعون بمواهب بسي مثل كايس ، وكروازيه ، وسيريوس ، واطلعوا على سائر الابحاث والتجارب التي اجريت في بلادنا . اما الغربيون فنادرا ما يهتمون بالابحاث السوفييتية .

٥ ــ ان الاعمال السوفييتية في حقل ا.ف.ح تقوم ، قبل اي شيء ، على قاعدة فيزيولوجية . في حين ان البحاثة الغربيين يبدون عن اهتمام خاص بالجانب الاحصائي ، والسيكولوجي ، والفلسفي لـ «بسي» . لقد حصر البحث السوفييتي نفسه بميدان محدود ومختص للغاية . في حين ان ابحاثنا تتميز بعموميتها وتشتمل ايضا على العلوم الانسانية ، وعلــم النفس المرضي ، والدين ، والفلسفة . ان البحث الغربي غني بثمانين عام مـــن التجربة وبمجموعة هائلة من المعلومات تمثلها السوفييت بسرعة لتدعيم تجاربهم الحديثة في ميدان بسي .

٦ ــ تتولى الصحف السوفييتية نشر المعلومات المبسطة عن

الباراسيكولوجيا ، وتتولى الصحف المختصة بالفروع العلمية المختلفة نشر الدراسات المتبحرة حولها . كذلك تعمد المعاهد السوفييتية بانتظام الى اصدار كراسات تتضمن مقالات عن الباراسيكولوجيا . وبالمقابل ، نادرا ما نرى مجلة علمية اميركية تقدم على نشر ابحاث حول ا. ف.ح .

٧ ــ اكثر ما يلفت الانتباه عند الباراسيكولوجيين السوفييت حماستهم لعملهم ، وانفتاحهم على الافكار الجديدة ، وجراتهم الفكرية ، وحسن استعدادهم لدراسة المعتقدات القديمة والبائدة .

ان المواطنين السوفييت الذين يملكون مواهب باراسيكولوجية لا يخجلون من البوح بها . في حين ان البحاثة الغربيين يخجلون عادة من الاشارة الى مواهب مماثلة .

٨ ــ ان الجزء الاكبر من الابحاث في الغرب كان ، حتى الامس القريب ، من عمل أفراد او مؤسسات سعت وراء اجوبة واضحة لمشكلة الحياة والموت واهتمت بالفلسفة الدينية بشكل خاص . اما في الاتحاد السوفييتي فان الباراسيكولوجيا ، كما يقول الدكتور ريزل ، «تبدو كحقل ابحاث يتمتع بطاقة علمية كامنة» . ودوافع البحث الباراسيكولوجي في الاتحاد السوفييتي تبدو اكثر واقعية .

جورج كنَر ، سفير الولايات المتحدة السابق في الاتحاد السوفييتي ، قال ذات مرة : «لا يستطيع المرء ان يفاخر بانه يعرف روسيا حق المعرفة . كل ما في الامر ان هنالك تفاوتا في درجة الجهل بها» .

لكن ثمة امرا يبدو اليوم مؤكدا : ان الباراسيكولوجيا قد ارست قواعدها تماما في البلدان الاشتراكية ، ولاسيما في روسيا ، وان هذا العلم سيتقدم بخطوات ثابتة وسريعة .

٣٠٠٠/٩١/١١٢٤

هذا الكتاب

هل يمكن التخاطب بالفكر؟ هل تمكن الرؤية عن غير طريق العين؟ هل يمكن للفكر أن يؤثر في المادة؟ وهل ظواهر مثل التنويم المغناطيسي والتخاطر (التلباثي) والاستبصار وسبق العلم والتقمص والتلكينيزيا (تحريك الأشياء بقوة الذهن) وسائر تظاهرات الحاسة السادسة قابلة للبرهان والتفسير العلميين؟

ان هذا الكتاب، الذي كتبته أميركيتان مختصتان في شؤون الباراسيكولوجيا السوفياتية، يقدم برهاناً وتفسيراً عقلانيين وعلميين معاً لكل ما جرت العادة على تصنيفه حتى الآن في عداد الظاهرات الغيبية والشعوذات اللاعقلانية.

والكاتبتان، إذ تحصران موضوع بحثهما بالباراسيكولوجيا السوفياتية، تقودانا إلى عالم أخّاذ يصطرع فيه التصور المادي للتاريخ مع ظاهرات ما كانت توصف إلى اليوم إلا بأنها روحية.

كتاب فريد في نوعه في المكتبة العربية، ورحلة في أغوار النفس البشرية تكشف عن وقائع علمية هي بالفعل أغرب مما يمكن أن يتخيله الخيال.

دار الط